

المدخل إلى
القيم الإسلامية

بقلم

الدكتور جابر قميحة

كلية الألسن - جامعة عين شمس

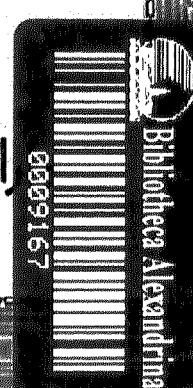
الناشرون

دار الكتب الإسلامية

الكتاب المصري دار الكتاب اللبناني

بيروت

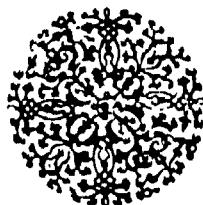
القاهرة



الْمَدْخُلُ إِلَى
الْقِيمَةِ الْمَسْلَيَّةِ

بِقَامِ
الدُّكْتُورِ جَابِرِ قَمِيْحَةَ
كُلِّيَّةِ الْأُلْسُنِ - جَامِعَةِ عِيْنِ شَمْسٍ

الناشرون
دار الكتب الإسلامية
دار الكتاب المصري دار الكتاب اللبناني
القاهرة بيرفت



جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر :

دار الكتاب المصري

القاهرة - ج.م.ع

٣٣ شارع قصر الشيل - ص.ب. ١٥٦
ت ٧٤٢٠١ / ٧٤٦٨٨ - برقية : [كتامصر]

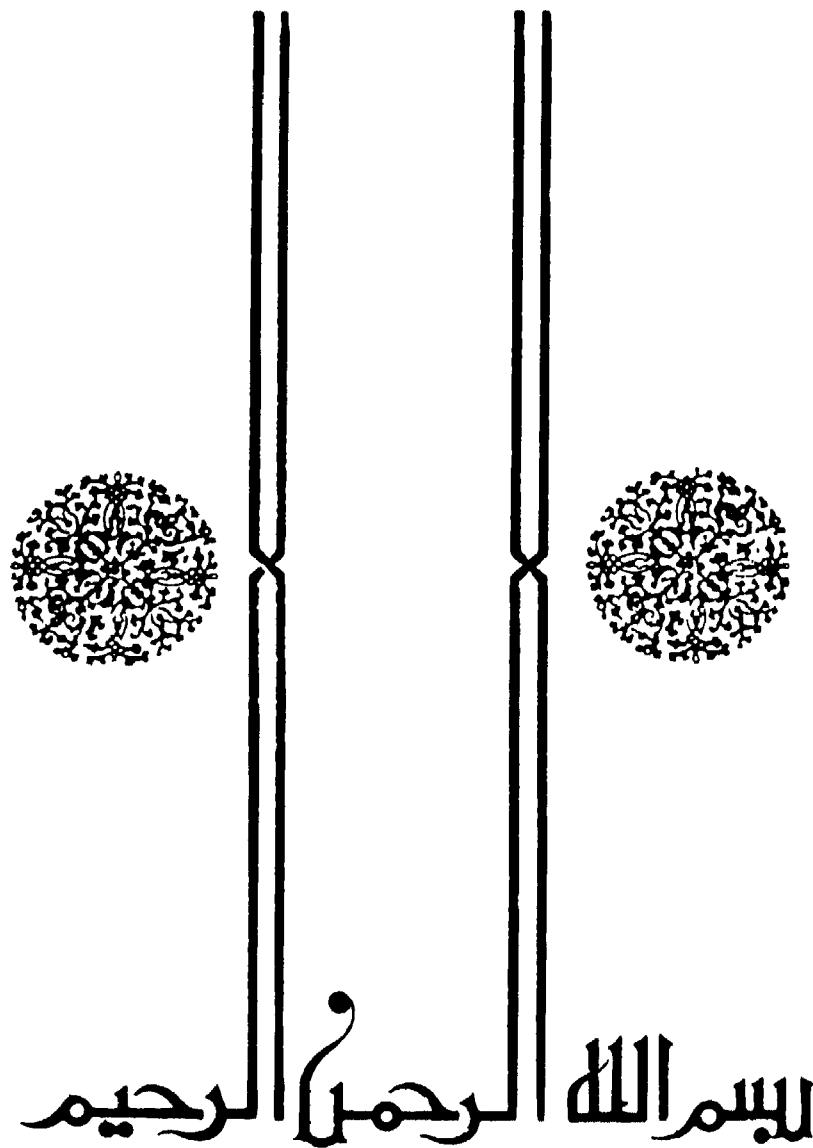
TELEX: 21581
ATT: 134 K.T.M CAIRO

دار الكتاب اللبناني

بيروت - لبنان

ص.ب. ٣١٧٦ - برقية : كتاب لبنان
٤٣٧٥٣٧ / ٤٥١٤٩٤ تليمونات

TELEX: K.T.L 22865 LE
BEIRUT



الطبعة الاولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

الإهداء

.. إِلَى الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ، وَعَلَى الْحَقِّ
أَقَامُوا ، فَنَهُم مِنْ قَضَى نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا
تَبَدِيلًا ..

.. إِلَيْهِمْ – بِصَدِيقٍ وَحْقٍ – أَهْدَى هَذِهِ الْكَلْمَاتِ .

تقديم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَحَدُ اللَّهِ سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَأَصْلَى وَأَسْلَمَ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءَ
وَالْمَرْسَلِينَ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ عَلَى خَلْقِ عَظِيمٍ ، وَبَعْثَهُ لِلْبَشَرِ يَةَ رَحْمَةً مَهْدَاهُ .. وَبَعْدَ :

أَقْدَمَ لِلقارِئِ الْعَرَبِيِّ بِخَاصَّةٍ وَالقارِئِ الْمُسْلِمِ بِعَامَّةٍ هَذَا الْبَحْثُ الْمَتَوَاضِعُ الَّذِي جَعَلَتْ
عَنْوَانَهُ - (الْمَدْخُولُ إِلَى الْقِيمِ الْإِسْلَامِيَّةِ) . وَالْمَعْنَوَانُ تَعْبِيرٌ دَقِيقٌ عَنْ مَحْتَوِيِ الْبَحْثِ : فَهُوَ عِرْدٌ
مَعَالِمٌ عَلَى طَرِيقِ الْوَصْلِ إِلَى الْقِيمِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالتَّعْرِفُ عَلَى السَّبِيلِ الْمُؤْدِيِّ إِلَيْهَا ، وَقَدْ قَسَّمَتْ
الْبَحْثُ إِلَى أَرْبَعَةِ فَصُولٍ :

الفَصْلُ الْأُولُ : بِعَنْوَانٍ : (مَعَ التَّارِيخِ وَرَصِيدِ الْفَطْرَةِ) وَكَانَ دراسةً تَارِيخِيَّةً اجْتِمَاعِيَّةً
مُوجِزَةً لِأَخْلَاقِيَّاتِ الْمُجَتَمِعِ الْجَاهْلِيِّ بِمَفْهُومِهِ الْوَاسِعِ : الْفَضَائِلُ مِنْهَا وَالرَّذَائِلُ ، وَمَوْقِفُ
الْإِسْلَامِ مِنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِيَّاتِ .

وَالْفَصْلُ الثَّانِي : خَصَائِصُ الْقِيمِ الْإِسْلَامِيَّةِ : أَبْنَتْ فِيهِ عَنْ سَمَاتِ الْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ
بِكُلِّ أَنْوَاعِهَا وَأَوْلَانِهَا وَأَثَرَ هَذِهِ السَّمَاتِ فِي بَقاءِ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ وَخَلُودِهَا .

وَالْفَصْلُ الْثَالِثُ : حَمْدُ الْقِيمِ وَالْمَنْجَعِ : عَرَضَتْ فِيهِ صُورَةً نُفْسِيَّةً أَخْلَاقِيَّةً لِلشَّخْصِيَّةِ الرَّسُولِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَيْفَ كَانَ مَثَلاً أَعْلَى لِلْمُسْلِمِينَ فِي قَوْلِهِ وَفَعْلِهِ ، كَمَا يَبْيَنُ فِي الشَّقِّ
الثَّانِي مِنَ الْفَصْلِ مِنْهُجِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي غَرِسِ الْقِيمِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي نُفُوسِ أَصْحَابِهِ ، وَفَصَّلَتْ
إِلَى حدٍ مَافِي مَلَامِحِ هَذَا الْمَنْجَعِ .

أَمَّا الْفَصْلُ الرَّابِعُ : «شَبَهَاتٌ عَلَى الطَّرِيقِ» فَجَاءَ خَاتَمَةً طَبِيعِيَّةً هَذَا الْبَحْثُ . عَرَضَتْ
فِيهِ لِلشَّبَهَاتِ الَّتِي يُشَيرُهَا الشَاكُونُ وَالشَّكُوكُونُ حَوْلَ الدُّعَوَةِ إِلَى «إِسْلَامِيَّةِ الْقِيمِ»
وَحاوَلَتْ - فِي إِيجَازٍ - أَنْ أَفْنِدَ هَذِهِ الشَّبَهَاتِ وَأَنْقُضَنَّ تِلْكَ الشَّكُوكَ .

وقد أخذت نفسي بعدة أمور تبين عن المنبع الذي سلكته في هذا البحث . ومن أهمها :

- ١ - الاعتماد بصورة أساسية على القرآن والسنّة في استخلاص المحقائق والعناصر التي تتعلق بالقيم والمجتمع والشخصيات . وكان اعتمادى الأساسى بالنسبة للسنّة على صحيح مسلم والبخارى بصفتها أصح الصحاح وأدقها .
- ٢ - البعد عن الخلافات التي وردت في كتب الفقه والتصوف والكلام والأخلاق والفلسفة فيما يتعلق بالأخلاق الإسلامية وشخصية الرسول ، لأنّى اعتبرت البحث مجرد تقديم ومدخل إلى القيم الإسلامية .
- ٣ - الإكثار من الشواهد القرآنية وشواهد السنّة الشريفة في بيان ما عرضناه من أفكار وما سنته من حقائق .
- ٤ - محاولة ربط هذه القيم بالواقع الإنساني والأخلاقي والقانوني المعاصر في إجمال خلوصاً إلى تبيان طوابع العظمّة في القيم الأخلاقية الإسلامية .
- ٥ - ربط النمذج النظري بالنموذج العملي ، أو بمعنى آخر الكشف عن مكان هذه القيم في شخصيات الرعيل الأول وعلى رأسهم أستاذهم .. أستاذ الحياة محمد بن عبد الله عليه السلام .

ولا أزعم أنني أتيت بما لم يأت به الأوائل ، فإن ضيق الوقت وكثرة المشاغل حالت دون ما كنت أرجو من أن يكون البحث عن «القيم الإسلامية» لاعن «مدخل» موصل إليها . وذلك كان يقتضيني إضافة عدة فصول أخرى .. من أهمها (صورة القيم الإسلامية) ويدور حول هذه القيم تفصيلاً في الحرب والسلم .. في مجال الفرد والأسرة والمجتمع ، والطبيعة الأخلاقية لهذه القيم قيمة . الخ . وإذا فاتني أن أقوم بذلك في زحمة العمل وضيق الوقت فإتيت آمل أن يتحقق الأمل في المستقبل القريب ببحث لاحق بعنوان القيم الإسلامية : صورتها وأبعادها ومعالجتها . (دراسة مقارنة) ..
والحمد لله في الأول والآخر .. ،

١٤٠٣ من شوال
١٩٨٣ من أغسطس

دكتور جابر قريحة
الدقى ٣٣ شارع هارون - القاهرة

الفصل الأول

مع التاريخ
ورصيد الفطرة

ليس هناك أصعب من البحث في «القيم الإسلامية» لالغموض في الموضوع أو انفلات في مناخيه ، ولكن لا تسعه وترامي أطراوه ورحابة مراميه : فالبحث في القيم الإسلامية يعني البحث في الإسلام كله ، أليس الإسلام هو دين القيم الإنسانية والأخلاق النبوية؟ ألم يقل الله سبحانه وتعالى :

سُبْلُكَ إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلّٰتِي هُنَّ أَقْوَمُ^(١)

ألم يقل رسول الإسلام عليه السلام «إنما بعثت لأنتم مكارم الأخلاق»

ألم يصف القرآن الكريم نبي الإسلام بقوله سُبْلُكَ وَإِنَّكَ لَعَلَّنَ خَلْقِي عَظِيمٌ^(٢)

ألم يكن أول مانزلي من القرآن يدعى ذاته دعوة لقيمة إنسانية عليا هي القراءة وتلقى العلم المادف لبناء الإنسانية .. لا العلم المدمر القاتل ؟

إقرأ .. باسم من ؟ باسم ربك ؟ والربوبية عطف وتعاطف ورحمة ، لذا نقول رب البيت ورب الأسرة .

ومن ربى ؟ إنه الذي خلق ... نعم الذي بنى وخلق ... إنه التلميح البعيد ... بل القريب ... القريب جدا إلى أن القراءة والعلم يجب أن يرتبطا بهدف إنساني نبيل هو «البناء والتشييد» لا الاستعلاء الكاذب ... ولا الإهلاك والتخريب والتدمير. «فالمعرفة ينبغي أن تكون أساس تركيب الإنسان ، وأول واجب علينا أن نعمل هذه المعرفة نافعة»^(٣)

والدعوة إلى القراءة هي دعوة واضحة إلى تلقى العلم ... وأكاد أرى أنها دعوة إلى ما هو أوسع وأرحب ... إنها دعوة إلى «التحول الديناميكي الناشط للبناء والإبداع استجابة للداعي الذي خلق «خلق الإنسان من علق».

وكانت «العلمية الحركية الناشطة» من أعظم الأسس التي اعتمدت عليها القيم الإنسانية في الإسلام . وهذه الدعوة تمثل قاعدة إيمانية قوية عريضة « .. فكل أمر .. كل حركة .. كل خطوة .. كل عمل باسم الله .. وعلى اسم الله .. باسم الله نبدأ .. وباسم الله نسير ، وإلى الله نتجه ، وإليه المصير. والله هو الذي خلق وهو الذي علم ، فنه البدء والنشأة ، ومنه التعليم والمعرفة ، والإنسان يتعلم ما يتعلم ، ويعلم ما يعلم ، فتصدر هذا كله هو الله الذي خلق والذي علم .. «علم الإنسان مالم يعلم» .

(١) الأسراء ٩

(٢) التلمس ٤

(٣) الكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول ٣٢٠

وهذه الحقيقة القرآنية الأولى التي تلقاها قلب الرسول صلى الله عليه وسلم في اللحظة الأولى هي التي ظلت تصرف شعوره وتصرف لسانه ، وتصرف عمله واتجاهه بعد ذلك طيلة حياته بوصفها قاعدة الإيمان الأولى (١)

وربانية المنبع القيمي لا تقييد حركة المسلم ولا تحد من انطلاقه الفكري ، ولكنها ترسم له الطريق ، وتضع له المعلم حتى لا يضل ولا يطغى ، ومن معلم هذا الطريق ينحصوصا في مجال الفكر والبحث-الحرص على التبين قبل الحكم ، وتحري الصدق في الرواية والصدق في التثبت والصدق في التفسير والصدق في التكيف مع توافر حسن النية في كل مسلك من المسالك ، وكل مرحلة من المراحل . حتى إذا ما اجتهد الباحث وأصاب كان له أجران ، وإذا ما اجتهد وأخطأ كان له أجر واحد.

وقد أرسى الإسلام قواعد هذا المنهج العلمي الأخلاقي في نفوس المسلمين وحياتهم . وقد وقفت طويلاً أمام حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .. حديث قليل الكلمات عظيم الدلالات : جاء في الأثر أن رجلاً حضر إليه وعلى وجهه أمارات الغضب ، وقد أمسك بتلاليب رجل آخر وهو يقول : يا رسول الله : إن هذا الرجل سرق مني كذا وكذا .. فرد عليه النبي قائلًا « لا تقل سرق ولكن قل أخذ ». .

وهذه الكلمات المشرقة تكشف في بساطة ووضوح المنهج الأخلاقي في جميع مناحي الحياة :

فنعطياتها قاعدة قانونية خلاصتها : ضرورة التثبت قبل الإدانة : فالمتهم بريء إلى أن تثبت إدانته . ويمتد العطاء الذي تمنحه هذه الكلمات حتى يصبح « منهاجا علميا » من ملامحه التأني والتعمق والتحقيق والترفع عن مستوى الشبهات والبعد عنها لا يطمئن إليه العقل والقلب والضمير .

واستقاء من هذا المنهل العذب حرص أسلافنا في كتابة التاريخ وتدوين الحديث النبوى على « العنونة » ... حدثنا فلان .. عن فلان .. الخ، وظهرت كتب المبرح والتعديل ، وهى الكتب التي تبحث في أخلاق الرواة والمحدثين وتضع معايير الأخذ والرفض ، فتجزىء من يطمأن إلى دينه وأخلاقه ، وترفض من يشك في يقينه أو عقيدته أو سلوكه أو قدرة حافظته .

وقد تأخذ الحيطة والأناة والثبت العلمي عند بعض السلف صورة تدعى إلى الدهشة والعجب والإعجاب .. فقد روى أن أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلَ رَجُلٌ أَسَابِعَ أَوْ شَهْرًا إِلَى رَجُلٍ سَمِعَ

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن / ٦ ٣٩٣٩

يعلم وحفظه ، ليأخذ عنه حديثا ، وتجثم في سبيل الوصول إليه من الماشق ما يعجز عنه الوصف ، فلما وصل إليه رأه يجمع أطراف ثوبه ويدعوه إلى بغلته موها إياها أن في حجره شيئاً، وحجره فارغ ، فتخرج ابن حنبل أن يروي عنه حديثا واحدا لأنه كذب على بغلته « ومن يكذب على بغلته لا يؤمن على حديث رسول الله »

فهذا مثل واحد يبرز لنا الطابع الأخلاقى الربانى في البحث عن حقائق العلم والدين^(۱)

وربانية « المنبع القيمي » هنا ، أو بعبير آخر : ربط القيمة الإنسانية العلمية الحركية هنا بالمنبع العلوى وهو الله سبحانه وتعالى يكسب القيمة « سموا » من ناحية ومنحها قوة ورسوخها من ناحية أخرى على ما سنعرف بالتفصيل ان شاء الله في ثنايا هذا البحث وتضاعيفه .

وبين **أَفْرَأَ يَاسِرَ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ... و **أَتَيْمَ أَكْمَلَتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ إِلَسْلَمَ دِينًا** ...^(۲)

... بين هاتين الآيتين .. وعلى مدى ثلاثة وعشرين عاما هي مسيرة النبوة الحمدية الوضيئه . قرابة ربع قرن من الوحي والنور والهدایة والتوجيه السديد في شتى المجالات .. قرابة ربع قرن من الاتصال حتى الناضج بين الأرض والسماء تكون رصيدها ضخم من القيم الإنسانية ... اعتنقها أمّة فخرجت بها من الظلمات إلى النور ... ومن الضعف إلى القوة .. ومن الذلة إلى العزة .

لقد أصبحت « الشخصية الإسلامية » ذات نسج جديد حتى قوى متين وصفه لنجاشى الحبيشة جعفر بن أبي طالب حين هاجر المسلمين إليها فارين بدينهن : « أَبِيَ الْمَلْكِ كَنَا قوماً أَهْلَ جَاهْلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمِيَّةَ ، وَنَأْتَى الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنَسْيَءُ الْجَوَارَ ، وَيَأْكُلُ الْقَوْيَ مِنَ الْفَعِيفِ ، فَكَنَا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنْنَا ، نَعْرَفُ نِسْبَهُ وَصَدْقَهُ ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنَوْحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلُعَ مَا كَنَا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأُوْثَانِ ، وَأَمْرَنَا بِصَدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصَلَةِ الرَّحْمَ وَحْسَنِ الْجَوَارِ ، وَالْكَفْ عنِ الْحَارِمِ وَالدَّمَاءِ ، وَهَنَّا كُمْنَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقُولُ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتَمِ ، وَأَمْرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّيَامِ ، فَصَدَقْنَاهُ وَآمَّنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَا عَلَى ماجاءَ بِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ

(۱) انظر في أخلاقيات المنبع العلمي الإسلامي مقالاً لنا في مجلة الرائد الكويتية ۱۳ يونيو ۱۹۷۴ ومقالاً آخر في صحفة الأخبار القاهرة في ۲۵/۲/۱۹۸۱.

(۲) المائدة ۳ وهي آخر مانزل من القرآن على أرجح الأقوال .

وحده، ولم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنوا عن ديننا ليردوانا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل من الخبائث .. فلما تهرون وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا .. خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبتنا في جوارك ، ورجونا لأنّظم عندك»^(١) .

عبادة الأوثان . أكل الميتة . إتّيان الفواحش . قطع الأرحام . الإساءة إلى الجار . منطق البغي والقوة . كانت هذه الملامح تمثل قائمة القيم الجاهلية . وهيــ كما هو واضحــ قائمة خاتمة منحرفة ، ألم تر إلى هؤلاء الجاهليين وهم يفخرون «بفضيلة» البغي والعدوان . يقول عمرو بن كلثوم :

بُغَاءٌ ظَالِمِينَ وَمَا ظَلِمْنَا وَلَكُمْ سَبَدًا ظَالِمِيَّتَا^(٢)

وقد يمتد الظلم إلى أقرب الناس على طريقة :

وَأَخْيَانًا عَلَى بَكْرٍ أَخْيَتَا إِذَا مَا لَسْمَ تَجِدُ إِلَّا أَخْيَانًا

وتسرّبت رواسب من هذه المفاهيم الغالطة إلى نفوس بعض المسلمين فرددتها في ساعة من ساعات الضعف البشري والملاحة العنيفة : فتميم بن مقبل يغضب غصباً شديداً لأن النجاشي الشاعر هجاه ... نعم هجاه وهجا قبيلته بقوله :

**قَبِيلَتَه لَا يَغْدِرُونَ بِذَمَّةِ لَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ حَرْدَلٍ
وَلَا يَرْدُونَ الْمَاءَ إِلَّا عَشَيَّةَ إِذَا صَرَّرَ الْوَرَادُ عَنْ كُلِّ مَهَلٍ
تَعَافُ الْكَلَابُ الضَّارِيَّاتُ لَحْوَهُمْ وَتَأْكُلُ مِنْ عَزْفَ بْنَ كَعْبَ بْنَ نَهَشَلٍ
وَمَاسَمَى الْمَجْلَانُ إِلَّا لَقَوْلَهُمْ خُدُّ الْقَعْبَ وَأَخْلَبَ أَيْهَا الْعَنْدَ وَاعْجَلَ**

وينطلق تميم مستعيداً يا عمر بن الخطاب على النجاشي ليؤدبه على هذا الهجاء ويأتي رد عمر «تصحيحاً» لمفاهيم جاهلية غالطة : يعلق عمر رضي الله عنهــ على البيت الأول

(١) ابن هشام : السيرة النبوية / ٣٢٧ / ١

(٢) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٥١

فاثلا: «ليتنى من هؤلاء» وعلى الثاني يقول: «ذلك أصفى للماء وأقل للزحام» وعلى الثالث بقوله: «كفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه»، ويعلق على الرابع بقوله: «خير القوم أنفهم لأهله»^(١).

• • • • •

وكانت لغة الدم - كما ألمحنا - هي اللغة المنطقية واللغة المسموعة في الجزيرة العربية، وكانت الحروب تشتعل لأنفه الأسباب، من أجل ناقة .. كحرب البسوس، أو من أجل فرس كحرب داحس والغبراء^(٢)، حتى أرباب الأديان السماوية في الجزيرة العربية كانت لغة الدم هي أرفع اللغات صوتاً عندهم: يقول الفخر الرازي في تفسيره لسورة الأحدود «وقع إلى نجران رجل من كان على دين عيسى فدعاهم فأجابوه فصار إليهم ذو نواس اليهودي يجندو من حير، فخiram بين النار واليهودية .. فأبوا، فأحرق منهم اثنى عشر ألفاً في الأحاديد وقيل سبعين ألفاً، وذكر أن طول الأندود أربعون ذراعاً، وعرضه اثنا عشر ذراعاً»^(٣)

وما ينقله التاريخ عن المجتمع الجاهلي وسيادة منطق القوة فيه أنه إذا قابل الجاهلي آخر معه ظعينة وليس من قبيلته، ولا من قبيلة لها معها حلف .. تقاتلا، فإذا قهر صاحب الظعينة أخذت منه سبية فاستحلها بذلك الغالب، ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار في مدة حياتهم، ولذلك .. كان من مفاسير الرجل منهم أن تكون أمه حرة نسبيّة لاسبية جليبة^(٤)

• • • • •

وكانت ذاتية الفرد ذاتية في «جماعية» القبيلة، فهوتابع لها ذاتب فيها في الشر والخير على حد قول الشاعر:

وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غُزِيَّةٍ إِنْ عَوَتْ غَوِيتْ وَإِنْ تَرْشِدْ غَزِيَّةٌ أَرْشِدْ

(١) انظر: ابن رشيق: المعدة ١/٥٢، وانظر كذلك لعلى وناجي الطنطاوى: سيرة عمر بن الخطاب ٦٠٦

(٢) انظر الأغانى ٦/٦٤٧٨

(٣) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب المشترى بالتفسير الكبير ٨/٣٦٨.
وانظر كذلك سيرة ابن هشام ١/٣٥.

(٤) محمد الخضر: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ١/٢٠

وحرصا على مكان القبيلة وهببها في مجتمع الدم والعدوان والقوة كانت القبيلة تنصر من ينتسب إليها أو يعافلها ظالماً كان أو مظلوماً ، فإذا لم تفعل ذلك لحقتها المسبة والمغارة . يقول قريط بن أنيف العنيري :

لو كنت من مازن لم تستبع إيلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذن لقام بتنضري عشر حشن عند الحفيظة إن ذوقت لانا
طاروا إليه زرافات ووحدانًا
لaislān أخاهم حين ينذهبهم
لكن قومى وإن كانوا دوى عذى
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة
كان ربكم لم يخلق لخشيتكم
سوهم من جميع الناس إنسانا
قليل لى بهم قوماً إذا ركبوا شئوا الإغارة فرساناً وركباناً^(١)

وبجانب الغدر ومنطق القوة والدم والحروب الدائمة والعدوان الغاشم كانت هناك أمراض اجتماعية متعددة وعادات قبيحة كثيرة ، منها وأد البنات سُهْلٌ^(٢) وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم^(٣) يتورى من القوم من سوء ما بشره به أيسكم على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون^(٤) -

وكان هناك أكل السخت ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، وعبادة الأصنام وعبادة الملائكة والجن وإنكاربعث ، والإيمان بالأذلام ، ولعنة الميسر ، وحرصهم على الخمر ، وتفتنهم في شرها ، وافتخارهم بالحرص عليها ومعاقرتها ، وإتلاف المال من أجلها على حد قول عنترة :

(١) شواهد الكشاف - التفسير ٤٤٢ وانظر الخضرى السابق ٢٢

(٢) النحل ٥٨، ٥٩ : بما كانت كراهية البنت عند بعض العرب مظهراً من مظاهر التأثر بالديانة الموسوية القديمة إذ كانت الأسرة تلقى ولادة البنت بغير ارتياح ولا عطف ، بينما كانت ولادة الذكر موجبة للمخارق ومتبرة بركرة علوية .. أما الأم - فبنيت العرقة - نقل نحبة خمسة عشر يوماً إذا وضعت بنتاً ، وعليها أن تقضي سبعين يوماً في تطهير نفسها . أما إذا وضعت ولداً ذكرـ فندة النجاسة ثمانية أيام ، وเมدة التطهير خمسة وثلاثون يوماً .
(راجع كتاب مركز المرأة من ٣٦، ٣٧ ، راجع كذلك : العهد القديم : سفر الملوك الأول وسفر التكوير وسفر الأحجار).

وَإِذَا شَرْبَتُ فَأَنْسَى مَسْهَلَكَ مَالِيٌّ وَعَرْضِيٌّ وَفَرِّاكَمْ يُشَلَّمْ^(١)

وبعضهم كان يسرف في ذلك كل الإسراف ، يتلف كل ماله على خره ولذته حتى تبرأ منه القبيلة كما يقول طرفه :

وَمَازَالَ تَسْرِابِيُّ الْخَمُورَ وَلَذَتِي وَبِيَعِي وَانْفَاقِيُّ ظَرِيفِيُّ وَمُشَلَّدِي إِلَى أَنْ تَحَامِتَنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا وَأَفْرَدَتُ إِفْرَادَ الْبَعْبَرِ الْعَبَدِ^(٢)

ثم استهانوا بالحياة لكثرة حروفهم وتوقعهم الفجيعة في أنفسهم وأحبائهم ، فانكبوا على لذات الحياة ينهلون منها ويعملون ، وهذه خلة مازالت إلى الحرب قرية ، وكانت في كل حرب حتى قالوا أن أنهار الدماء وأنهار الخمر كانت تجري في الثورة الفرنسية . ثم هم بين غالب ومغلوب : غالب سبي وغنم وظفر ، فيعي الخمر بجهة ونشوة وبجلبة للزهو المضاعف ، ومغلوب گسر وسلب ماله وأسرت نساؤه ورجاله وفجع في أحشائه فأظلمت حياته ، وضاق بالدنيا ، وضاقت به ، فيلوذ بالخمر يتناسى بها منه ملاوة من الزمن^(٣)

• • • •

ولكننا — حرصا على علمية البحث — يجب أن نقف قليلا لنحدد طبيعة الأمراض الاجتماعية والخلقية التي أصيب بها المجتمع الجاهلي . وهذه الأمراض في مجموعها يمكن تصنيفها إلى نوعين :

الأول : عام شائع يضم المجتمع كله أو أغلبه حتى أصبح جزءا من طبيعته مثل : العدوان والاحتکام إلى القوة في حل المنازعات ، وعبادة الأصنام والإيمان بالأزلام وشرب الخمر.

الثاني : خاص بطبقة أوفة معينة من الناس مثل : وأد البنات ، فلم يكن مرضها شائعا في جميع العرب ، بل كان في بعض بطون من تميم وأسد^(٤) وكانوا يفعلون ذلك تارة للغيرة والحسنة ، وتارة خوفا من الفقر والفاقة ولزوم النفقه .^(٥)

(١) التبريزى : شرح القصائد المشر ٢٠٢

(٢) السابق . ٨٦

(٣) الموفى : الحياة العربية من الشعر الجاهلى ٣٥٠

(٤) الحضرى : السابق ٢١/١

(٥) الفخر الرازى ٣٢٢/٥

وكان هناك من أشراف تميم قبل الإسلام من كره الولد وعابه ، وكان يشتري البنات من يریدون وأدهن بنوق تذهب عنهم الفقر والخوف منه ، وعرف ذلك عن خالد بن صعّصعة جد الفرزدق .^(١)

ولو أن الولد كان عاماً في العرب لقللت النساء قلة لا تكفل للرجال تعدد الزوجات ، ولو أنه كان عاماً لتباهى به الشعراء ، ولتهجوا الذين لا يریدون ، لأن الولد فضيلة وتركته رذيلة .^(٢)

• • • • •

وما يقال عن وأد البنات يقال كذلك عن الزنى ، فالحرائر في الجاهلية حافظن على عفتهن وسمعيتهن . ولم يعرف العرب إلا زنى الإماماء ، فكان بعض الرجال يقتني الإماماء ، ويكرههن على البناء ليجلبن له مالاً ، أولييلدن له أولاداً يبيّنهم ، أوليكرم ضيفه . فثلا : كان عبد الله بن جدعان نخاساً ، له ست جواريزين ، وبيّع أولادهن . وكان عبد الله ابن أبي بن سلول يجبر جاريته أو جواريه المست على البغاء لأنها كان بيّع أولادهن ، ويتقاضى منها ضرائب ، وكان إذا نزل به ضيف أرسل إليه جارية ليباشرها تكريماً له ، فشككت إحداهن أو اثنستان منها إلى النبي صلى الله عليه وسلم – فنزل قوله تعالى ﴿ لَا تُكْرِهُوۤا فَتَبَيَّنَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنَّ أَرْدَنَ تَحْصَنَا لِتَبَغُّوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الْدُّنْيَا وَمَن يُكْرِهُهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾^(٣) .^(٤)

وكن يميزن بيوتهم بأن ينصبن عليها ريايات لتدل إليهن من يریدهن .. وقيل إنهم كن تسعوا أو أكثر معروفات ... وهن جيّعاً من سوقط الإماماء مثل سريقة جارية زمعة بن الأسود . وأم عليط جارية صفوان بن أمية ، وحننة القبطية جارية العاص بن وائل^(٤)

وهي حقيقة يؤيدتها الواقع التاريخي ، ويمكن الاستدلال عليها كذلك بما يأتي :

١ - لجوء بعض العرب – كما أشرنا سابقاً – إلى وأد بناتهم خوف الفاقة والفقير عار السبى . فلو كان زنى الحرائر معروفاً أو مستساغاً كزنى الإماماء لكانت البنات مورد رزق طيب ، ول كانت البنت موضع حب واعتزاز عند الذين عرف عنهم الولد واشتهروا به .

(١) الخضرى السابن نفس الصفحة

(٢) الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي ٢٣٨

(٣) النور ٣٣ - فتياتكم = إماءكم . النساء : الزنى - تحصنا : تعفنا وتصونا عنه .

(٤) رابع الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي ٣٩٩

٢— ما حدث يوم بيعة النساء ، فقد دخل النبي عليه السلام مكة فاتحاً وأخذ بيعة الرجال ، ونزل قوله تعالى ﴿يَتَأْيِهَا أَنَّبِي إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَأِ عَنْكَ عَلَى أَنَّ لَا يُشْرِكَنَ بِاللَّهِ شَيْعًا وَلَا يُسْرِقَنَ وَلَا يَزِينَنَ وَلَا يَقْتُلَنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِيَنَ بِهَمَّتِنَ يُفْتَرِيْنَهُو بَيْنَ أَيْدِيهِنَ وَأَرْجُلِهِنَ وَلَا يَعْصِيْنَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَأْعُهُنَ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُنَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١)

وبعد بيعة الرجال جلس النبي الى الصفا ، وأخذ في بيعة النساء وفيهن هند بنت عتبة— على ألا يشركن ... ولا يسرقن ... ولا يزينن ... وهنا قالت هند: أوترني الحرة؟ وفي رواية: مازنت منهن امرأة قط (٢)

فهذا الاستفهام الاستنكاري ، وهذا النفي القاطع في الرواية الثانية يدل على أن مجتمع الجاهلية بعامة ، ومجتمع مكة بصفة خاصة لم يعرف زنى الحرائر ، ولم يقره على كثرة اخترافات المجتمع كما بینا من قبل . وحتى زنى الإمام كان محصوراً في أماكن محددة ، وعدد الإمام البغایا لا يتتجاوز التسع كما ذكر التاريخ ، وهو عدد قليل جداً بالنسبة لمجتمع مكة التي يقصدها عشرات الآلاف في موسم الحج بخاصة . فالزنى إذن لم يصل في المجتمع الجاهلي إلى درجة الآفة الاجتماعية الشائعة .

ولكن هل خفيت هذه الحقيقة على النبي عليه الصلاة والسلام؟ هل غاب عن خاطره أن الحرائر لا يزينن؟

نحن لانشك أنه — عليه الصلاة والسلام — كان يدرك هذه الحقيقة تماماً ولكن يبقى سؤال آخر يتردد في الخاطر وهو: كيف يطلب إذن من النساء الحرائر تجنب فاحشة لا يقع فيها؟

إن واحداً من المؤرخين أو المفسرين — على ما أعلم — لم يحاول أن يجيب عن هذا السؤال أويقطع فيه برأي . فماذا نعمل نحن النبى — عليه السلام — للحرائر عن فاحشة ما كان لها وجود بينهن؟ إن التعليل السليم لا يكاد يخرج عن واحد من اثنين :

١— أن يكون المقصود بذلك الإمام مع أن الحديث موجه إلى الحرائر تأدباً منه عليه السلام ، وكستته في اتباع طريقة «التوجيه غير المباشر» حتى لا يوقع الخطىء في حرج

(١) المتتحنة ١٢
(٢) الزغشري: الكشاف ٩٥/٤

المواجهة . وقد كان من أدبه عليه السلام أنه كان إذا رأى مخطئاً مخالفًا يقول «باب أقوام يفعلون كذا .. وكذا» .. حرصاً على مشاعر المخطيء أن تخديش ، وحتى لا يكون في ذلك فضيح له أمام الناس وتشهير به بينهم^(١)

٢— أن مضمون هذه البيعة جزء من التشريع الإسلامي في باب المحرمات، ومعروف أن التشريعات – حتى الوضعى منها وإن ارتبطت بأسباب خاصة – تأخذ صفة التعميم بصرف النظر عن الحدث الأصلى الموجب للعقوبة من ناحية ندرة حدوثه أو كثرةه مستقبلاً . وخاصصة أن الإسلام ليس ديننا محلياً أو ديناً محلياً ، ولكنه جاء لكل زمان ومكان، فما يكون قليلاً نادراً اليوم قد يكون كثيراً غامراً غداً ، وما يكون قليلاً نادراً في هذه البيعة قد يكون شائعاً في مجتمع آخر ، وهذه التعميمية التشريعية هي مانع على الأصوليون بقولهم «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» فإذا ورد نص شرعى عام وجوب العمل بعمومه بقطع النظر عن كل اعتبار آخر ، فلأنه للسبب الذى ورد من أجل النص ، ولالواقعة التى جاء النص بسبها .^(٢)

فالنهى عن الزنى يلزم نساء مكة وغيرهن ، ويلزم الحرائر والإماء ، ويلزم النساء في هذا العصر والنساء في غيره ، بل يلزم الرجال أيضاً مادام النهى لا يدل على تحصيص النساء بذلك واستقلالهن به .

وتحريم مالم يكن سائداً في جزيرة العرب وما لم يكن قاعدة لها مكانها وثبتوها يدل في ذاته على «عالمية الإسلام» مكانها من ناحية ، وعلى «خلود الإسلام» زمانها من ناحية أخرى : فالزنى في وقتنا الحاضر وخاصة في الغرب أصبح مظهراً من مظاهر المدنية ، أو على الأقل : لم يعد من الأفعال التي تشين مفترضها وتتصمه بالإثم والعار والخروج على القانون والأداب .

وحين أشرق نور الإسلام كان الزنى منتشرًا انتشاراً واسعاً في كثير من المناطق والدول المحيطة بجزيرة العرب : فهو ودوس المؤرخ يروى أن كل امرأة طلع عليها النور في مدينة بابل محروم عنها أن تذهب مرة في العمر ناحية هيكل الزهرة (مليتا) فتوافق أجنبية ، ولا يسوغ للمرأة بعد أن تكون اتخذت لها موضعًا هناك أن تعود إلى دارها من قبل أن يقتفيها أحد أولئك الأجانب بمخفنة من المال يلقى بها على ركبتيها ثم يستدرجها إلى خارج الهيكل إلى حيث تكون له ، وأن الأجنبية حين يلقى إليها بالمال يقول لها «أسأل الربة مليتا أن تكون عنك راضية» ولم يكن يسوغ للمرأة أن ترفض المال المبذول لها قل أو كثر .. لأنه كان يعتبر

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ٤٢/١ والبخاري ٣١/٨ (كتاب الأدب) باب من لم يواجه الناس بالعتاب

(٢) محمد زكي يا البرديسي /أصول الفقه ٤١٠

مala مقدسا ، ثم كان يجب على المرأة أن تتبع أول رجل رمى إليها بالجعالة غير رادة أو متهنة إنسانا كائنا من كان .^(١)

وكانت أخلاقيات الدول المحيطة بالجزيرة العربية أشد اخبطاطا ، وأصرى سقوطا : ففي الدول الرومية الشرقية ، وعلى كثرة مصائب الرعية ازدادت الإتاوات ، وتصاعدت الفساد حتى أصبح أهل البلاد يتذمرون من الحكومة ، ويقطنها مقا شديدا ، ويفضلون عليها كل حكومات أجنبية .. وقد حدث اضطرابات عظيمة وثورات ، وقد هلك عام ٥٣٢ في الاضطرابات ثلاثة ألف شخص في العاصمة .

وعلى شدة الحاجة إلى الاقتصاد في الحياة أسرف الناس فيه ، ووصلوا في التبذل إلى أحط الدرجات ، وأصبح لهم الهم الوحيد اكتساب المال من أي وجه ثم إنفاقه في التطرف والترف وإرضاء الشهوات .

ذابت أسس الفضيلة ، وانهارت دعائم الأخلاق ، حتى أصبح الناس يفضلون حياة العزوبة على حياة الزوجية ليقضوا مأرهم في حرية ، وكان العدل كما يقول (سيلى) يباع ويساوم مثل السلع وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع .

يقول جيبون «في أواخر القرن السادس وصلت الدولة في ترديها وهبوطها إلى آخر نقطة ، وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة كانت أمم العالم في حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف ، ولم يبق منها إلا الجذع الذي لا يزداد كل يوم إلا ذبولا .^(٢)

أما فارس التي شاطرت الروم في حكم العالم المتعدد فكانت الحقل القديم لنشاط كبار المداميين الذين عرفتهم العالم ، كان أساس الأخلاق متزعزا مضطربا منذ عهد عريق في القدم ، ولم تزل المحرمات النسبية التي تواضعت على حرمتها ومقتها طبائع أهل الأقاليم المعبدلة .. موضع خلاف ونقاش ، حتى أن يركد جرذ الثاني الذي حكم في أوسط القرن الخامس الميلادي يتزوج بنته ثم قتلها ، وأن بهرام جويني الذي تملك في القرن السادس كان متزوجا بأخته .. ولم يكن هذا الزواج يعد معصية عند الإيرانيين ، بل كان عملا صالحا يتقربون به إلى الله .^(٣)

(١) جان أمل ريك : مركز المرأة في قانون حمورابي وفي القانون الموسوي ١٥

(٢) أبوالحسن الندوى : لماذا خسر العالم بخطاط المسلمين ٢٤

(٣) السابق ٣٠

وكان الفرس يعبدون النار . وعبادة النار تحرىف انحدر من مذهب زرادشت ، فقد قيل إن أصل دعوته كان التوحيد وعبادة الله الواحد الذى يتجلى نوره فى الشمس والنار.

ومن مظاهر الانحراف الدينى كذلك عبادة الفرس للأكاسرة الذين كانوا يدعون أنه يجرى فى عروقهم دم إلهى .

وفي القرن الثالث المسيحى ظهر مانى فى عصر سادت فيه الشهوة فأخذ يحارب هذه الشهوة الجائعة ، ونادى بحياة العزوبة وتحريم النكاح قطعا للنساء ، واستبعجا للفناء إلى أن قتلها بهرام سنة ۳۷۶ م .

وظهر مزدك أواخر القرن الخامس فدعا إلى المساواة المطلقة وشيوخية المال والنساء ، وناى تأييد غالبية الناس وبخاصة الشبان والأغنياء ، كما حظى بتأييد قباد «كسرى الفرس» فانتشر الزنى والنهب ، واحتفلت الأنساب وانحدر الناس بذلك إلى درك من الفساد الخلقي لم تشهده البلاد في عصر من عصورها (۱) .

كانت هذه - في إيجاز موجزة - تضاريس المزريطة الأخلاقية في دولتى الفرس والروم وما أحاط بالجزيرة العربية . فإذا ما عدنا إلى المجتمع الجاهلى وجدها - وهو المزحوم بكثرة من الرذائل كما ذكرنا من قبل - لم يخل من قيم إنسانية جليلة : كان فيه الشجاعة الفائقة ، والبطولات الرائعة في القتال حتى أن الموت حتف الأنف كان عاراً ما بعده عار .

وكان هناك الكرم الفائق : فالعربي يجود بالمال .. بكل ماله في سبيل إكرام الضيف . وقد حكى المخطيئ - في قدرة فنية لافتة - قصة كرم رائعة في قصيدة الميمية المشهورة التي مطلعها :

وطاوى ثلاث عاصب البطن مُرْمِلٍ يَبْيَّنَاء لَمْ يَعْرِفْ بِهَا سَاكِنُ رَسْمَا
وتحكى قصة بدوى فقير انقطع في خيمته بأبنائه في الصحراء ، طرقه ضيف ذات ليل بهم فاستبد به الأسى والحزن لأنه لا يملك ما يكرم به ضيفه ، فأشار عليه ابنه أن يذبحه ويقدم لضيفه من لحمه طعاما ، وهو الأب بذبح ابنه ، ولكن ظهر من بعيد قطيع من حر الوحوش انطلق الأب البدوى إليه وصاد منه «نَعَوصَا ذَاتَ جَحْشٍ سَمِينَةَ قَدْ اكْتَنَزَتْ لَهَا ، وَقَدْ أَطْبَقَتْ شَحْراً» وأكلوا وشربوا :

وَبَاتُوا كِرَاماً قَدْ قَضَوْا حَقَّ صَيْفِهِمْ : . وَمَا غَرِبُوا غَرْمًا وَقَدْ غَنِمُوا غُثْمَا
وبات أبواهُم مِنْ بَشَاشِتِهِ أَبَا : لَصَيْفِهِمْ وَالْأَمْ مِنْ بِشِرِهَا أَمَا (۲)

(۱) انظر الندوى السادس - ۳۱ - ۳۳ واحد شلبى / المجتمع الاسلامى - ۲۴ - ۲۳ ومنع الفطان : التشريع والفقه فى الاسلام . (۲) - ۲۳

(۲) ديوان الخطيبة - ۱۵۹ - ۱۶۱

والقصة— وإن غلب عليها الخيال ، وظهر فيها بسمات قصة الذبيح إسماعيل — تصور مدى حرص العربي على إكرام الضيف ، وخشيته المرة إذا مارَ ضيفه بلا إطعام .

وإذا كان البغي والظلم من أبرز صفات مجتمع الجاهلية فإنه لم يخلُ من التجدة والمرعوة والأريحية ، يدل على ذلك قصة حلف الفضول . وتتلخص القصة كما روتها كتب السيرة في أن قبائل من قريش هي بنوهاشم وبتو المطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة تداعت إلى حلف فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان لشرف وسته ، فصنع لهم طعاما ، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلهما وغيرهم من دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، فسمت ذلك حلف الفضول .

وسبب عقد الحلف أن العاص بن وائل اشتري بضاعة من « زبيدي » وماطله في ثمنها وامتنع عن الدفع ، فاستعدى عليه بعض الناس فلم ينتصروه لشرف العاص ومكانه فيهم . فوقف الرجل على جبل أبي قبيس مطلع الشمس وقريش في أندיהם حول الكعبة ، وأنشد شعرا يعرض فيه أمره ومظلمته ، ويدعوا الناس لنصره ، فهبه الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك ؟ ثم كان الحلف في دار عبد الله بن جدعان . وسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول ، لأنهم قالوا : لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر .

وقد شهد محمد عليه السلام الحلف في شبابه . وعن طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حر النعم ، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت (١) ..

نعم لم يعد المجتمع الجاهلي هذا « الصوت الآخر » الذي قد ينتصر علانية على رؤوس الأشهاد ، وقد لا يكتب له النصر ، وقد يستتر أصحابه ، ولكنهم على أية حال — يؤدون دورا في صالح الفضيلة والمرعوة والأريحية بقدر ما يسعطون .

وقد ظهر ذلك في تصرفات بعض القرىشيين — على كفرهم — تجاه النبي والمسلمين : لقد قاومت قريش دعوة الرسول عليه السلام ، وطاردوه ، وضيقوا عليه الخناق ، وعذبوا أصحابه ، وقتلوا بعضهم ، ولكن كان أشد ألوان القهر ماعرف باسم « صحيفة المقاطة » فقد كتب القرىشيون صحيفة تعاقدوا فيها لأنيا كحوا بنى هاشم وبنى المطلب ، ولا يبايعوهم ولا يكلموهم ، ولا يجالسوهم حتى يسلموا إليهم محمدا عليه السلام . وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في سقف الكعبة .

(١) ابن هشام ١٣٨ / ١ ، وانظر الجزء ١٩ من الأغاني (٦٥٩٧ - ٦٦١٦) حيث استوفى روایات متعددة و مختلفة في سبب الحلف والمشتركون فيه وآثاره ، وذكر أن سن النبي آنذاك كانت ٢٥ سنة .

وأنحازت بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم – إلا أبا هب وولده ، فإنهما ظاهروا قريشاً على بنى هاشم – فصاروا في شعب أبي طالب مخصوصين مفضلاً عليهم أشد التضييق نحو من ثلاثة سنوات ، وقد قطعوا عنهم الميرة والمادة فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم حتى بلغتهم الجهد .

وكانت أيام هذا « العزل الاجتماعي » أشد الأيام على نفس الرسول وال المسلمين . ولكن من خلال ظلام هذه الحنة ، ومن خلال ركامات الضيق والجوع والأسى ظهرت صور من البروجة والروعة والشهامة : بعضها مستتر ، وبعضها ظاهر للعيان لا يبالى بعنجية أبي جهل وأبي هب وأمثالهما من تولوا كثرة هذه الجريمة الفادحة .

كان هناك حكيم بن حزام تأثره العبر تعلم الخطة من الشام فيوجه ببعضها – تحت ستار الظلام – إلى الشّيشب ، ويضرب أعي姣ها فتدخل الشعب فيأخذ المخصوصون ماعليها من الخطة .

ومثله كان هشام بن عمرو : يوفر العبر طعاماً حتى إذا أقبل به قوم الشعب خلخ خطامه من رأسه ، ثم ضرب على جنبه فدخل الشعب عليهم ثم يأتي به قد أورقه بزا أوبرا فيفعل به مثل ذلك .

ولم يكتشف الرجل بذلك بل سعى إلى كرام القوم لنقض الصحيفة ، واستجواب له زهير بن أبي أمية ، ومطعم بن عدى وأبوالبخترى بن هشام وزمعة بن الأسود بن عبد المطلب .. ونجح الرجل في مسعاه ، وشققت الصحيفة وانتهت بذلك أشقاً محنـة واجهت المسلمين .^(١)

ولم يخل المجتمع الجاهلى كذلك من صدق مع النفس ، وصدق مع الآخرين وتخرج من الكذب والتميّن : فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما – أن أبا سفيان أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، وكانوا تجراً في الشام في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم – مهادنا فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم يأليلاء ، فدعاهم في مجلسه ، وحوله عظام الروم ، ثم دعاهم ودعا بترجانه فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ، فقال أبو سفيان : قلت أنا أقربهم نسباً ، فقال : أدنوه مني ، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره . ثم قال لترجانه : قل لهم : إني سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبته فكذبته ، فوالله لولا الحياة من أن يوثروا على كذبها لكذبت عليه . ثم كان أول مسألتي عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت لا . قال فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاء لهم ؟ قلت بل ضعفاء لهم . قال : أين يدون أم ينتصرون ؟

(١) راجع ابن هشام ٣٥٦ / ١ وامتناع الأسماع للمقربي

قلت بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا . قال : فهل كنتم تهموه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت لا . ونحن منه في مدة لاندري ما هو فاعل فيها . قال — ولم يمكنني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة — قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم . قال : فكيف كان قتالكم إيه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال : ينال منا ، وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟ قلت يقول : أعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلة والصدق ، والعفاف والصلة .^(١)

فأبو سفيان — على كفره — يستنكف أن يكذب ، وينعه الحباء من الكذب فيصور معاشه النبي ، وطبيعة دعوته دون أن يبين ، على الرغم من أنه كان لا يزال على الكفر وعبادة الأصنام .

• • • •

قبسات من الفضائل في ظلمات الرذائل بعضها فوق بعض : فجتمع الخوف والدم والرعب لم يخل من الشجاعة والشهامة والنجد وآداب الفروسية حتى عند كثير من صغاريك العرب .

ومجتمع الجفاف والقطط لم يخل من الكرم والاعتزاز بالضيف .

ومجتمع الميسر والأذلام والخمر لم يخل من رجال حرموا على أنفسهم الخمر في الجاهلية لأن الأحق هو « الذي يستر عقله بيده » .

لقد كان مجتمعاً من المتناقضات المتضاربة ، والتناقض كان بينا غير خفي : بين كثرة تسير في طريق الظلم ، وقلة عرفت الحد الأدنى من الفضائل الإنسانية ولكن كثيراً من الفضلاء من هذا المجتمع الجاهلي لم يكونوا أسواء على طول الخط ، ظهر التناقض أو الانفصالية في قائمة القيم الواحدة في الشخصية الواحدة قبل أن يسرى نور الإسلام إلى هذه النفوس في fissel قلوبها ، وينقى أعماقها من جذور الشرك : فعبد الله بن جدعان ، الرجل الذي دخل التاريخ من أوسع أبوابه ، وعقد حلف الفضول في بيته : حلف النجدة ومناصرة المظلوم المضعوف .. الحلف الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن بعثه الله نبياً ورسولاً « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به هم النعم ، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت »^(٢)

(١) البخاري ١/٥ (باب : كيف كان بده الوجه)

(٢) انظر ص ٢٣ من هذا البحث ، وأنظر كذلك ابن هشام ١ / ١٣٨

وهو الرجل الذى قالت عنه عائشة « كان فى الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين »^(١)

هذا الرجل الشهم الكريم القوى الشجاع استحل لنفسه أن يكون نخاسا يتاجر فى أحط تجارة وهى الأعراض : فكان له ست جواريزين ويبيع أولادهن^(٢)

• • • •

وهذه البقية الباقيه من الفضائل في مجتمع الجاهلين وإن تلبيست بالروح الجاهلي ، ر بما كانت أقباسا تسربت إلى النفس الجاهلية من ديانة إبراهيم وهي الخنفية السمحاء ، أو ربما من اليهودية وال المسيحية ، وقد كان هاتين الديانتين مكانهما في جزيرة العرب فكانت اليهودية في بلاد اليمن ... وكانت أيضاً بيشرب وماجاورها من أرض خمير وتياء جاءت مع إسرائيليين فارقوا الشام حين الاضطهادات التي كانت تتولى على اليهود في شمال صنعاء وفي جهات من البحرين وفي الحيرة لما تنصر النعمان ، وفي قبائل من طيء وفي عرب الفساستة بالشام لمحاورتهم المتنصرة من الروم التدینين بهذا الدين^(٣)

وكان للمسيحية مكانها أيضاً في جزيرة العرب ، ولكنها كانت أضعف من اليهودية تأثيراً في نفس العربي « لأن روح هذا الدين المستفادة من كلام المسيح صلوات الله عليه هي السلم والإفضاء والابتعاد عن الخروب . ولم يكن العرب مبعدين عنها . ولذلك لما جاء عدى بن حاتم الطائي وأFDA على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : إنى على دين المسيح فقال له « ألم تكن تأخذ الرابع من غنائم قومك ؟ ». وحل الغنائم والانتفاع بها ليس في شيء من الدين المسيحي ، ولا اليهودي ، لأن اليهودي يحرق كل ما للوثنيين ، ولا ينتفع به ، والمسيحي يبتعد عن الحرب .^(٤)

أما سائر العرب فكانت بعد إسماعيل على دين ابراهيم تعبد الله وتوجهه ، أى أن إسماعيل — عليه السلام — بنى الكعبة ، وبنى مطافاً — يجعلها أولاده ، فلما كثروا واحتاجوا إلى مبارحة مكة والانتشار في أجزاء الجزيرة ، كانوا يأخذون معهم شيئاً من حجارة الحرم أو الكعبة ليكون لهم أثر من آثار بركتها ، فيعظمون هذا الحجر تعظيمهم للكعبة ، فانتشر بذلك تعظيم الحجارة والتقرب بها إلى المعبد الأعظم .

(١) صحيح مسلم ٤٨٩/١ (باب من مات على الكفر) .

(٢) انظر ص ٢٣ من هذا البحث . والملوكي المرأة في الشعر الجاهلي ٣٩٩

(٣) الخضرى السابق ١/٥٣

(٤) السابن ١/٥٤

ولما سار عمرو بن لحي الخزاعي إلى بلاد الشام ، ورأى ما يفعله أهله من تعظيم التماثيل والستقرب منها مالت نفسه إلى الاقتداء بهم فأخذ من هذه التماثيل شيئاً وأقامها على الكعبة التي كان سادتها ، ودعا العرب لمعظميها فأجابوه ، وكثرت بعد ذلك الأصنام حول الكعبة حتى بلغت عدة مئات .. وكانت العرب تعظم هذه التماثيل وهذه الأحجار لاعتقادها أنها آلهة ، وإنما لتقربهم إلى الله سبحانه وتعالى كما قال في الكتاب « مانعبدهم إلا يقربونا إلى الله زلفي » .^(١)

فال المسيحية واليهودية والإبراهيمية كانت لها مكانها في جزيرة العرب على اختلاف قدر الانتشار ، ومدى تمسك أصحابها بها . مع ملاحظة أن عبادة الأصنام كانت نتيجة غالطة سيئة هدف طيب نبيل هو حب الكعبة وحب البيت الحرام والبلد الحرام . على أن عبادتها لم تكن مقصودة لذاتها كما ذكرنا ، بل كانت تبعد كوسيلة تقربهم إلى الله .

ولكن الذي لا شك فيه أن هذه الديانات غرست غير قليل من القبح في نفوس العرب ، وإن ثلبت بغير قليل من الانحراف كما ذكرنا سابقاً .

وفي هذا المقام علينا لأنفسنا منبعاً آخر من منابع هذه القبح وهو الفطرة الإنسانية ، وأصلها كما قال أبو مسلم والقاضي أبي يكير « من الأخذ بما يرشد إليه العقل في الإعتقد والعمل .. والنظر الحسن في الآيات الدالة على وجود الصانع ، ووجوب شكره .. والتمييز بين الحسن والقبح وبين الباطل والصحيح بالنظر في المنافع والمضار » .^(٢)

وهذه الفطرة لو تخلت عنها عوامل الإفساد والإظلم والقهر والإجبار لاستطاعت أن تسير في طريق الحق .. إنها الفطرة التي تحدث عنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقوله « كل مولود يولد على الفطرة : فأبواه يهودانه ، وأبواه يمجسانه ، كما تلد البشارة بهيمة جماعة . هل تجدون فيها من جدعاء » ..

ومن الذين اهتدوا بالبيقين في الجاهلية : ورقه بن نوفل الأسدى الذي رفض عبادة الأصنام واعتنق النصرانية ، وصار عالماً بها .

ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل الذي لم يدخل يهودية ولا نصرانية ولكن فارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان والميادة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل الموعودة ، وسفه أحلام قريش وأصنامها ..

(١) انظر المضري السابق ١/٥٤-٥٥

(٢) تفسير المبارك ٢/٢٧٨

ومن هؤلاء : عثمان بن الحويرث وعبد الله بن جحش ^(١) .

ولكنها - كما قلت - كانت حالات قليلة في مجتمع الجاهليين . وحتى هذه الحالات - كما ذكرت - تلبيس فيها الخير بالشر ، والفضيلة بالرذيلة ..

• • • • •

ثم جاء الإسلام - خاتماً للأديان - وهذه الخاتمية تقتضي أن يكون أكمل الأديان وأوفاها بمجاجات للإنسانية ، وأبرعها في معالجة الأدواء التي حوتها (قائمة القيم الجاهلية) واختلف موقف الإسلام من هذه القيم تبعاً لنوعيتها ..

- ١ - ففُقِّرَ بعضها بالرفض ، وقضى عليه قصاصاً مبرماً .
- ٢ - وأقر بعضها وشجعه ودعا إليه .
- ٣ - وسما بعضها الآخر: فعاد بالنفع على الدين والناس ..

وكانت عدة الإسلام في كل أولئك : إحياء الفطرة السليمية والترهيب والتغريب ، التدرج في التشريع لتهيئة النفس لقبول التكاليف وأخذ النفس بالأوامر وتجنب التواهي على ما سنعرف بالتفصيل إن شاء الله ..

فوقف الإسلام إذن من قائمة القيم الجاهلية كان موزعاً بين هذه الثلاثة :

- ١ - التحرير .
- ٢ - الإقرار .
- ٣ - التسامي والإعلاء .

وسنحاول في السطور الآتية تفصيل القول في هذه المواقف الثلاثة :

١ - دعا الإسلام إلى وحدانية الله تعالى ، ورفض كل ألوان الشرك ، واعتبر عبادة الأصنام كفراً حتى لو كان تأويلاً لهذه العبادة أنها تقرهم إلى الله زلفي .

وقضية وحدانية الله يتعلق ويرتبط بها «وحدة النبوة الخاتمة» بالنسبة لمحمد بن عبد الله عليه السلام . والتفسير فيها تفريط في أساس القضية الأصلية وهي الوحدانية وإفراد الله بالعبادة ، لذلك رفض النبي عليه الصلاة والسلام أن يجامِل مسيِّلَةَ الكذاب بكلمة .. على قوله وقوله : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «قدم مسيِّلَةَ الكذاب على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - المدينة فجعل يقول : إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته ، فقدمها في بشر كثير من قومه ، فأقبل إليه النبي صلى الله عليه وسلم - ومعه ثابت بن قيس بن شماس . وفي يد النبي - صلى الله عليه وسلم - قطعة جريدة حتى وقف

(١) انظر المقرر السابق ٦٠ / ٦١

على مسيلمة في أصحابه ، وقال «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن أتعذر أمر الله فيك ، ولئن أذربت ليعرقلتك الله ، وإنى لأراك الذي أريت فيه ما أريت ، وهذا ثابت يجبيك عنى» ثم انصرف عنه . فقال ابن عباس :

فسألت عن قول النبي — صلى الله عليه وسلم — فأخبرني أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم — قال : بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأنهما ، فأوحى إلى في المنام أن أنفخهما ففتحتها فطارات ، فأولتهما كذابين يخرجان من بعدي فكان أحدهما العنسى صاحب صنعاء ، والآخر مسيلمة صاحب اليمامة ^(١) .

وعلى نفس الطريق رفض أبو بكر — رضي الله عنه — أن يعني رأسه أمام تيار عاصف بإسقاط ركن من أركان الإسلام ، وكان منطق الرفض أعنف من تيار المطالبة وأعنى « والله لومون عقولكم بغير كانوا يؤدونه رسول الله صلى الله عليه وسلم — لقاتلهم على منته .. والله لا أرضي منهم إلا بالحرب الجليلة والخطوة المخزية ^(٢) ..

وكما حرم الإسلام الشرك بالله بكل ألوانه حرم كذلك السرقة وشرب الخمر وكان تحريم الخمر درساً إنسانياً خالداً في فلسفة التفاف ، وكان « التدرج التشعيعي » — كما سنعرف — هو أقوم السبل لإلقاء هذه الأمة المحمورة عن الخمر . وكان جوابهم بلسان الحال قبل لسان المقال « إنتهي .. إنتهي .. » من سمعوا قوله تعالى آية التحريم النهائي للخمر «.... فهل أنت منتهون » ..

٢- وأقر الإسلام مارأى فيه فضائل إنسانية اتبعها القوم قبل بعثة الرسول ، فال المجتمع الجاهلي كما عرفنا لم يكن يخلو من قيم فاضلة : لقد رأى النبي عليه السلام في حلف الفضول مثلاً أعلى من الأخلاق الإنسانية ، وشهد له في دار ابن جدعان ، قبل بعثته ، وشهد له بعد بعثته فقال — كما ذكرنا من قبل « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حر النعم ، ولو أدعى في الإسلام لأجيبي ».

^(١) صحيح مسلم ٥ / ٣٢ (كتاب الرؤيا).

^(٢) البخاري ٩ / ١١٥ (كتاب الاعتصام — باب الإقتداء بسنة رسول الله عليه السلام) . وراجع كذلك : عبد الشفال الصعیدی في كتابه : القضايا الكبرى في الإسلام . ٧٣ — ٧٥) قال عبد الله بن مسعود « فاما الخطوة المخزية فإن يقرروا بأن من قتل منهم في النار، ومن قتل منها في الجنة، وأنه مدوا قتلانا، ونفينا ما أخذنا منهم، وأن ما أخذناه منا مردود علينا، وأما الحرب الجليلة فإن يخرجوا من ديارهم » ..

٣— ومن القيم والقدرات ما أبقى الإسلام على منبعه وأصله الدافع ، ولكنه وجه مسارها الوجهة الإنسانية الخيرة الصحيحة . وهو يشبه إلى حد بعيد ما يسميه النفسيون «التسامي أو السمو» أو الإعلاء Sublimation ولكن يجب أن يلاحظ أن عملية الإعلاء لا تنجح في صرف الطاقات المكبوتة بطريقة ناجحة ملائمة إلا إذا أعيد تنظيم الشخصية بأكملها على أساس جديد لتقوية جميع نواحيها ، وتحقيق وحدتها وتكاملها بتأثير المثل الأخلاقية العليا . والتربيـة السديدة الصالحة هي التي تحقق إعلاء الغرائز ، وتنقية الميل وما يشوهـا من عوامل الأثـرة والضعف وذلك بتحقيق وحدة الشخصية وتكاملها وبتقوية الإرادة وتوفير وسائل ضبط النفس (١) ..

وتحقق الإسلام هذا الإعلاء بربط الشخصية بالدين وقيمه التربوية من ناحية وربط العمل بالجزاء من ناحية ثانية ، وتقدير العمل على أساس النية من ناحية ثالـثـة .

ومن أمثلة الإعلاء : موقف الإسلام من الشعر: والمـعـروـفـ أنـ العـربـ أـمـةـ شـاعـرـةـ ،ـ وـأـنـ الشـعـرـ دـيـوـانـ العـرـبـ سـجـلـتـ فـيـ أـيـامـهـ وـتـارـخـنـهاـ وـمـعـاـشـهـ وـدـفـعـتـ بـهـ ،ـ وـبـهـ هـاجـمـتـ ،ـ وـبـهـ مدـحـتـ ،ـ وـبـهـ تـغـزـلـتـ .ـ وـكـانـ الـقـبـيـلـةـ تـقـيمـ الـأـفـرـاجـ إـذـ مـاـ بـنـغـ فـيـهاـ نـحـمـ شـاعـرـ:ـ فـالـكـلـمـةـ عـنـدـ أـمـةـ الـبـلـاغـةـ وـالـفـصـاحـةـ كـانـ لـهـ فـعـلـ السـحـرـ ،ـ وـصـدـقـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ —ـ إـذـ قـالـ:ـ «ـأـنـ مـنـ الـبـيـانـ لـسـحـراـ»ـ ..

والشعر البـاهـلـىـ —ـ شـأنـ الـأـدـبـ فـيـ كـلـ أـمـةـ وـخـاصـتـهـ فـيـ عـهـدـ الطـفـولـةـ الـأـمـيـةـ كـانـ فـيـهـ منـ نـاحـيـةـ الـمـضـمـونـ الـفـكـرـىـ —ـ الـوـضـيـعـ :ـ كـانـ فـيـهـ الغـزلـ الـفـاحـشـ كـماـ كـانـ فـيـهـ الغـزلـ الـعـفـيفـ .ـ وـكـانـ فـيـهـ الـهـجـاءـ الـمـقـدـعـ ،ـ كـماـ كـانـ فـيـهـ التـغـنـىـ بـالـمـنـاقـبـ وـالـخـصـابـ الـإـنـسـانـيـةـ الـعـلـىـ .ـ وـكـانـ فـيـهـ مـنـ الـأـوـصـافـ مـاـ هـوـ مـوـغـلـ فـيـ الـكـذـبـ كـماـ كـانـ فـيـهـ مـاـ يـاتـدـقـنـ بـالـصـدـقـ (٢) ..

ونـزـلـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ:ـ ﴿أَوَالشَّرَّاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُرُونَ﴾ الـمـ تـرـأـنـهـ فـيـ كـلـ وـادـ يـهـيـمـونـ (٤) وـأـنـهـمـ يـقـوـلـونـ مـاـ لـاـ يـفـعـلـونـ (٥) إـلـاـ الـذـيـنـ ءـامـنـوـاـ وـعـمـلـوـاـ الـصـلـاحـتـ وـذـكـرـوـاـ اللـهـ كـثـيرـاـ وـأـنـتـصـرـوـاـ مـنـ بـعـدـ مـاـ ظـلـمـوـاـ وـسـيـعـلـمـ الـذـيـنـ ظـلـمـوـاـ أـئـ مـنـقـلـبـ يـنـقـلـبـوـنـ (٦)﴾

(١) د. يوسف مراد: مبادئ علم النفس العام ١٥٣

(٢) من فاذق الشعر الفاحش منظمي أمرؤ القيس في يوم دارجل (انظر ملعته في شرح القصائد العسر للتبشير بـ ١٣ ص).

(٣) الشـعـراءـ ٢٢٤ـ ٢٢٧ـ ..

وقد نزلت الآيات الثلاث الأولى . «والشعراء .. يفعلون» ابتداء — وفيها حكم عام صارى على الشعراء ، فبكى الشاعر المسلم عبد الله بن رواحة ، فنزلت الآية الأخيرة (٢٢٧) تستثنى من هذا الحكم . «الذين آمنوا وعملوا الصالحات ..» .

فالشعر لم يحرّمه الإسلام على إطلاقه ، وقد قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالى أما الشعر فكلام حسنة حسن ، وقيمه قبيح إلا أن التجرد له مذموم ... وانشاد الشعر ونظمته ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره . ^(١) .

فدار التحرير والتحليل هنا هو المضمون الفكري للشعر لافن الشعر ذاته ، فإذا تضمن معنى خبيثاً يسىء إلى الناس أو الدين فهو حرام ، ولا فهو من قبل المباح الذي لا حرج فيه ، ونستطيع أن نستدل على صحة ما ذهبنا إليه بما يأتي :

(أ) ما ينسب إليه — صلى الله عليه وسلم — من أحاديث تمجده بعض الشعر وتعظمه ، من ذلك قوله : إن من الشعر حكمة . ^(٢) قوله — عليه السلام — : أشعر كلمة تكلمت بها العرب قول ليبد :
ألا كل شيء ماحلا الله باطل ^(٣)

(ب) سماعه الشعر : فقد روى عمرو بن الشريد عن أبيه قال «ردفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال : هل معلم من شعر أمية بن أبي الصلت شيء ؟ قلت نعم : قال : هيه ، فقال : فأنشدته بيتم ، فقال : هيه ، ثم أنشدته بيتم حتى أشدهاته مائة بيت» ^(٤) ..

(ج) إنشاده في بعض المواقف أبياتاً من الرجز والشعر ، فيروى أنه عليه السلام كان يمشي إذ أصابه حجر فعثر قدミت إصبعه فقال :

هل أنت إلا إصبع دمي .. وفي سبيل الله مالقيت ^(٥)

(د) طلبه من حسان أن يكون لسان المسلمين الناطق وأن يقوم بهجاء الكفار رداً على أهاليهم ^(٦)
وكان يشجعه ويثنى عليه .. ويروى أنه جاوب عنه أبو سفيان بن الحارث :

(١) الاحياء / ٩ / ١٥٦٩

(٢) البخاري ٤٢/٨ (كتاب الأدب) والإحياء السابق نفس الصفحة .

(٣) صحيح مسلم ١١٠ / ٥ (كتاب الشعر)

(٤) السابق نفس الصفحة .

(٥) البخاري السابق ٤٣

(٦) الاحياء السابق نفس الصفحة .

هجوَّتْ حَمْدًا وَجَبَّتْ عَنْهُ وَعَنْتَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ

قال له رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جزاوك عند الله الجنة ياحسان . فلما قال
حسان :

فَإِنْ أَبَى وَاللَّهُ يُعَرِّضُ لِعَرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ
قال له : «**وَقَاتَ اللَّهُ حِرَقَ النَّارِ**» فقضى له بالجنة مرتين في ساعة واحدة ، وسبب ذلك
شعره .^(١)

(ه) وكان يشجع عبدالله بن رواحة ، ويدعوه ، ويقول عنه للمسلمين «**أَنْ أَخَالُكُمْ لَا يَقُولُ الرُّفْثُ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ**» .

وأخرج الزبير بن بكار عن هشام بن عروة عن أبيه قال : –
ما سمعت بأحد أجرأ ، ولا أسرع شعرا من عبدالله بن رواحة يوم يقول له رسول الله صلى
الله عليه وسلم : «**قُلْ شَعْرًا تَقْتَضِيهِ السَّاعَةُ، وَأَنَا انْظَرُ إِلَيْكُوكُمْ**» ثم أبده بصره ، فانبعت
عبد الله بن رواحة يقول :

إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيْكَ الْخَيْرَ أَغْرِفُهُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا إِنْ خَانَنِي بَصَرُّ
أَنْتَ النَّبِيُّ وَمَنْ يُغْرِمُ شَفَاعَتَهُ يَقُولُ الْحَسَابُ فَقَدْ أَزْرَى بِوَالْقَدْرِ
فَثَبَّتَ اللَّهُ مَا آتَكَ مِنْ حَسَنَةٍ كَالْمَرْسَلِيَّنَ وَنَصَرًا كَالَّذِي نَصَرَوَا

فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : وأنت ثبتتك الله . قال هشام بن عروة : ثبتته
الله أحسن ثبات ، فقتل شهيدا ، وفتحت له أبواب الجنة فدخلها^(٢) .

فالإسلام لم يوقف تدفق الطاقة الشعرية عند الشعراة كما اعتقاد البعض ، ولكن نهيه
كان منصبا على الشعر الفاحش الذي يخرج على قواعد الدين والخلق ، أو بتعبير آخر أصبح
الشعر «**ملتزما**» بالأيديولوجية الإسلامية الإنسانية .. بعد أن كان يسير في طريق فوضوية
يهل من مناهل العداء والأناية والتطلع العدواني والغريرة الحمقاء .

وتصدق هذه المقوله بوضوح على شخصية شاعر مثل عبدالله بن الزبير الذى يعد من
أشعر شعرا قريش ، وكان من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى

(١) المعدة ١/٥٣

(٢) الزبير بن بكار: الأنباء الموقفيات ٦٣٣

أصحابه بلسانه ونفسه . ولما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة هرب ابن الزبير مع شاعر آخر هو هبيرة بن أبي وهيب إلى نجران خوفاً من النبي عليه السلام (١) .

ويظهر أنه كان مطبوعاً على المجاء ، عدواني الطبيعة ، يدل على ذلك قصة أوردها ابن سلام الجمحي ، وخلاصتها : أن الناس أصبحوا يوماً بعكا وعلى دار الندوة مكتوب :

**الْمَنِيْ فُصَيْلًا عَنِ التَّجْبِيْدِ الْأَسَاطِيْرِ وَرِشْوَةً مِثْلِ مَا تَرَشَّى السَّفَاسِيرِ
وَأَكْلُهَا الْلَّخْمَ بَخْتًا لَغَلِيلِهِ لَهُ وَقُرْلُهَا رَحَلَتْ عِيرَ مَضَتْ عِيرُ**

فأنكر الناس ذلك وقالوا : ما قالها إلا ابن الزبير ، وأجمعوا على ذلك رأيه وكادوا يقطعون لسانه (٢) .

فهذا المجاء الذي لا يبرره ، حيث لا ثأر ولا خلاف في الدين والمعاش ، وإجماع قريش على أن مثل هذا البداء الفاحش لا يأتيه إلا ابن الزبير ... كل أولئك ينم على « نفسية عدوانية » بطبعها ، ويفسر لنا سلطة لسانه وفحشه على المسلمين والإسلام ومحمد عليه السلام .

فلما أسلم « سما » الإسلام بطاقته الشعرية القادرة ، وصار ابن الزبير لسان صدق وحق في الدفاع عن الإسلام ، وحث المسلمين على الجهاد ورثاء من استشهد منهم . ومن أجل مانظمه ما قاله في رسول الله عليه السلام حين أسلم :

يَارَسُولَ الْمَلِيْكِ إِنِّي سَانِي
إِذْ أَجَارَى الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْفَيْ،
وَمِنْ مَالِ مِيلَهِ مُشْبُورٌ
ثُفَنْفَسِي الشَّهِيدِ أَنْتَ الْقَدِيرُ
آمِنُ اللَّحْمَ وَالْعَظَامَ بِمَا قَلْ
إِنْ مَاجِئْتَنَا بِهِ حَقُّ صَدَقٍ
سَاطِعُ نُورَةِ مَضِيِّهِ مُنْيِرٌ
جَثَّتَنَا بِالْيَقِينِ وَالْبَرِّ وَالْعَدَدِ
أَذْهَبَ اللَّهُ ضَلَّةَ الْجِهَلِ عَنَّا
وَأَتَانَا الرَّحْمَاءُ وَالْمَنِيسُورَ (٣)

• • • •

(١) أسد الغابة ٣/٢٣٩ . وانظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٤٨.

(٢) طبقات فحول الشعراء ١/٢٣٦.

(٣) أسد الغابة السابق ٢٣٩ وإن أردت مزيداً من الشواهد الكاشفة عن موقف النبي - صلى الله عليه وسلم - من الشعر فانظر ذلك الفصل الذي عقده الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه « دلائل الإعجاز » من ص ٩ إلى ص ٢٣ .

وفي العرب كما عرفنا قوة وحاسة وشجاعة وطبع مغروس في أعماقهم باستعمال القوة في معالجة أمورهم ، فنهم من افتخر بالظلم ، حتى كاد الظلم يكون قاعدة حياة ، وسلكت غريرة المقاتلة مسلكها الحتد العاتي المترعرف الذي صوره الشاعر في قوله :

وأحياناً على بكرٍ أخياناً إذا مالئم نجد إلا أخياناً

هذه الغريرة المقاتلة لا بد أن تستغرق بالإعلاء ، والاصوات «قدرة» مدمرة قد تکن إلى حين — إذا اكتفيت بالتهدة أو بالمسكنات المؤقتة — ثم تعود كأضري ما تكون القدرة ، ولكن الإسلام (سما) بهذه الغريرة حين استغرقها في الجهاد في سبيل الله : وبعد سنوات من المسالة والعداب والمعاناة نزلت أول آية تأذن بالجهاد دفاعا عن النفس وعن العقيدة «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير» .^(١) ثم توالت بعد ذلك عشرات من الآيات تأمر بالقتال ما اقتضى الأمر دون عدوان ، وتنظم شؤونه وشروطه وتصور أحوال المسلمين فيه . ومن هذه الآيات :

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُو نَكُمْ وَلَا تَعْنَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْنَدِينَ ^(٢)

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَلَا يَرْجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَنْرَجْتُمُوهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقْتَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكُفَّارِينَ ^(٣)

وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُمْ لِمَفْرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمِعُونَ ^(٤)
فَلَيُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُ أَوْ يَغْلِبُ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ^(٥)

(١) المحجج ٣٩

(٢) البقرة ١٩٠

(٣) البقرة ١٩١ ثقفهم : وجدتهم . الفتنة : الشرك في الحرم

(٤) آل عمران ١٥٧

(٥) النساء ٧٤

سَبِّحُوكُمْ وَمَا لَكُمْ لَا تُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَلَدِينَ
الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبُّنَا أَخْرَجَنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرِيرَةِ الظَّالِمُونَ أَهْلُهَا وَاجْعَلُ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيَا
وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (١)

سَبِّحُوكُمْ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّاغُوتِ
فَقَاتِلُوا أُولَئِكَ الشَّيْطَنَ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَنِ كَانَ ضَعِيفًا (٢)

سَبِّحُوكُمْ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا الْقِيمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُؤْلُهُمْ أَلَادِبَارٌ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ
يُوَمِّدُ دُبُرَهُ وَإِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فَتَاهَ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَلَهُ جَهَنَّمُ
وَيُئْسِنَ الْمَصِيرَ (٣)

سَبِّحُوكُمْ وَأَعْدُوا اللَّهُمَّ مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُرْبَةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ
وَعَدُوكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنَفِّقُو مِنْ شَيْءٍ وَمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * وَإِنْ جَنَحُوا إِلَى اللَّسْلَمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤)

سَبِّحُوكُمْ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحِرِّمُونَ مَا حَرَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ حَقًّا يُعْطُوْا أَلْيَازِيَّةَ عَنْ يَدِهِمْ
صَنِعُرُونَ (٥)

(١) النساء ٧٥

(٢) النساء ٧٦ الطاغوت : الشيطان

(٣) الانفال ١٥ ، ١٦

(٤) الانفال ٥٩ - ٦١ زحنا : متوجهين نحوكم لقتالكم ، متعرضا لقتال : مظهر الإهتمام خدعة . متحيزا إلى فتاة : متضاها إليها ليقاتل العدو معها . باء : رباع .

(٥) التوبه ٢٩

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَا تَحْسِنَ أَذْنِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ
 فَرِحْيَنَ بِمَا أَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبِشُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ
 أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١﴾

ومن هذه الآيات نستطيع أن نتبين في سهولة إنسانية الجihad الإسلامي وأخلاقيته .

١ - فهو ليس قتالا للتخريس والتدمير والغنم والسلب ، ولكن في سبيل الله
 والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان .

٢ - وهو قتال كان في أغليبه دفاعيا : دفاعا عن النفس والأرض والعقيدة (فإن قاتلوكم
 فاقتلوهم) .

٣ - والسلام هو الأصل ، أما القتال فهو الاستثناء أو « تصرف الضرورة » بدليل أن
 المسلمين ظلوا يتحملون الأذى والموان ثلاثة عشر عاما ، ولم يؤذن لهم في القتال إلا بعد
 ذلك ثم بعد الأمر بالقتال « لَمْ جَنَحُوا لِلشَّرِّ فَاجْنَحَهُمْ » .

٤ - المؤمن بعد ذلك مطالب أن يكون إنسانا في القتال : فلا يحرق ، ولا يدمر ولا يجهز على
 جريح ، ولا يقتل شيئا ولا طفل ولا رجل دين .
 وعليه من ناحية أخرى أن يكون شجاعا قوى الشكيمة ، صعب الملتقي ثابت القدم
 لا يعرف إلى الفرار سبيلا ، فلا يتراجع إلا متعرضا للقتال أو متخيزا إلى فتنة .

٥ - وهو في القتال يجب أن يكون حريصا على تحقيق لحدى الحسنين : النصر أو الشهادة :
 فإن كانت الأولى .. فقد جعل كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا هي السفلة ،
 وإن كانت الثانية .. فهو في الجنة من الأحياء الذين هم عند ربهم يرزقون فرحين بما
 آتاهم الله من فضله .

٦ - ولكن على المؤمن حتى في فترات السلم أن يكون على أبهة الاستعداد لكل قتال طارئ
 مفاجئ ، فيبعد من ضروب القوة ما يستطيع . ومن الحكم البالغة « إن الاستعداد
 للحرب هو أضمن الوسائل لتحقيق السلم » .
 بكل هذه الملامح اتسم « الجهاد الإسلامي » الذي كان البديل القوي للقتال
 الجاهلي العدواني أو إن شئت فقل هو التسامي والإعلاء من جانبيه :

(١) آل عمران - ١٦٩

(أ) من ناحية الوسيلة والطريقة: فالمسلم عليه أن يكون «إنساناً» متسلحاً بروح الإسلام الأخلاقية في التعامل مع أعدائه أثناء القتال وبعده.

(ب) من ناحية المادفة: فلم يعد القتال في سبيل السلب والنهب والماء والمرعى والثور على طريقة «بغاء ظالمين وما ظلمنا».

ولكنه أصبح «في سبيل الله» وهو تغيير جديد على المجتمع الجاهلي يمكن أن يكون مرادفاً لتعبير آخر هو «الرسالة الإنسانية»، و«سبيل الله» من التعبيرات التي ألح عليها القرآن، وكررها أكثر من مائة مرة.

وبهذا «الإعلان» استطاع النبي عليه الصلاة والسلام – عملياً – أن يضئن من «البدوي العدوانى» مجاهداً من الطراز الأول، واستطاع النبي أن يغرس في نفس العربي حب الجهاد في سبيل الله: شغل بالجهاد نفسه، وملاً قبه.. وشغل وقته، فكانت بدر وأحد والخندق والفتح وحنين وتبوك.. عدا أكثر من ثمانين سريّة خرجت للجهاد في حياة النبي عليه السلام.

وجاء أبو بكر فعقد أحد عشر لواء لقتال المرتدين بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم – وطرق أبواب فارس والروم.

وفي عهد عمر كانت نهاية الأسددين فارس والروم، كما فتحت مصر، ومصرت الأمصار.

ولم يعد عند العربي المسلم «فراغ» من الوقت يشغله بغير الجهاد.. ولم يعد عنده فراغ نفسي يشغله بغير نشر كلمة الله في آفاق الأمصار الممتدة في جهات العموم الأربع.

• • • •

وعوداً على بيده.. أذكر القاريء بخلاصة موقف الإسلام من أخلاقيات المجتمع الجاهلي، أو ما سميته بقائمة القيم الجاهلية. وقد رأينا أن موقف الإسلام اختلف باختلاف طوابع هذه القيم على التحوال التالي: –

١- فكان هناك ما يباركه الإسلام وأبقى عليه وفاء كالكرم والشجاعة والنجدية ونصرة المظلوم، والذي كان مثالها التاريخي الحى حلف الفضول^(١)، مع وصل كل أولئك بالمعين الربانى الغنى الثزار.

(١) وهذا يدل على سماحة الإسلام ومرؤنته وانسانيته. قال الإمام النووي عن أسلاف الجahلية «والمحالفة على طاعة الله تعالى والتنامى في الدين، والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق فهذا باق لم ينتهي وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم «وأيما حلف كان في الجahلية لم يزد الإسلام إلأشدة»، صحيح مسلم ٣٩٠ / ٥

٢— كان هناك ماحرمه الإسلام تحريماً قاطعاً .. كاللئم والميسر والأنصاب والأزلام والغدر والسرقة والزنى .

٣— وأخيراً كان هناك ما «سما» به الإسلام و«علاه» مع بقاء مأصله النفسي كالطبيعة القتالية وملكة الشعر.

وارتكازاً على هذه المعاور مضافاً إليها محور رئيسى رابع هو محور «الأوامر الإسلامية» ، ارتكازاً على كل أولئك تكونت «قائمة القيم الإسلامية» التي أخذ المسلمين أنفسهم بها ، واستطاع النبي عليه السلام ومن بعده خلفاؤه الراشدون أن يصنعوا بها جيلاً تقيناً نشر كلمة الله ، وجاهد بالنفس والمال ، وكان بخلقه وعلمه فقة لا تتحنى تخلوق ، ولا تلين لموى فكانوا كما قال عنهم استاذهم .. أستاذ الحياة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم -« أصحابي هم الأنجم الزواهر بأيمهم اقتديم اهتديةم» .

• • • •

وبعد هذه المسيرة الموجزة مع تاريخ القيم الجاهلية وطبيعتها وألوانها — من صالح وطالع — ومكانتها من نفس الجاهلي وفي مجتمع الجاهليين آن لنا أن نتعرف على طبيعة القيم الإسلامية لنقف على حدودها وسماتها وخصائصها الفارقة التي تجعل لها ذاتية وكياناً إسلامياً مميزاً . وهذا موضوع الفصل الثاني من هذا البحث .



الفصل الثاني

خصائص القيم
الإسلامية

تمهيد

القيم الإسلامية هي مجموعة الأخلاق التي تصنف نسيج الشخصية الإسلامية وتجعلها متكاملة قادرة على التفاعل الحى مع المجتمع ، وعلى التوافق مع أعضائه وعلى العمل من أجل النفس والأسرة والعقيدة .

وقد سبق أن ذكرنا أن الآيات الأولى التي نزلت على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم – لم تكن دعوة إلى القراءة فحسب ... ولم تكن دعوة إلى تلقى العلم وكفى .. ولكنها كانت إلى ما هوأشمل وأعمق .. كانت دعوة إلى التحرك الديناميكي الناشر للبناء والإبداع استجابة للداعي « الذى خلق ... خلق الإنسان من علق » وكانت « العلمية والحركة الناشطة » من أعظم الأسس التي اعتمدت عليها القيم الإنسانية في الإسلام .
والقيم الإسلامية في جموعها نوعان :

١- **القيم السلبية** : أو قيم التخلخل : وتنجلى في هجر مانى الله عنه من شرور وموبقات كشرب الخمر والزنى والكذب والسرقة ... الخ
٢- **القيم الإيجابية** : وهى القيم التي كلف المسلم بالتعلق بها وأخذ نفسه بمقتضياتها مثل : الصدق والأمانة والرحمة وصلة الرحم والكرم وحسن الجوار .
ومن فضول القول أن ننبه إلى أن المسلم مطالب بالنوعين معا .. مطالب بترك مانى الله عنه ، ومطالب بفعل ما أمر الله به « مَا أَنْتَ كُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانهوا .. »^(١) .

وأغلب القيم الإيجابية يتضمن نهيا عن نقضها والعكس صحيح: فالامر بالصدق مثلا يتضمن نهيا عن الكذب ، والنهى عن السرقة يعد أمرا ضئيلا بالأمانة .. الخ .

(١) المشر

والقيم الإسلامية اتسمت بسمات وخصائص متعددة منها ما يتعلق بنهج التكليف وطريقته ، وأغلبها أساساً أصيل لا ينفصل عن طبيعتها وجوهرها ، وهذه السمات والأبعاد تكاد تتلخص فيما يأتي :-

- ١- التدرج التكليفي.
- ٢- الوسطية العادلة.
- ٣- الهيمنة التshireمية.

و سنحاول في الصفحات التالية عرض هذه السمات وبيان مظاهر العظمة فيها :

أولاً : التدرج التكليفي

الدرج سمة من أبرز سمات الوجود الحى : فخلق الأحياء يتكامل تدريجياً نطفة .. علقة .. مضغة .. عظام تكتسي لها .. الخ

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ مِنْ سُلْطَانٍ مِّنْ طِينٍ ﴾ (١) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢) ثُمَّ خَلَقْنَا الْنُطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عَظِيمًا فَكَسَوْنَا الْعِظَمَ لَهُمَا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقَاهُ أَخْرَفَتْ بَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَلْقَيْنَ ﴾ (٣)

والكائن الحى بعد أن يرى نور الحياة يتدرج به الوجود من رضيع إلى طفل .. إلى شاب .. إلى كهل .. إلىشيخ . وهذا ما عرضه القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ يَتَأْيَهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُّخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ لِتُبَيَّنَ لَكُمْ وَنَقْرَفُ أَلْأَرْحَامَ مَا نَسَاءَ إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمٌ ثُمَّ نُحْرِجُكُمْ طَفَلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّ كُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَوَّقُ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَيَّ أَرْذَلُ الْعُمُرِ لِكَيْلًا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ

(١) المؤمنون ١٢ - ١٤ سلاله: خلاصة . قرار مكين: الرحم . علقة: دما متجمداً . مضغة: قطعة لحم قدر ما يغضن . تبارك: تعالى

عِلْمٌ شَيْعًا وَتَرَى أَلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا أَلْمَاءَ أَهْتَرَتْ وَرَبَّتْ
وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بِهِمْسِجٍ ^ج (١)

نعم والأرض هامدة .. يحييها الماء .. ويلقى فيها الحبّ الذى ينفلق عن ساق ضعيفة ..
ثم تننمو وتشتد لتحمل الأوراق والأزهار، ثم الثمار— وإيتاء الأكل .. ثم تنتهى الدورة لتبدأ
دورة إنباتية جديدة وهكذا ..

ودورات التطور الحضاري ابتداء من العصر الحجرى . لامكان للطفرة فيها .. ولكنها
اعتمدت على «الجرعات الحضارية المتدرجة» إن صع هذا التعبير . وبين الإنسان في العصر
الحجرى ، والإنسان في عصرنا الحاضر: عصر الفضاء والذرّة والتكنولوجيا بين هذا الإنسان
الأول والإنسان الحاضر ملايين من السنين لم ينقطع فيها العمل والتجارب والعذاب والنجاح
والاخفاق .

فالدرج اذن .. هو سنة جوهرية من سنن الحياة . وكان الإسلام— وهو دين الفطرة—
على حق حين جعل الدرج والتدرج سمة منهجية من أبرز سماته .. لافي تربية المسلمين
على القيم الأخلاقية فحسب بل في التشريع كله من عبادات إلى معاملات إلى
عقوبات» ، وأهم ما حقيقته الإسلام بهذا «الدرج التشريعي» فائدةتان :

١ ضمان تنفيذ العمل (فعلا أوتركا) : بعد أن تهيأت النفوس لذلك خطوة خطوة:
فالدرج تيسير يوفر على المسلم الإجهاد والمشقة .. لذلك كانت «الاستطاعة» شرطا من
شروط القيام بالتكليف «لَا يُكَلِّفَ اللَّهُ نَفْسَنَا إِلَّا وَسِعَهَا» (٢) وعن عبد الله بن عمر—
رضى الله عنها— قال : كنا إذا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة ..
يقول لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : فيما استطعتم ^(٣) .

وعن أميمة بنت رفique قالـت «أتيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في نسوة بايعته
على الإسلام . فقلـن يا رسول الله : نباـيعك على الانـشـرك باللهـ شيئاً ، ولا نسرـق ولا نـزنـى ،

(١) المسج ٥ مخلقة : مستينة الخلق مصورة . لتبلغوا أشدكم : كمال قوتكم وعقلكم . أرذل العمر : أخته ، أى المزف
والمرم . هامدة : يابسة قاحلة . ربـت : ازدادـت وانتفـخت . زوجـ بيـعـ . صنـف حـسـن نـصـيرـ

(٢) البقرة ٢٨٦ . وسعـها : طاقتـها وما تـقدرـ عـلـيهـ .

(٣) مالـك : الموـطـا ٦٠٨ (كتـاب الـبيـعـ)

«نقتل أولادنا ، ولا نأتي بهنان نفتر يه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا ننصيك في معروف . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : «فيما استطعن وأطْفَلْنَا»^(١) والاستطاعة أو الإطاعة من أهم مظاهر التيسير الإسلامي بل هي جوهر هذا التيسير . وهذا التيسير لا يمكن أن يتتحقق – ومن ثم يكون العجز عن التنفيذ ، أو على الأقل يكون الإعنات والخرج . إذا مانزلت التكاليف طفرة بلا تدريج .

٢ – ترسیخ التکالیف والقیم في نفوس المؤمنین : فتدريج هذه التكاليف . وتوزيعها على مدى زمني طويل يثبت جذورها في أعماق المؤمن ، ويجعله قديراً على حفظها والحفظ عليها ، حتى تصبح جزءاً من كيانه ونبيجه النفسي والعقلي والروحي ، ولو نزلت هذه التكاليف مرة واحدة لأنسني بعضها بعضاً .

ولنا في القرآن المثل الأعلى : لقد نزل منجماً على مدى ثلاثة وعشرين عاماً ، فحفظه المسلمون وحافظوا عليه والتلقوا حوله وأحبوه واعتزوا به وأخذوا أنفسهم به أمراً ونهياً ، وكان منهم من يتعذر – على قدرته في الحفظ – إلا يحفظ آية جديدة إلا بعد أن يأخذ نفسه بالسابقة عليها ويعمل بها في حياته وحياة أسرته .

إن التهيئة النفسية يجعل النفس تتقبل التكاليف بقبول حسن ، لأن النفس بهذا التهيئه تكون قد تفتحت واستعدت للتلقى، فيمضي الأمر يسرى في أعماقها في سهولة ويسر سريان الدم في العروق والتورق الظلمات .

والأمر ما . لم ينزل الوحي على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلا بعد سنوات من تجثث شهراً كل عام في حراء ، ينقطع فيه عن الناس ويعد ربه ويتأمل عظمته الله في سمائه وأرضه بعيداً عن شرور الناس وصراعهم ومشكلاتهم^(٢) ..

وقبيل نزول أول آية من آيات القرآن الكريم كان محمدًا ذات نفس نقية وقلب صاف مهياً لتلتقى هذا الكتاب العظيم بعد أن انصلقت هذه النفس العظيمة بهذا التحنت وبمهيشين آخرين :

الأول : صرف الله له عن موبقات الجاهلية ومفاسدها ولها وملاهيها وأصنامها ، وما خصه الله سبحانه وتعالى – به وجهه حتى في ستره عند بناء الكعبة : إذا أخذ إزاره ليجعله على

(١) السابق : نفس الصفحة

(٢) انظر ابن هشام ٢٤٢ / ٢٤٣ .

عاتقه ليحمل عليه الحجارة ، وتعرى ، فسقط إلى الأرض حتى رد إزاره عليه فقال له عمه :
ما بالك ؟ فقال : إنني نهيت عن التعرى (١) .

الثاني : الرؤيا الصادقة : فعن عائشة – رضي الله عنها – أن أول ما بدأ به رسول الله – صلى الله عليه وسلم من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة الله به .. الرؤيا الصادقة : لا يرى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رؤيا في نومه إلا جاءت كفلك الصريح ، قالت « وعجب إليه الخلورة ، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده » (٢) .

وبعد هذه التهديدات والتهيئات الخلقية والنفسية والروحية ، كان نزول القرآن حيث التربة معدة لتلقي البذرة الحالدة التي صارت شجرة شاغعة آتت أكلها ثماراً دانية القطف .

• • • •

والقرآن الكريم – كما أشرنا – لم ينزل في يوم أو يومين ، ولم ينزل في عام أو عامين ، بل نزل منجماً على مدى ثلاثة وعشرين عاماً .. في شكل « جرعات » دينية وخلقية واجتماعية ترتبط بالأحداث والواقع فكان كالدواء الذي يُؤتي نتائجه الطيبة على المدى الطويل وبجرعات قليلة تبعاً لمقتضيات الأحوال .

وكانت قاعدة التدرج التشعّي من أبرز سمات النهج الإسلامي في التشريع وفرض التكاليف مراعياً في كل أولئك قدرة الناس واستطاعتهم .

وتركت التكاليف المكية في القرآن على الكلمات وأصول العقيدة من توحيد الله وترك عبادة الأصنام وإخلاص العبادة له وحده ، ويدرك الناس بالبعث والجزاء ، ويصف مشاهد القيمة ، ويعرض صور النفح في الصور والقيام من القبور وتوزيع الصحف وزن الأعمال والمرور على الصراط ودخول المتقين الجنة ، ودخول الكافرين النار (٣) .

فلا انتقل النبي – عليه السلام – إلى المدينة .. ارتفع منسوب التكاليف لتلبى مقتضيات نشأة الدولة الجديدة ، ولبيت التشريع الحال للناس كافة في كل العصور جاءت سور القرآن طوالاً بعضها يتكون من مئات الآيات ، وهي تفصل قواعد المعاملات والفرائض والحدود والجهاد والحقوق والقوانين المدنية والتجارية . (٤) فالزكاة مثلاً لم تفرض في مكة بل فرضت في المدينة بعد المجزرة بعامين . وصيام رمضان وكذلك زكاة الفطر لم يفرض إلا بعد المجزرة بقريبة عام ونصف . والصلوة التي فرضت بمكة في العام الثاني عشر منبعثة ليلة

(١) الشفا / ١ . ٧٣٠ .

(٢) ابن هشام / ١ . ٢٤٠ . وانظر البخارى / ١ / ٣ (باب بدء الوحي) وانظر ٢١٤ / ٧ (كتاب التفسير)

(٣) انظر عبد الله شحاته : علوم القرآن والتفسير ص ٦٢ ، وانظر كذلك من ص ٦٩ إلى ص ٧٤ .

(٤) انظر السابق ٨١ - ٧٥

الإسراء والمعراج أتت ثنايتها أربعاء في المدينة : فعن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – قالت : فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين في الحضر والسفر فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر ^(١).

ويعنى ذلك أن المسلمين ظلوا قرابة عشر سنوات يصلون ويعبدون الله بغير تحديد إلى أن فرضت الصلاة ثنائية قبل الهجرة بعام تقيها ، ثم صارت الصلاة رباعية في المدينة ^(٢). وكذلك لم يشرع الجهاد إلا بعد هجرة النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى المدينة ، لذلك نجد آيات الجهاد كلها مدنية ، واتساقاً مع قاعدة « التدرج التكليفي » بدأ م مشروعية الجهاد بالإذن لا « بالفرض » وذلك في قوله تعالى :

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ إِذَا دَرَأَتِ الظُّلُمَوْنَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِ لَقَدِيرٌ ^(٣)

أما « فرضية » الجهاد وإلزام المسلمين به لأول مرة فيتمثل في قوله تعالى :

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرُهُوا شِيَعًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شِيَعًا وَهُوَ شَرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ^(٤)

(٢) البخاري / ٩٩ (كتاب الصلاة) وانظر كذلك ابن هشام ٢/١٢

(٢) كان الإسراء والمعراج ليلة الإثنين ٢٧ من رجب قبل المجزء بعام تقيها (٦٢١ م) ، ثم كانت هجرته ووصوله إلى المدينة في يوم الإثنين ١٢ من ربيع الأول وهو يوافق الثامن والعشرين من يونيو ٦٢٢ م . (انظر المقرizi : إمتعان الأنساع ٥٠)

(٣) الحج ٣٩

(٤) البقرة ٢١٦ ، وانظر زاد المعد ٢/٨٥ حيث رد ابن القيم بمجمع دامغة على من ذهب إلى أن آية الإذن بالقتال مكية وكذلك سورة الحج .

ولكن يجب أن نبه إلى أن سورة البقرة هي أول سور المدينة نزولاً . أما سورة الحج فهي السابعة عشرة في الترتيب النزولي بالمدينة . وهذا الترتيب النزولي ينتهي – في الظاهر – أن فرضية القتال جاءت قبل الإذن به ، وهذا ينافق طبيعة الإسلام ومنهج التشييع في التدرج . لذلك يرجح – مع تسليمنا بـ مدنية السورتين . أن آية الحج في الإذن بالقتال والأيتين التاليتين لها (٤١ ، ٤٢) نزلت على النبي وهو في طريقة من مكة إلى المدينة مهاجراً وبعد استقراره بالمدينة قبيل نزول سورة البقرة .

وفي المدينة كانت زيادة التكاليف أمراً منطقياً يتفق مع واقعٍ :

الأول : هو واقع المسلمين العقائدي : فقد مضى على إسلام أغلبهم أكثر من عشر سنوات ، وهي مدة كافية لصقل نفوسهم ، وفتح قلوبهم لتقبل كل جديد من التكاليف .

والثاني : هو واقع المسلمين الاجتماعي والسياسي الجديد : فقد أصبح لم دولة جديدة لها أسسها وأركانها ودستورها وقيادتها . وقد صور القرآن الكريم الفرق الهاشل بين

حال المسلمين في مكة وحالهم في المدينة في قوله تعالى ﴿ وَأَذْكُرُوا مَا ذَهَبَتْ مُسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَّخَذَنَا أَنْتُمْ فَعَوْنَاكُمْ وَآيُّهُمْ بُشَّرٍ هُوَ وَرَزَقُكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ شَكُورُونَ ﴾ (١) ...

ولكن التدرج التشعّي يظهر بأجلٍ صورة وحكمه في تحريم الخمر ، لقد كان المجتمع الجاهلي مريضاً بشرب الخمر والإقبال عليها وإدمانها وكان ذلك من أبرز أمراضه الاجتماعية ، يصور ذلك ما ذكرناه في الفصل السابق من أشعار الجاهليين ، وأدل من كل أولئك قول السيدة عائشة – رضي الله عنها .

«**ـ حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا : لاندع الخمر أبداً**» (٢) .

وقد مرت مسيرة تحريم الخمر براحل زمنية تمثلها هذه الآيات التي نوردها بترتيب نزولها :

﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَكَيْدَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) ...

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ قِيمَاهُ لِمَمْ كَيْرٌ وَمَنْدِفعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ (٤) ...

(١) الأنفال ٢٦

(٢) البخاري ٤٢/٦ (كتاب فضائل القرآن)

(٣) النحل ٦٧ . سكرا (فتح الأول والثاني) شراباً مسکرا

(٤) البقرة ٢١٩ .

بِتَائِهَا الَّذِينَ هُمْ نَفِرُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَّرَى حَتَّىٰ تَعْلَمُو مَا تَقُولُونَ (١)

يَتَائِهَا الَّذِينَ هُمْ نَفِرُوا إِنَّمَا أَنْخَرُوا وَالْمَبِيرُوا وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَنِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفَلِّحُونَ (٢) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَنُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَبِيرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٣)

وهذه الآيات الأربع تمثل موقف الاسلام من الخمر إلى أن وصل إلى القرار الخامس
بتحررها تحررها قاطعاً أى أنها تمثل أربع مراحل تصاعدية في طريق التحرر هي :

- ١ - التوطئة بالتلبيح البعيد .
- ٢ - التوطئة بالتصريح المباشر .
- ٣ - التحرر الموقت .
- ٤ - التحرر النهائي الخامس .

وسنحاول أن نعرض في إيجاز لكل مرحلة من هذه المراحل حتى نقف على روح الدين
الإسلامي وعقر يته في هذه السمة .. سمة التدرج التشرعي :

١ - التوطئة بالتلبيح البعيد : فالآية ٦٧ من سورة النحل - وهى مكية بلا خلاف تشير إلى
أن القرىشيين يستخرجون من البليح والأعناب خمرا وألوانا أخرى من الرزق الحسن . وقد
ذهب بعض المفسرين إلى أن في ذلك وجهين :
أحدهما : أن تكون منسوبة ، ومن قال بنسخها الشعبي والتخumi .
والثاني : أن يجمع بين العتاب والمنة (٢) ..

(١) النساء ٤٣ : وقد ذهب الأستاذ/ عودة في كتابه : التشريع الجنائي الإسلامي : القسم العام من ٥٠ والقسم الخاص من ٩٨ مذهب من يرى أن آية النساء نزلت قبل آية البقرة ، وهذا غير صحيح لأن البقرة كانت أول سورة نزلت
بال المدينة بعد المحرجة، نزلت النساء في السنة السابعة بعد المدينة ، أما المائدة فنزلت في السنة الخامسة بعد فتح مكة . وقد
ألح الشيخ محمد عبده (المدار ٧/٥٠) إلى هذا الرأي وإن لم يأخذ به . والمشهور ما ذهبنا نحن إليه . لأنه - زيادة على
ما ذكرنا - يتفق مع طبيعة التدرج التشرعي في الإسلام .

(٢) المائدة ٩١-٩٠

(٣) الكشاف ٤١٧/٢

وقال ابن عباس - رضي الله عنها - نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر، وأراد بالسكر الخمر وبالرزق الحسن جميع ما يؤكل ويشرب حلالا من هاتين الشجرتين .

وقال ابن العربي : أَسَدُ هذه الأقوال قول ابن عباس ، وبخرج ذلك على أحد معينين : إما أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر، وإما أن يكون المعنى : أنعم الله عليكم بثمرات التخييل والأعناب تتخذون منه ما حرم الله عليكم اعتقداء منكم ، وما أحل لكم اتفاقاً أو قصداً إلى منفعة أنفسكم (١) ..

والأقوال السابقة تضعنا أمام ثلاثة آراء :
الأول : أن الآية منسوبة .

والثاني : أن في الآية لونا من العتاب الصربيع إذ يستخرجون من الأعناب، والتخييل شرابا مشكيرا ، زيادة على ما فيها من المن عليهم « بالرزق الحسن »
والثالث : أن في الآية تصويراً الواقع ، فلا نسخ إذن ولا عتاب .

والقول بالنسخ لا دليل عليه ، ولكن الآية تصوير حقيقي لواقع حقيقي ، ووراء هذا التصوير قصد رباني كريم ، فهو لم يقصد إلا إلى الموازنة بين السكر والثمار الأخرى التي يصفها بأنها حسنة ، دون أن يصف هذا السكر نفسه ، وبذلك صار لدى المؤمنين دافع إلى الإحساس ببعض التحرج والوسوسة تجاه هذا النوع من الشراب » . (٢)

والنص يلمح إلى أن الرزق الحسن غير الخمر ، وأن الخمر ليس رزقاً حسناً . وفي هذا توطة لما جاء بعد من تحريمها ، وإنما كان يصف الواقع في ذلك الوقت من اتخاذهم الخمر من ثمرات التخييل والأعناب ، وليس فيه نص يجلها ، بل فيه توطة لتحريمها . (٣)

وقد يؤيد هذا التحريم تذليل الآية بقوله تعالى : « إن في ذلك لآية لقوم يعقلون » فثل هذا التلميح البعيد بالموازنة يحتاج إلى إعمال العقل والحس البصري لإدراك المقصود الرباني من وراء هذه الكلمات .

٢ - التوطئة بالتصريح المباشر: ثم كانت آية البقرة

﴿ يَسْعَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِنْ كَيْرٌ وَمَنْلِفٌ لِلنَّاسِ
وَإِنَّهُمْ أَكْبَرُ مِنْ تَقْعِيمَهَا ﴾

والبقرة هي أول سورة مدنية ، ويقال إن سبب نزول هذه الآية .. أن عمر ومعاذ ونفرا

(٤) التقطبي ٥ / ٣٧٤٤

(٢) دراز: دستور الأخلاق في القرآن (٨٣)

(٣) قطب: في ظلال القرآن ٤ / ٢١٨١

من الصحابة قالوا يا رسول الله أفتنا في الخمر فإنها مذهبة للعقل ، مسلبة للمال ، فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون .^(١)

وهذا السؤال يدل على أن المسلمين كانوا بفطرتهم ، وبإيحاء آية النحل يشعرون بالحرج في شربها ، حتى أنه كان هناك من الجاهليين من حرمها على نفسه .

كما يدل هذا السؤال على أن المسلم كان حر يصا على استكمال مكارم الأخلاق والالتزام بما أتى به رسول الله— صلى الله عليه وسلم — والخمر كانت سلعة تجارية في الجاهلية .. والمدينة كانت خاصة بالحانات .. وكثير من المسلمين كانوا يشربون بل يدمتون الشرب ، ومن هؤلاء : علي بن أبي طالب ، وعمر بن الخطاب الذي وصف نفسه بأنه « كان رجل خمر في الجاهلية » .

وفي الميسر أو القمار كسب .. وهو— وإن اشترك مع الخمر في كونه كسباً مادياً— فإنه يختلف عنه في أن الكسب الذي يتحققه طرف يعني خسارة الطرف الآخر لذلك كان منطق الآية يمثل مرحلة قوية جداً لتهيئ النفوس للتحريم القاطع :

أ— فقدم الإثم على المنافع .

ب— ووصف الإثم بأنه كبير، وجعل المنافع غفلاً من الوصفية .

ج— ثم حسم الموازنة بأن إثمهما أكبر من نفعهما .

ويري الفخر الرازي أن الآية تحرم الخمر تغريماً قاطعاً مستدلاً بالأدلة الآتية :

(أ) اشتمال الآية على الإثم ، والإثم حرام لقوله تعالى :

« قل إنما حرم رب الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى »

فكان جموع هاتين الآيتين دليلاً على تحريم الخمر.

(ب) أن الإثم قد يراد به العقاب ، وقد يراد به ما يستحق به العقاب من الذنب ، وأيها كان فلا يصح أن يوصف به إلا الحرم .

(ج) أنه تعالى قال : (ولئنها أكبر من نفعهما) صرخ برجحان الإثم والعقاب وذلك يوجب التحريم^(٢) .

ويرفض القرطبي مذهب الفخر الرازي لأن الله لم يسم الخمر إثماً في هذه الآية ، وإنما

قال (قل فيها إثم كبير) ولم يقل « (قل لها إثم كبير...) ». وقد قال قتادة : إنما في هذه الآية

^(١) الفخر الرازي ٢١٧/٢

^(٢) الفخر الرازي ٢١٩/٢

دم الخمر، فاما التحرم فيعلم بآية أخرى ، وهي آية المائدة ، وعلى هذا أكثر المفسرين .^(١)
ويمكن أن تؤيد مذهب القرطبي والجمهور بدللين آخرين هما :

(أ) أن الآية لو كان فيها تحريم قاطع لكان الصحابة وبخاصة السائلون هم أسبق الناس إلى هذا الفهم ، ولما تطلعوا بالدعاء إلى الله أن «يُبَيِّنْ لَهُمْ فِي الْخَمْرِ بِيَانًا شَافِيًّا» .

(ب) كما أن النبي «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» لم يحد أو يعزز مسلماً شرب الخمر بعد نزول هذه الآية .

ولكن الآية رجحت جانب الإثم على جانب النفع – كما بینا – لذلك هجرها كثیر من المسلمين : وكانت الآية بذلك تمثل الخطوة الثانية للنبيء النفسي نحو التحرم القاطع الحاسم .

٣- التحرم الموقت :

بقوله تعالى في سورة النساء :

وَمَنْ يَتَّبِعْهَا إِلَيْهَا الَّذِينَ ظَاهَرُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَإِنْتُمْ سُكَّرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴿٤٦﴾

ومناسبة نزول هذه الآية ماروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما ، فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منها ، وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت «قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون . ونحن نعبد ما تعبدون» فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله :

وَمَنْ يَتَّبِعْهَا إِلَيْهَا الَّذِينَ ظَاهَرُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَإِنْتُمْ سُكَّرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴿٤٦﴾

فحرمت الآية ونهت عن أن يأتي المسلم صلاته وهو سكران . والآية هي آخر تمهيد للتحرم القاطع الحاسم ، فإن من يتقى أن يجيء عليه وقت الصلاة وهو سكران يترك الشرب عامه النهار وأول الليل لانتشار الصلوات الخمس في هذه المدة ، فالوقت الذي يبقى للسكر هو وقت النوم من بعد العشاء إلى السحر ، فيقل الشرب فيه لزاحته للنوم الذي لا بد منه ، وأما أول النهار من صلاة الفجر إلى وقت الظهرة ، فهو وقت العمل والكسب لأكثر الناس ،

(١) القرطبي ٨٦٨/١

(٢) السيوطى : أسباب النزول ٥٢

ويقل أن يسكت فيه غير المترفين الذين لا عمل لهم . وقد ورد أنهم كانوا بعد نزولها يشربون بعد العشاء فلا يصبحون إلا وقد زال السكر ، وصاروا يعلمون ما يقولون (١) .

وأمام هذه الصعوبة العملية في التوفيق بين أوقات الصلاة وفرصة الشرب والسكر .. هذه الصعوبة التي تكاد ترتفع إلى مرتبة الاستحالة .. أمام العجز أو شبه العجز عن هذا التوفيق .. أقلع أغلب المسلمين عن شرب الخمر لأنهم كانوا حر يصين على حضور صلاة الجمعة مع النبي عليه السلام، وأصبح التحرم القاطع قاب قوسين أو أدنى ..

٤ - التحرم النهائي القاطع :

بين آية البقرة : (يسألونك عن الخمر والميسر ..) وآية النساء : (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ..) قرابة سبع سنين ..

وبعد آية النساء بعام أو بعض عام نزلت آيتا المائدة اللتان تحملان التحرم الحاسم القاطع ، وهذا التوالى بعد هذه الفترة الزمنية القصيرة يدل على أن النفوس كانت قد تهيأت تماماً لتلقي هذا التحرم الحاسم في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) وكانت إجابات المسلمين « انتبهنا .. انتبهنا » ..

قال أنس بن مالك « إنى لقائم على الحى على عمومى أسيئهم من فضيحة لهم ، وأنا أصغرهم سنًا ، فجاء رجل فقال : إنها قد حرمت « الخمر » . فقالوا اكتفوا يا أنس . ففكفأتها » .

وزيد في رواية أخرى « فاراجعوا وما سألوا عنها بعد خبر الرجل » (٢) ..

قال أبو ميسرة : نزلت بسبب عمر بن الخطاب فإنه ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم عيوب الخمر وما ينزل بالناس من أجلها ، ودعا الله في تحريرها ، وقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت هذه الآيات (٣) ..

وقال سعد بن أبي وقاص : نزلت في آيات من القرآن : أتيت على نفر من الأنصار ، فقالوا تعال نطعمك ونسقيك خمراً - وذلك قبل أن تحرم الخمر قال : فأتيتهم في جشن (بستان) ، فإذا رأس جزور مشوى ، عندهم ورق من الخمر . قال : فأكلت وشربت معهم

(١) ٦٦٤ / ٥ (النار) .

(٢) مسلم ٦٦٤ / ٤ (كتاب الأسرية) .

(٣) القرطبي ٣٢٨٣ / ٣ ..

قال : فتذكري الأنصار والهاجر بين عندهم . قتلت : المهاجرون خير من الأنصار . قال : فأخذ رجل لحيي جمل فضربني به فرج أنفي . فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فنزل قوله تعالى : «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ .. إِنَّمَا»

وقييل إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار ، شربوا .. فلما ثمل القوم عبث بعضهم ببعض ، فلما صحووا جعل الرجل يرى الأثر في وجهه ورأسه ولحيته فيقول : صنع بي هذا أخي فلان .. وكانوا إنحوا ليس في قلوبهم ضغائن .. فيقول : والله لو كان بي رعوفاً رحيمًا ما صنع بي هذا .. حتى وقعت الضغائن في قلوبهم ، فأنزل الله قوله :

«إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ .. إِنَّمَا»

وليس هناك ما يمنع من أن تكون كل هذه الواقع صحيحة ، وأن تكون كلها قد تتابعت وتتوالت لتصنع سبباً أو أسباباً لنزول آياتي التحريم القاطع ، فهي جميعاً متوافقة ولا تعارض بينها إذ تلتقي جميعاً في إبراز الآثار السيئة للخمر نسبياً وعقلانياً واجتماعياً .

وجاءت الأحاديث النبوية مؤيدة لهذا التحريم القاطع ، ولعن النبي عاصرها ومعتصرها وشارها وحاميها والمحمولة إليها وساقيها وبائعها وأكل ثمنها والمشترى لها والمشترأ له ، كما حرم الإسلام أن تتخذ دواء : فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله أنزل الداء والدواء ، وجعل لكل داء دواء فتداوروا ، ولا تتداوروا بالحرم .. وقد سئل عليه السلام عن الخمر في الدواء ، فقال : إنها داء وليس بالدواء ، ويروى عنه أنه قال : من تداوى بالخمر فلا شفاء له (١) . يقول ابن القيم : المعاجلة بالمحرمات قبيحة عقلاً وشرعاً : أما الشرع فما ذكر في الأحاديث وغيرها ، وأما العقل فهو أن الله سبحانه وتعالى إنما حرمه لخبثه ، فإنه لم يحرم على هذه الأمة طيباً عقوبة لها كما حرمه على بنى إسرائيل بقوله :

«فَبَطَلَمْ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حِرْمَانًا عَلَيْهِمْ طَبِيبَاتٍ مَا أَحْلَلَ لَهُمْ» ..

ولنما حرم على هذه الأمة ماحرم لخبثه ، وتحريمه له حية لهم وصيانة عن تناوله ، فلا ب المناسب أن يطلب به الشفاء من الأسماق والعلل ، فإنه وإن أثر في إزالتها لكنه يعقب سقاً أعظم منه في القلب بقوة الخبر الذي فيه ، فيكون المداوى به قد سعى في إزالة سقم البدن بقسم

(١) السابق : نفس الصفحة .

(٢) أسباب النزول ٧٧ .

(٣) ابن القيم : زاد المعاد ١١٥/٣ .

القلوب . وأيضاً فإن تحريره يقتضى تحنبه والبعد عنه .. وأيضاً فإنه داء كما نص صاحب الشريعة فلا يجوز أن يتخذ دواء .. وأيضاً فإن إباحة التداوى به ولا سيما إذا كانت النفوس تعيل إليه ذريعة إلى تناوله للشهوة والله .^(١) .

ولذا ماعدنا إلى آياتي المائدة وجدنا أن الله سبحانه وتعالى – في مناقشة قضية الخمر وتحريمها – قد قطع قطعاً حاسماً في هذا التحرير مخاطباً عقول المكلفين وحسم الإيمانى في بيان قوى واضح :

(أ) فوجه الخطاب للذين آمنوا .. والإيمان هو أعلى درجات الاعتقاد : فالمؤمنون أقدر من غيرهم على تقدير أوامر الله ونواهيه ..

(ب) قرن الخمر بالأنصاب وهي الأصنام التي تعبد من دون الله، وبالميسر وهو مضيعة للمال ، وبالأزلام واتباعها يلغى الرأى والعقل .. وربط الخمر بكل أولئك يتسوء صورتها وتجعل النفس تصد عنها .

(جـ) وصف الخمر بأنه رجس ، والرجس هو النجاسة والغدر الذي تحرص كل نفس شريرة على أن تتطهر منه .

(د) وجعل هذا الرجس من عمل الشيطان ومكروه وتربيته وتهبيه .

(هـ) ودعا إلى اجتنابه . والاجتناب يعطى معنى – الابتعاد والاعتزال^(٢) . ومادة الاجتناب لم تستخدم في القرآن إلا مع كل حرم خبيث :

^(٤) ﴿ وَاجْتَنَبُوا الْطَّاغُوتَ ﴾^(٣) ﴿ فَاجْتَنَبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْتَنِ ﴾^(٥)
 ﴿ وَاجْتَنَبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾^(٦) ﴿ أَجْتَنَبُوا كَثِيرًا مِنَ الظُّنُنِ إِنَّ بَعْضَ الظُّنُنِ أَثْمٌ ﴾^(٧)

(١) السابق نفس الصفحة .

(٢) القاموس الحبيط مادة جندب (الجزء الأول) .

(٣) السحل ٣٦

(٤) الحج ٣٠

(٥) الحج ٢٠

(٦) الحجرات ١٣

ويلاحظ أن الكلمة في الاستعمال القرآني لا توقف عند دلالتها الوضعية فحسب وهي الابتعاد والانصراف ، بل إن لها دلالتها النفسية وانعكاسها السعورى كذلك ، و يتلخص في أن هذا الانصراف والابتعاد يجب أن يكون مصحوباً بالكراهية والاقتناع .
من هنا كانت الكلمة في مكانها من السياق أقوى وأعمق تأثيراً من مادة (الترك) التي لم تستخدم في القرآن أبداً للنهي عن المحرمات .

(و) وبينت الآية بعد ذلك أن كل أولئك يهبيء الإنسان للفلاح والنجاح .

(ز) ونقدم الآية الثانية حيشات الأمر بالاجتناب .. فلن شرور الخمر والميسر :

— غرس العداوة والبغضاء بسبب التناحر كما حدث فعلًا في الواقع التي
كانت سبباً في نزول الآية ..
— الصدّ عن ذكر الله بعامة ، وعن الصلاة بخاصة .

(ح) ثم كان الاستفهام التحضيسي أو التهديدي في النهاية (فهل أنت منتهون) ؟
وقد كانت إجابة المسلمين بلسان المقال : انتهينا وبلسان الحال أيضًا : انتهينا انتهينا :
فكسرروا الدنان ، وأراقوا ما عندهم من خمر ، ولم يك أحد عليها لأن نفوسهم قد هيئت لذلك
تمامًا على مدى عشر سنوات من الإعداد النفسي ..
مرض عضال استشرى في نفوس المسلمين وأعصابهم حتى المشاهير منهم — كما رأينا —
من أمثال علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص استطاع الإسلام بالتربية والتربية
التدربي أن يستل من أعماقهم جذور هذا الداء عن رضاه واقتناع وتسليم ، والفضل في ذلك
طريقة العلاج المثلثى .

* * *

وتظهر قيمة الأسلوب الإسلامي في إبطال الخمر وتحريمها : عصراً وشراً وحملة وتجارة
وعلاجاً .. إذا مانظرنا إلى محاولة مشهورة لترحيم الخمر في أمريكا وقد أخفقت إنخفاقاً ذريعاً
على الرغم من الجهد الجبار الذي بذلتها الدولة في هذا المجال : فقبل أن يدخل التعديل
السابع عشر على الدستور الأمريكي أقيمت في البلاد دعاية واسعة النطاق ضد الخمر ،
وبقيت الرابطة المحاربة لوجود الحانات Anti Saloon League
تسعى وتختهد في ترغيب الأمر يكين عن الخمر ، وتبثت مضارها بالقاء الخطب وتأليف
الرسائل والكتب وعرض المسرحيات وأفلام السينما ، وأفنت في سبيل هذا التبليل عشرات
السنين ، وبذلت الأموال ، حتى قدر أن نشرات النشر والإذاعة بلغت تكاليفها من لدن بدء
الحركة إلى سنة ١٩٢٥ مبلغ ٦٥ مليون دولار . وأنه بلغ عدد الصفحات التي سود بياضها
لبيان مساوىء الخمر والزجر عنها ٩ آلاف مليون صفحة . ذلك قبل بدء التجربة .

وأما ماتحملته الأمة الأمريكية في الأربعة عشر عاماً الماضية من النفقات الباهظة فقدر مجموعها بأربعة ملايين ونصف مليون جنيه .

وتدل الإحصائيات التي أذاعها ديوان القضاء الأمر يكى للفترة الواقعة بين يناير ١٩٢٠ واكتوبر ١٩٣٣ .. أنه قتل في سبيل تنفيذ هذا القانون ٢٠٠ نسمة ، وسبعين نصف مليون ، وغرم الجناء ما يزيد بوعلى مليون ونصف مليون جنيه . وتصودر من الأموال مماثل مادياً ٤٠٠ مليون جنيه (١) ..

وكانت النتيجة - بعد هذه الإجراءات القوية المتواصلة .. وبعد هذه المعاناة الطويلة .. لا شيء .. مما اضطرت معه الدولة إلى إلغاء القانون وإلغاء نهائياً وإباحة الخمر للناس بلا قيود ..

وبالموازنة السريعة بين التشريع الإسلامي والقانون الأمريكي في تحرير الخمر يتبيّن لنا عبقرية الإسلام التتربيّة ، إذ راعى حدود القدرة الإنسانية ، والطاقة البشرية في تحمل ماتدعى إليه النفس تدريجياً وعجزها عن تحمل ما يفرض عليها طفرة .. ولا عجب .. فالله هو خالق الإنسان .. وهو أعلم بطبيعته ، لذلك أفلح التشريع الإلهي وأحقق القانون الأمريكي الوضعى .

كانت هذه هي السمة الأولى من سمات «القيم الإسلامية» وهي التدريج التشريعي . وسنعرض في الصفحات التالية لسمة أخرى جوهرية من سمات هذه القيم وأعني بها سمة (الوسطية العادلة) ..



(١) المروودي : نحن والحضارة العربية . ٥٣ .

ثانياً : الوسطية العادلة

جاءت اليهودية الموسوية بعد عهد طويل من الوثنيات الضالة ، واليهودية تعتمد في تشييعاتها على ثلاثة مصادر:
الأول : هو التوراة :

وهي مجموعة الأسفار التي يقال إنه أوحى بها إلى سيدنا موسى ، وكان أول تدوين لأحكام القانون اليهودي تلك الألواح التي أنزلت على موسى على رأس جبل سيناء ، حيث كلمه ربها بعد مناجاة دامت أربعين ليلة ..

الثاني : هو التلمود : وقد صنعته عدد من الأخبار وتم وضعه في القرن الخامس بعد الميلاد .
والثالث : هو الكتابات الفقهية التي وضعها فقهاء اليهود بعد القرن الخامس الميلادي (١)
والتوراة : وهي التي يطلق عليها العهد القديم — حوت كثيرا جداً من القواعد الخلقية والاجتماعية وخاصة سفر الخروج وسفر الأخبار وسفر التثنية . ولنعش قليلاً مع بعض هذه النصوص لنتبين طبيعة الأخلاقيات اليهودية النظرية منها :

(١) وكلم الله موسى قائلاً : اصنع لك بوقين من فضة مسحولين تعاملها فيكونان لك لمناداة الجماعة، ولارتحال الملائكة. فإذا ضربوا بها يجتمع إليك الجماعة إلى باب خيمة الاجتماع ، وإذا ضربوا بواحد يجتمع إليك الرؤساء رؤوس إسرائيل ، وإذا ضربتم هتافاً ترتحل الملائكة النازلة إلى الشرق ، وإذا ضربتم هتافاً ثانية ترتحل الملائكة النازلة إلى الجنوب ، هتافاً يضربون لرحلاتهم . وأما عندما تجتمعون الجماعة فتضربون ولا تهتفون ، وبنوهارون الكهنة يضربون بالأبواق ف تكون لكم فريضة أبدية في أجيالكم (٢) .

(١) انظر: صوفى أبوطالب: مبادئ تاريخ القانون ١١٤ وانظر كذلك د.أحمد شلبي في كتابه (اليهودية) ٢٣٧ .

ويذهب «موريس موکای» إلى أن الكتاب المقدس قبل أن يكون مجموعة أسفار كان تراثاً شعرياً لا سند له إلا الذكرة ، وهي العامل الوحيد الذي اعتمد عليه نقل الأفكار ، وكان هذا التراث يعني ، ويرى كذلك أن نسخ العهد القديم كتبت على مدى يربوعلى تسعة قرون وبلغات مختلفة ، واعتماداً على التراث المنقول شفوياً ، وقد صحيحت وأكملت أكثريته هذه الأسفار بسبب أحداث حدثت ، أو بسبب ضرورات خاصة ، وفي عصور متاعدة أحياناً (انظر كتاب : القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص ٢٠ ، ٢٣) .

"(٢) سفر العدد الإصلاح العاشر (٩ - ١) .

(٢) أنا هو الرب **الله** الذي أخرجك من أرض مصر: من بيت العبودية : لا يكُن لك آلة أخرى أمامي . لا تصنع لك تمثلاً منحوتاً صورة مما في السماء من فوق ، وما في الأرض من أسفل ، وما في الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهن ، ولا تعبدهن لأنّي أنا الرب إلهك إله غيرك (١) ..

(٣) حين تقترب من مدينة لكى تحررها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك .. فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسيير ، ويستعبد لك ، وإن لم تسلمه بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإن دفتها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بعد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاها الرب إلهك (٢) .

(٤) كل إنسان سب أبوه أو أمه فإنه يقتل : قد سب أبوه أو أمه دمه عليه . وإذا زنى رجل مع امرأة : فإذا زنى رجل مع امرأة قريبة فإنه يقتل الزاني والزانية ، وإذا اضططجع رجل مع امرأة أبيه فقد كشف عورته أبيه : إنها يقتلان كلاماً دمها علىهما .. وإذا جعل رجل مضجعه مع بحيرة فإنه يقتل والبئرة تميّتونها ، وإذا افترت امرأة إلى بحيرة لزائتها تميّت المرأة والبئرة .. إنها يقتلان .. دمها علىهما (٣) ..

ومن هذه النصوص - وغيرها كثیر جداً - نستطيع أن نتبين الطوابع العامة لأوامر العهد القديم ونواهيه وخاصة بالنسبة للأحكام . وأهم هذه الطوابع والسمات :

١ - **التنوع** : فهنا ما يدعوا إلى وحدانية الله وإفراده وتخصيصه بالعبادة دون إشراك . وبعضها خاص بالطعومات والمشروبات ما يحل منها وما يحرم ، وبعضها يتعلق بقواعد الحرب ، وبعضها يتناول الأحوال الشخصية من زواج وطلاق ، ومنها ما يحدد عقوبات الجرائم على اختلاف أنواعها .. الخ ..

٢ - **التفصيل الشديد** : بصورة تدعو إلى العجب كما نرى في النص الأول (٤) ..

(١) سفر التثنية ٥/٦ ..

(٢) سفر التثنية ٢٠/١٥ ..

(٣) سفر اللاويين ٢٠/٩ ..

(٤) يراجع مثلاً الإصحاح ٢٥ من سفر الخروج وفيه يذكر الرب الوصفات الدقيقة والجزئيات الصغيرة جداً لتثبت العهد وللمائدة وملابس هارون الكهنوية ولم تترك هذه التفصيات صغيرة ولا كبيرة تتعلق بهذه الأشياء

٣— القوة والصرامة في الحروب والعقاب والجزاءات:

فالإله يأمر كقائد حربي وكمملك صارم يجب أن يطاع لأنه الإله . والطريقة الوحيدة لاكتساب عطفه ولا جناب غضبه ليست إلا الخضوع له . والعهد القديم يشمل الشريعة ، وليس الفضيلة إلا فهمها وتطبيقاتها في كل حالة تعرض ، والتزامها بنظام وخصوص (١) ..

والذى يقرأ العهد القديم يخلي إلية أن موسى وتلاميذه لم يعرفوا أمرا من الأمور ، ولم يقفوا على مسألة من المسائل حتى الصغير التافه إلا بعد الرجوع إلى «يهوه» ، فكل نزاع ينشب كان يعرض على النبي أو حكيم من الأنبياء أو حكامه بنى إسرائيل وكان على ذلك الوسيط أن يعرض النزاع على الإله ثم يعرض حكمه على المتخاصلين . ورغم أن استطلاع رأى الإله كان يتم بعيدا عن أعين المتخاصلين إلا أنه كان يتخذ بعض المظاهر المادية التي تدل على وجوده . من ذلك ماجاء في سفر الخروج خاصا ببيان كيف كان موسى عليه السلام يتلقى الوحي . فحينما يطلب إليه أحد الرأى في أمر معين كان يدخل خيمة تسمى خيمة الوحي ، وبعد دخوله كان يلاحظ ظهور سحب كثيرة على باب الخيمة ، هذه السحب كانت تمثل «يهوه» في نظر بنى إسرائيل ، وبعد ذلك يخرج النبي موسى من خيمته ، وينطق بالحكم الذى نزل عليه (٢) .

ولكن طال الأمد على اليهودية واليهود فحدث انفصام واسع بين الشرع الإلهى وبين إسرائيل ، وظهر على القيم اليهودية بصمات وثنية لا أخلاقية ، صور القرآن كثيرا منها ، وتحجرت الديانة اليهودية واستحالت طقوسا جامدة لاحية فيها ، ومظاهر خاوية لاروح فيها (٣) ..

• • • • •

ثم جاء السيد المسيح ليهدي . كما قال: «خراف إسرائيل الضالة» والذين كان يخاطبهم في كثير من الأحيان «بأنباء الأفاعى» . وكانت المسيحية ديانة مرحلية تصدت للاتجاه المادى للיהודים وإغراقهم في حب المال والحياة ، وأكل السحت والربا وأموال اليتامي والمتادى في الباطل وشهادة الزور والغش في التجارة حيث كان «حب المادة وعبادة المال» مفتاح شخصية اليهودى .

(١) اندر يه كرسون: المشكلة الأخلاقية والفلسفة ٧٦

(٢) انظر: أبوطالب السابق ١١٣

(٣) المرحوم سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام ص ٦ . وراجع د. شلبي في (اليهودية) ص ٢٧٥ . ومن أغرب ما دخل اليهودية من اخراج وتحجر ما فرط في التلمود من نفي العصمة عن الله ونسبة الخطأ والخطيئة إليه ..

وجاءت الديانة الجديدة بقائمة من «القيم الروحية» الخالصة ليقنع الإنسان—بعد أن استغرقته مادية الحياة—أن حياته المثلث ليست هنا... ولكنها هناك في ملوكوت السماء... وخلوصاً إلى هذا الملوكوت كانت «الرهبانية» التجربة هي الاختيار المسيحي للشخصية المسيحية، وليرتك ما لقيصر لقيصر وما لله لله. وكانت «أخلاقيات» المسيحية التي دعا إليها المسيح هي قمة التجدد الذي لم تشهد له الأرض شيئاً، والذي كان رد فعل طبيعي «لعاديات» اليهودية واليهود، والإقبال على متعها وعبيدهم من لذائذها.

يقول السيد المسيح: «لقد سمعتم أنه قيل للقدماء: لا تزن.. أما أنا فأقول لكم: إن كل من ينظر إلى إمرأة يشتهيها فقد زنى بها قلبه ، فإن كانت عينك اليمنى تعثر فاقلعها وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ، ولا يلقي جسده كله في جهنم ، وإن كانت يدك اليمنى تعثر فاقطعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقي جسده كله في جهنم .

وقيل من طلق امرأته فليعطيها كتاب طلاق ، وأما أنا فأقول لكم: إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزني ، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزني .

أيضاً سمعتم أنه قيل للقدماء: لا تحثث بل أوف للرب أقسامك ، وأما أنا فأقول لكم: لا تحلفوا بالباء.. لا بالسماء لأنها كرسى الله ، ولا بالأرض لأنها موطن قدميه ، ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم ، ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء ، بل ليكن كلامكم نعم نعم ، لا لا ، ومازاد على ذلك فهو من الشرير .. سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك و يأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً ، ومن سحرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين ، ومن سألك فاعطه ، ومن أراد أن يفترض منك فلا ترده .

سمعتم أنه قيل تحب قريبك ، وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم (١) .

ومع أنه—عليه السلام—أعلن أنه لم يجيء لينقض الناموس أو الأنبياء بل جاء ليكمل (٢) .. إلا أنه رفض أن يترجم الزانية كما كان متبعاً في الشريعة الموسوية قائلاً: «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر» .

(١) إنجيل متى: الإصلاح الخامس - ٢٧ - ٤٤ .

(٢) انظر: متى ٥/١٧ .

ورفض — عليه السلام — استخدام القوة حتى دفاعاً عن الدين والحق : فحينما غدر به بهذا الأسى خريوطى ، وجاء معه جمِّعٌ كثُرٌ بسيوفٍ وعصى من عند رؤسائه الكهنة وشيوخ الشعب للقبض عليه وحاكمته استيل بطرس أحد حواريَّي المُسيح سيفه للدفاع عنه وضرب به عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه . فقال له يسوع : « رد سيفك إلى مكانه ، لأنَّ كلَّ الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون » (١) .

إنها في مجموعها قيم روحية خالصة تزعَّج الإنسان من غمرات الواقع المادي الخسيس وتسمو بروحه ، فهو لم يخلق هذه الأرض ، ولكنه خلق « لملوكَ النساء » . وكانت دعوة المسيح عليه السلام — كما ذكرنا من قبل — إلى الزهدة في الدنيا والابتعاد عن أسباب النزاع ، والوقوف على الحياة الروحية ، لأنَّ اليهود الذين جاءَهم المسيح مبشرًا بهذه الديانة بينما كان يغلب عليهم الشهوات المادية ، وكان منهم من يفهم أنَّ الحياة الدنيا هي غاية بني الإنسان . بل إنَّ التوراة التي بأيديهم خلت من ذكر اليوم الآخر ونعيمه أو جحيمه ، ومن فرقهم من كان يعتقد أنَّ عقاب الله الذي أ وعد به العاصين وثوابه الذي وعد به المتقين إنما زمانه في الدنيا لا في الآخرة (٢) .

• • • • •

وبعد فترة طويلة من الرسل تقرب من ستة قرون بعث الله محمدًا عليه السلام خاتماً للرسل والأئمَّاء ، وجاء الإسلام الحنيف خاتماً للأديان ، ونزل القرآن على محمد فكان آخر اتصال بين السماء والأرض .

وهذه الخاتمية في الدين والكتاب والنبوة اقتضت أن تقدم السماء للأرض أبْحَجَ الحلول وأقدرها وأشملها ، حيث لا دين ولا كتاب ولا نبى بعد . ولم يفارق محمد — عليه السلام — الدنيا إلا بعد أن أُعلن بصوت الله « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

لقد رأينا مادية اليهودية ، وإيغال اليهود في « الأرضية والدنيوية » وهو اتجاه مرحلي قد يكون صحيحاً في وقت عاش فيه اليهود يجربون أخطاراً لا تُحصى ابتداءً من اضطهاد فرعون مصر ومطاردته لهم .

وابنها « الروحانية المشالية الخالصة » التي تقدم بها السيد المسيح في عصر الماديات والمال والحسنة ، فكان ذلك رد فعل طبيعي لاتجاه اليهودية واليهود . ولكنه اتجاه مرحلي أيضاً لا يمكن أن تعيش عليه البشرية إلى الأبد . وإن صح أن يكون علاجاً ما الحالات معينة في وقت معين .

(١) متى ٢٦ / ٥٣ ..

(٢) راجع : محاضرات في النصرانية للشيخ أبي زهرة ١٠ .

والوجود لا يمكن أن يتنفس برئـة المادية الـبحث في معـزل عن الـقيم والـمثل العـلـيا ،
وـلا تحولـت المجتمعـات البـشرـية إـلى جـمـوعـة من الغـابـات تـسيـطـرـ عـلـيـها قـوـةـ الـخـالـبـ والأـنـيـابـ ،
ويـكونـ الـصـرـاعـ الدـامـيـ المـتـسـعـ وـسـيـلـهـ الـمـثـلـ لـلـوـجـودـ وـالـبـقـاءـ ، وـيـكـونـ الشـعـارـ المـعـتـنـىـ
الـبـقـاءـ لـلـأـقـوىـ .. لـلـأـصـلـحـ .

كـيـاـ الـوـجـودـ لـاـيـكـ انـ يـتـنـفـسـ كـذـلـكـ بـرـئـةـ المـاثـالـيـةـ الـمـعـنـوـيـةـ الـبـحـثـ : تـجـرـيـةـ كـامـلـةـ منـ
مـادـيـاتـ اـخـيـاـ .. وـرـهـبـانـيـةـ مـسـتـغـرـقـةـ فـيـ مـلـكـوتـ اللهـ مـنـبـتـةـ عـنـ وـاقـعـ الـحـيـاـ وـمـعـانـيـهاـ فـيـ دـنـيـاـ
الـنـاسـ .

وـأـمـامـ هـاـتـيـنـ «ـ الـلـاءـمـكـانـيـتـيـنـ » .. أـمـامـ آـخـرـ فـرـصـةـ لـلـإـنـسـانـ فـيـ اـتـصالـهـ بـالـسـيـاءـ كـانـ لـاـبـدـ
مـنـ وـضـعـ ضـوـابـطـ جـدـيـدةـ وـقـيمـ جـدـيـدةـ أـمـامـ إـنـسـانـ الـقـرـنـ السـابـقـ الـمـيـلـادـيـ (ـ١ـ) .. وـهـذـهـ الـقـيمـ
تـمـشـلـ أـقـوـيـ الـحـلـقـاتـ وـأـخـلـدـهـاـ فـيـ سـلـسلـةـ الـبـنـاءـ الـإـنـسـانـيـ .. وـأـلـفـ نـظـرـ الـقـارـيـءـ إـلـىـ حـقـيـقـةـ
مـهـمـةـ وـهـىـ أـنـ إـلـاسـلـامـ لـاـيـقـلـلـ مـنـ شـأنـ الـقـيمـ الـيـهـوـدـيـةـ وـالـمـسـيـحـيـةـ .. بـالـنـسـبةـ لـكـثـيرـ جـدـاـ مـنـهـاـ
وـخـاصـةـ مـاـيـعـلـقـ بـجـوـاهـرـ الـأـمـورـ :

- (أ) لأنـهاـ قـيمـ رـبـانـيـةـ مـنـ عـنـدـ اللهـ .
- (ب) لأنـهاـ كـانـتـ أـرـقـىـ الـقـيمـ وـأـكـملـهـاـ فـيـ عـصـرـهـ .
- (ج) وأـخـيـراـ لـأـنـ الـسـلـمـ مـطـالـبـ بـالـإـيمـانـ بـهـاـ . ﴿إِنَّمَاَنَّ الرَّسُولَ يُمَارِضُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ
مـنـ رـبـيـهـ وـالـمـؤـمـنـوـنـ كـلـيـاـ إـمـانـ بـالـلـهـ وـمـلـكـيـتـهـ وـكـنـتـيـهـ وـرـسـلـيـهـ . لـاـنـفـرـقـ بـيـنـ
أـحـدـ مـنـ رـسـلـيـهـ﴾ (ـ٢ـ) وـقـدـ وـصـفـ اللهـ .. سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ .. الـتـقـيـنـ بـأـنـهـمـ
﴿الـذـينـ يـؤـمـنـوـنـ بـالـغـيـبـ وـيـقـيـمـوـنـ الـصـلـوةـ وـمـاـ رـزـقـنـهـمـ
يـنـفـقـوـنـ﴾ وـالـذـينـ يـؤـمـنـوـنـ بـمـاـ أـنـزـلـ إـلـيـكـ وـمـاـ أـنـزـلـ مـنـ
قـبـلـكـ وـبـاـ الـأـخـرـةـ هـمـ يـوـقـنـوـنـ﴾ (ـ٣ـ)

(ـ١ـ) ولـدـ مـحـمـدـ .. عـلـيـهـ السـلـامـ .. سـنـةـ ٥٦١ـ مـ وـنـزـلـ عـلـيـهـ الـوـحـىـ وـهـوـ فـيـ سـنـ الـ٤٠ـ عـلـىـ أـرـجـحـ الـأـقـوـالـ .

(ـ٢ـ) الـبـقـرةـ .. ٢٨٥ـ ..

(ـ٣ـ) الـبـقـرةـ .. ٣٤ـ ..

وأخص من ذلك وأدل سبب **إِنَّا أَنْزَلْنَا الْتُّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ**
الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ يُمَا سَتُّحْفِظُهُو مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا
عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَحْشُوْا النَّاسَ وَأَنْخَسُوْنَ وَلَا تَشْرُوْا بِعَايَاتِي ثُمَّنَا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكُفَّارُونَ (١)

ففي هذه الآية الكريمة تصريح بأن التوراة يحكم بها النبيون ومن ضمنهم محمد عليه السلام . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجم يهوديا زانيا اعتمادا على حكم التوراة ، وقيل بل رجم يهوديين عند باب مسجده وذلك أول رجم كان في الإسلام (٢) .

وقد أقرت الشريعة الإسلامية صراحة أحكاما وردت في الشريائع السابقة مثل الصوم

يَتَأَبَّلُ الَّذِينَ إِمَّا تَوْا كُنْبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٣)

وتتصوّر السنة النبوية على أن الأضحية مشروعة في ملتتنا كما كانت مشروعة في ملة إبراهيم – عليه السلام – وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « ضحوا فإنها سنة أبيكم إبراهيم عليه السلام » .

وقد نسخت الشريعة الإسلامية عدة أحكاما كانت في الشريائع السابقة ، ونحن ملتزمون بالابتعاد عنها .

كما أنها ذكرت أحكاما وسكتت عنها – دون إقرار أو رفض – والأرجح عند الفقهاء مشروعيتها بالنسبة لنا . كما جاء في قوله تعالى : **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا آنَّ**
النَّفْسَ يَالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ يَالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ يَالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ يَالْأَذْنِ وَالسِّنَ يَالسِّنَ
وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةً لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ (٤)

(١) المائدة ٤٤ . أسلموا : انقادوا لحكم ربهم . الربانيون : عباد اليهود . الأحبار : علماء اليهود .

(٢) انظر ابن بيه : السياسة الشرعية ١٢٢ والبخاري ١٢٩/٩ كتاب الاعتصام .

(٣) البقرة ١٨٣ .

(٤) المائدة ٤٥ (وانظر حسب الله : أصول التشريع الإسلامي ٩٥-٩٧ .. وانظر كذلك : البرديسي : أصول الفقه ٣٤٣-٣٤٧) .

والرأي الأخير يتفق مع سماحة الإسلام ومرؤنته وخاتميته ، ويتافق مع المقوله الإسلامية الخالدة « الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهى له » وقد ذكرنا أكثر من مرة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أشاد بجلف جاهلى هو حلف الفضول ، وأعلن أنه لودعى به في الإسلام لأجلاب .

ولكن - على الرغم من أننا مأمورون بالإيمان بقيم المسيحية واليهودية التي لا تتعارض مع إسلامنا ولم تنسخ به - أقول على الرغم من ذلك لم تعد القيم اليهودية بماديتها أو القيم المسيحية بروحانيتها قادرة على تشكيل الإنسان المتفاعل مع الحياة بعد أن تخطت البشرية مرحلة طفولتها الأممية .

إنسان اليهودية .. أرضى ترابى مادى يتعامل مع الآخر بين بنطاق القوة والحساب المادى فى سبيل تحقيق النفع العاجل على المستويين الفردى والجماعى ، حتى جزاؤه أرضى ، والآخر .. ملکوت الله لم تذكر في التوراة مرة واحدة .

وإنسان المسيحية يحمل قائمة من القيم الملائكية: سمو .. سمو روحي مخلق وزهادة في دنيا الناس .. فالمهدف ليس هنا ، والغاية المنشودة ليست في الأرض ، ولكنها هناك في ملکوت السماء .

وانهى الحال بإنسان اليهودية إلى عبادة المادة من دون الله .

وانهى الحال بإنسان المسيحية إلى الاصطدام بالفطرة الإنسانية التي من مسلماتها أنه « بالروحانيات والمثل فقط لا يعيش إنسان .. تماما كما أنه بالمادة فقط لا يحيا البشر » ..

من هنا كان لابد من مفهوم جديد للإنسان الذى يدب على الأرض ويعمر هذا الوجود وكان نسيج الإنسان من المنظور الإسلامي « مادة وروح يشكلان مخلوقا حيا أكرمه الله بنعمه العقل » وهوتعريف يخرج الجماد لأن مادة بلا روح وبلا عقل .. ويخرج الحيوان لأن مادة وروح بلا عقل .. فكان العقل هوقة التكريم للبشر ابتداء من الإنسان الأول :
لقد خلقه الله من « مادة » الطين ونفع فيه من « روحه » وكرمه « بالعقل » الذى وعىحقيقة الأشياء اسمها وسمى ... والعقل هو الذى كفل له أن يكون « خليفة » الله فى أرضه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَيْحُ بِحَدِيثِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وعلمه آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة

فَقَالَ أَلِيُّوْنِي بِاسْمَاءَ هَتْوَلَاءَ إِنْ كُنْتُ صَدِيقَنِ^(١) قَالُوا سَبَحْدَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا
إِلَّا مَا عَلَمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ^(٢) قَالَ يَسْتَغْدِمُ أَنْتُهُمْ بِاسْمَاءَ يَوْمِ فَلَمَّا
أَنْبَاهُمْ بِاسْمَاءِ يَوْمِهِمْ قَالَ اللَّهُ أَكْلَ لَكُمْ إِذِي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاعْلَمُ
مَا تُبَدِّدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ^(٣)

(١) *بِاسْمَاءَ هَتْوَلَاءَ*

هذه هي قصة آدم عليه السلام في القرآن ، هي قصة الإنسان الأول : خلق من تراب ، وارتقي بالخلق السوى إلى منزلة العقل والإرادة ، وتعلم من الأسماء فضلاً من العلم ، ميزة على خلائق الأرض من دى حياة ، وغير ذى حياة ، وقضى له أن يكسب فضيله بجهده ، وأن يكون جهده غلبة لإرادته وانتصاراً لعقله على جسده (٤) ..

ولكن لنترك قصة آدم عليه السلام — بما فيها من « خصوصيات » — وقفها الله عليه في الخلق ولم تذكر مع غيره ، لنتذكر إلى « الإنسان البشر » في كل زمان ومكان لنرى تكرر تكرر الله له بالحواس — لا لذاتها — ولكن بقدر ما توصل صاحبها إلى طريق الفهم والابتداء والتقوى والصلاح .

(٢) *أَلِمْ يَجْعَلَ لَهُ عَيْنَيْنِ^(٥) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ^(٦) وَهَدَيَنَاهُ النَّجَدَيْنِ^(٧)*

وبالنظر العاقل والمنطق المبين يعيش الإنسان ويهتم ويبدع ، نعم : لقد جعل له من الحواس ما يهديه في عالم الحسوسات : جعل له عينين على هذا القدر من الدقة في تركيبيها وفي قدرتها على الإبصار وميزة بالنطق وأعطاء أداته المحكمة لساناً وشفتين ثم أودع في نفسه خصائص القدرة على إدراك الخير والشر والمهدى والضلال والحق والباطل : وهديناه التنجذيب ليختار أيها شاء ، ففي طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أي النجذفين (٨) .

وإذا لم تستطع الحواس أن ترفع بالحقيقة الإنسانية في نفس الإنسان ، وتكون وسائل « لتحصيل العلم » والوصول إلى اليقين والمهدى والإيمان فوجودها كعدمها سواء . بل إن الإنسان في هذه الحالة يكون أحاط مكانة من البهائم لأن البهائم تستخدم حواسها بأقصى طاقتها حفاظاً على بقائها ، أما هو فقد عطل حواسه التي أنعم الله بها عليه لاستعمالها

(١) البقرة - ٣٠ - ٣٣ . يسفك الدماء : يربها عدونا . نسبع : نزهك عن كل سوء ونقضي نفس لك : نظهر لك ذكرك عما لا يليق بك .

(٢) العقاد : الإنسان في القرآن الكريم ص ٦٦

(٣) البلد : ٨ - ١٠

(٤) قطب : ٦ / ٣٩١٠

كصاحب رسالة كرمه الله باستخلافه عنه في الأرض ، ومقاييس العقل إذا ما عطلت طاقته عن الخير؟ وما قيمة العين إذا لم تبصر طريق المدى؟ وما قيمة الأذن إذا لم تصح لصوت الحق واليقين؟ **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ وَلَقَدْ ذَرَنَا بِهِمْ كَثِيرًا مِنْ أَلْجَنَ وَالْأَنْسَ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَقْعُدُهُنَّ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبَصِّرُونَ بِهَا وَلَهُمْ إِذَا نَأَيْنَا لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أَوْلَئِكَ كَلَّا لَا نَعْلِمُ بِهِمْ أَضَلُّ أَوْلَئِكَ هُمُ الْغَنِيَّلُونَ** (١)

وفي كتب الأديان الكبرى إشارات صريحة أو مضمنة إلى العقل أو إلى التبييز ولكنها تأتي عرضا غير مقصودة ، وقد يلمح فيها القارئ بعض الأحاديث شيئاً من الزراية بالعقل أو التحذير منه لأنه مزلة العقائد وباب من أبواب الدعوى والإنكار.

ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتبييز إلى وجوب العمل به والرجوع إليه . ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية ، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة . وتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحيث فيها المؤمن على تحكيم عقله ، أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه . ولا يأتي تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التي يشرحها النفسيانيون من أصحاب العلوم الحديثة ، بل هي تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها ، وتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص في مواطن الخطاب (ومناسباته ، فلا ينحصر خطاب العقل في العقل الواقع ، ولا في العقل المدرك ، ولا في العقل الذي ينطاط به التأمل الصادق والحكم الصحيح بل يعم الخطاب في الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الإنساني من خاصة أو وظيفة وهي كثيرة ... إذ هي جيماً ما يمكن أن يحيط به العقل الواقع والعقل المدرك والعقل المفكر الذي يتولى المعاونة والحكم على المعنى والأشياء) ..

وهذا المفهوم الشامل للعقل دعا الإسلام إلى النظر وإلى التفكير والتأمل ، ونعني على الذين لا يفكرون ولا يتأمرون خلق الله ولا يعملون عقوفهم خلوصاً إلى اليقين : **رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْمُؤْمِنِينَ وَرَبِّ الْأَنْفُسِ كُمْ أَفَلَا تُبَصِّرُونَ** (٢)

(١) الأعراف ١٧٩ . ذرنا : خلقنا وأوجتنا

(٢) العقاد : التفكير فريضة إسلامية ٥

(٣) الذاريات ٢٠ - ٢١

سُبْحَانَ اللَّهِ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلْكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ آفَتَهُمْ فَيَأْتِي حَدِيثٌ يَعْدُهُ يُؤْمِنُونَ (١)

سُبْحَانَ اللَّهِ أَوَلَمْ يَنْفَكِرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِيقَةِ
وَأَجَلٌ مُسَمٌ لِّكُلِّ شَيْءٍ (٢)

سُبْحَانَ اللَّهِ قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَقَرَادَى مَا يَصَاخِبُكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنَّهُ أَنَّهُ لَكُمْ بَيْنَ يَدِيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٣)

وفي عشرات من الآيات القرآنية بل في مئات منها تتكرر لفظة (العقل) وما ارتبط بها من ألفاظ الفقه والعلم والتفكير على النحو التالي :

- (أ) (عقل) ومشتقاتها (عقوله — تعلقون — تعقل الخ) .. ذكرت ٤٨ مرة .
 - (ب) (علم) ومشتقاتها (علم — يعلم — يعلمون الخ) ذكرت ٨٦٦ مرة .
 - (ج) (فقة) ومشتقاتها (تفقهون — تفقه — يفقهوا — يفتقهوا .. الخ) .. ذكرت ٢٠ مرة .
 - (د) (فكراً) ومشتقاتها (فكر — تتفكر — يتذكرة .. الخ) ذكرت ١٨ مرة ..
 - (هـ) (قرآن) ومشتقاتها (قرأ — اقرأ — قرآن .. الخ) ذكرت ٨٧ مرة ..
 - (و) (وعي) ومشتقاتها (تعيها — أوعي — واعية .. الخ) .. ذكرت ٤ مرات .
- وبجمعه هده « الموارد » التي ذكرتها ثلاثة وأربعون ألف لفظة وكلها تدور على تقدير القرآن للعقل والنظر والتفكير .
- والمواد التي عرضناها هي المواد المباشرة . وهناك مئات من الألفاظ تدور حول العقل والتفكير بصورة غير مباشرة لم نعرض لها .
- هذا هو عنصر العقل في الإنسان : موقف القرآن منه ، والطريقة المثلث لإشباعه من منطق الإيمان والتفكير في خلق الله ، وتحصيل العلم واستغلال قدراته وطاقاته في البناء والإبداع .

• • • •

(١) الاعراف ١٨٥

(٢) الروم ٨

(٣) سباء ٤٦ . جنة : جنون

وثانى الشالوث فى النسيج البشرى هو الجسد ... والجسد هو الكيان المادى الذى بنى على الغرائز: غريزة حب البقاء .. غريزة التلوك .. غريزة الوالدية .. غريزة المقاتلة... الغريزة الجنسية ... الخ .. والغريرة هى العنصر المشترك بين أفراد النوع الواحد وهى ميل فطرى يدفع الكائن الحى إلى العمل فى اتجاه معين تحت ضغط حاجاته الحيوية وهى بطبيعتها تتطلع إلى الإشباع .

وأغلب هذه الغرائز تدور حول حاجتين : حاجة الفم أو البطن للطعام والشراب ، وحاجة الجنس لكسر الشهوة وهو طريق لحفظ النوع .
والإسلام لم يذكر مكان هاتين الشهوتين أو الحاجتين في النفس الإنسانية ..

١- فحل المشكلة الأولى ببابحة الطعام والشراب من طيبات مارزق الله اعتماداً على العمل الشريف **سُبْحَانَ اللَّهِ وَقُلْ آتَيْنَا فَسِيرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ** (١) والعمل يجب أن يكون حلالاً : حلالاً في مادته وبضاعته : فلا عمل مشروع بالاتجار في الخمر أو لحم الخنزير أو أغراض الناس . كما يجب أن يكون حلالاً في كيفية التكسب من ورائه : فلا غش ولا استغلال ولا ربا ولا كذب «

سُبْحَانَ اللَّهِ وَأَحَدُ اللَّهِ أَنْتَ وَحْدَكَ وَرَبُّ الْرِّبَّوْنَى (٢)

فإذا ما كان بالمؤمن عجز أو فاقة فهناك التكافل الاجتماعى بأروع صوره ، ومن مظاهره الزكاة والصدقة .

٢- وحل المشكلة الثانية بالزواج : فالزواج هو الحال الجذرى لمشكلة الجنس ، وكان الزواج في المجتمع الإسلامى الأول - حيث حسنت التوابيا وظهرت القلوب وسمت الأخلاق - أمراً ميسراً لم تدخله تعقيدات المدنية وفلسفاتها المتعففة .

فإذا ما عجز المسلم عن الزواج ليس بسبب ما فهناك إعلاء الغريرة أو السمو بها بالعبادة والصوم على حد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معاشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحسن للفرح ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » (٣) ..

• • • •

والروح هي العنصر الثالث الذى يستكمل به البناء الإنساني بعد العقل والجسم .. إنها الطاقة الغيبية الحقيقة الحية التى تعتبر بالإجماع سر حياة الكائن البشرى ، بل سر حياة كل

(١) التوبة ١٠٥ .

(٢) البقرة ٢٧٥ .

(٣) البخارى ٣/٧ (باب النكاح) . وجاء (بكسر الواو) أى كاسر الشهوة ..

كائن حى .. ومها قال العلماء فيها أثناء الحياة وبعد الموت فهى مازالت سرا غامضا ..
وستبقى سرا غامضا لأن الله سبحانه وتعالى اختص نفسه بها ..

﴿ وَيَسْعَلُونَكَ عَنِ الْرُّوحِ قُلِ الْرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّكَ ﴾ (١)

وكما أن إشباع العقل يكون بالعلم والاختراع والكشف .
وكما أن إشباع حاجتى البطن والفرج يكون بالطعام والشراب والزجاج .
كان لابد من إشباع الروح حتى لا يختزل توازن هذا الثالوث الإنساني . وإشباع الروح في
الإسلام لم يأت على حساب العقل والجسد ، ولكنكه أتى ليأخذ مكانه في حيزه المعد له
فلا يختزل البناء الإنساني ويغيب الميزان لغير صالح الفرد وغير صالح الجماعة .
فكم دعا القرآن إلى النظر والتأمل وإعمال العقل :

وكما دعا إلى التمعن بطيبات الحياة من طعام وشراب وزينة .
أمرنا الله كذلك بأن نغرس في نفوسنا الإيمان بالله ، وأن نحيي أرواحنا بالثقة : الثقة بالله
والثقة بالدين والثقة بالنفس إلى أبعد مدى . يقول الله سبحانه وتعالى

﴿ لَا يَلِفِ قَرِئْشٌ إِلَّا لَفِيهِمْ رِحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصِّيفِ ﴾ فَلَيَعْبُدُوا
رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٢)

وهذه الكلمات العلوية الموجزة تجمع بين النوعين من الإشباع : إشباع الحاجات
المادية ، وإشباع الحاجات النفسية أو الروحية .

إشباع الحاجات المادية مثلت له الآيات بالإطعام من الجوع . والإطعام هنا مذكور على
سبيل التشليل لا الحصر ، فالآلية تتسع لنعمة الله في إشباع كل الحاجات المادية الأخرى :
ك حاجة الإنسان للرئي من عطش والزواج لحفظ النوع ، والحماية من الحر والبرد بالملابس
والسكن . وهو تفسير يؤيده واقع هذا الإنعام من الله . سبحانه وتعالى - على عباده مؤمنهم
وكافرهم **﴿ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾** (٣)

أما إشباع الحاجات المعنوية أو النفسية فقد مثلت له الآية بالتأمين من الخوف . وهي
نعمـة كسابقتها مذكورة على سبيل التشليل لا الحصر . والخوف هو آفة المشاعر النفسية كلها ،

(١) الإسراء . ٨٥

(٢) رسالة قرئين (٤-١) . لإيلاف قريين : جعلهم آلفين الرحلتين : رحلة الشتاء إلى اليابس ورحلة الصيف إلى الشام

(٣) إبراهيم . ٣٤

والخائف المفروع لا يهنا له طعام ، ولا يلذ له شراب ، ولا يسعد بمبيس أو مسكن (١) ..

ولكن كيف يأمن الإنسان من الخوف ؟ وكيف يتأنى له أن يكون قوى الروح صلب النفس ؟ إن أصل كل أولئك، ومفتاحه في « عبادة رب هذا البيت » .. في الإيمان العميق .. العميق بالله سبحانه وتعالى .. بحيث يصير المؤمن من فئة ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَأَخْشَوْهُمْ فَزَادُوهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهَ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (٢)

إن قمة الإيمان بالله ، هي نفسها قمة العبودية له ، هي نفسها قمة العزة أمام البشر ، هي نفسها قمة النصر والغلبة على كل من يتصدى للمؤمنين .

نعم : حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حسب ولا كفاية إلا لله وبالله ، وعلى ذلك الاختصاص .. اختصاص الله بالحسب والكافية ، كان استعمال الكلمة في المعجم القرآني :

﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَجْدِعُوكَ فَإِنَّ حَسِبَكَ اللَّهُ ﴾ (٣)

﴿ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ حَسِبُكَ اللَّهُ وَمَنْ أَتَبْعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤)

﴿ وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهَ سَيُؤْتِنَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾ (٥)

﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسِبُهُ ﴾ (٦)

والإيمان بالله لا يمنع المؤمن شجاعة وقدرة فحسب ، ولكنه يمنحه الطمأنينة والقرار

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطَمَّئِنُ قُلُوبُهُمْ يَذْكُرُ اللَّهَ أَلَا إِذْ كَرِّ اللَّهِ تَطَمَّئِنُ الْقُلُوبُ ﴾ (٧)

(١) يقول العلامة ولـ ديرانت في كتابه (قصة الحضارة ٤) والحضارة تبدأ حيث ينبع الاضطراب والقلق ، لأنه إذا أمن الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع وبعدئذ لا تتفكر الموارف الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وإذهاها ج (١) ص (٤) .

(٢) آل عمران ١٧٣ .

(٣) الأنفال ٦٤ .

(٤) الأنفال - ٦٤ : واتساقا مع النهج القرآني في قصر الحَسْب والكافية على الله سبحانه يكون المعنى (حسبك الله وحسب من معك من المؤمنين) خلافاً لمن ذهب إلى القول بأن المقصود (الله والمؤمنون هم حسبك) ولا بن القيم بحث لطيف في الآية (انظر زاد المعاذ ٦/١)

(٥) التوبة ٥٩

(٦) الطلاق ٣

(٧) الرعد ٢٨

واطمئنان القلب لذكر الله ليس حصيلة روحية فحسب ، ولكنها حصيلة منطقية أيضاً .
فما ذكر الله ؟ إنه استشعار وجود الله في النفس والضمير والوجودان ، في الصلاة والصيام
والقيام واليقظة والنام والنشط والمكره والسراء والضراء .. إنه يشمل كل هذه الأعمال
والماواقف ^(١) . والله هو القوى المتعال ، وهو القوى القهار الجبار .. وهو نعم المولى ونعم
النصر .

وذكر المؤمن الله يعني استشعاره لله سبحانه بكل هذه الصفات التي تتضاعل أمامها كل
قوى البشر ... من هنا تأتي الطمأنينة نتيجة منطقية لهذا الشعور الإيماني ، فالإنسان بالإيمان
ساند ظهره إلى جدار من السموات والأرض مُخْتَبِئ بقوانيتها ، سائر دأباً في صف جندهما ،
شاعر أنه قوة خادمة للإلهية ، عاملة للتعمير وإقرار الحياة فيها ، فاهم أنه قيوم صغير نائب عن
القيوم الأكبر تتجدد فيه الحياة ، ويتدفق فيضها المستمر الذي يحيا به مع كل
الحيوات ^(٢) .

والإيمان بالله يمنح الروح طاقة قادرة على الصمود أمام كوارث الحياة ، وهو في حالتي
احتتمالها ووقعها ثابت لا يهز ، قوي لا يقهر . ولا يتقهر ، لأن من مقتضيات الإيمان التسليم
قولاً وعملاً بقاعدة أزلية ربانية هي ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ ^(٣) .

والإيمان بالله يعطي المؤمن - كما ألمحنا - نفقة بالنفس واعتزاها بها واستعلاء على صغار
الحياة وصغار الأحياء ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا كُنَّا مُنْتَفِقِينَ
لَا يَعْلَمُونَ﴾ ^(٤) . والمؤمن بالله لا يعرف المهانة والذلة ولا يستسلم للضعف والحزن

﴿وَلَا تَهْمُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ^(٥)

والإيمان بالله ببلوازمه ومقتضياته العملية في القول والفعل هو معيار الأفضلية بالنسبة
للفرد ، ومعيار الأفضلية بالنسبة للأمة **﴿كُمْ خَيْرٌ أَمْ أَخْرَجَتِ النَّاسَ تَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾** ^(٦) .

• • • • •

(١) قد يؤيد هذا التفسير أن الله سبحانه وتعالي فرق بين الصلاة وذكره في قوله « ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة » فذكر الله أعم وأشمل من الصلاة وهي جاءت بعده من قبيل ذكر الخاص بعد العام لتعظيم هذا الخاص وبيان
أهمية .

(٢) عبد المليم خلاف : المقل المؤمن ١٢٨

(٣) التوبة ٥١

(٤) المنافقون ٨ .

(٥) آل عمران ١٣٩ .

(٦) آل عمران ١١٠ ..

العقل والروح والجسد .. هي النسيج المادي والمعنوي للإنسان الذي كرمه الله على سائر الخلوقات وجعله خليفة في الأرض ، فمن حقه بل عليه أن يأكل ويشرب ويتزين ويتزوج «يا أيها الذين آمنوا كُلُوا من طيبات مارزفناكم» (١) . حتى، الآباء الذين أكرمهم الله برسالته أمرهم الله بما أمر به المؤمنين ، فقال تعالى ﴿يَأَيُّهَا الْرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الظَّبَابَاتِ وَاعْمَلُوا صَدِيقًا﴾ (٢)

ومن حقه - بل عليه - أن يستخدم عقله في تعامله مع مجتمعه وتعامله مع الطبيعة وتعامله مع نفسه ، والعلم هدف يجب أن يحرص عليه ، والعلم وسيلة يجب أن يتبعها لبناء نفسه وبناء مجتمعه والعمل لصالح المسلمين ..

ومن حقه - بل عليه - أن يحرص على المثل العليا والقيم الأخلاقية الراقية وأن يحرص على الالتزام بالفراش والعبادات ..

والطابع العام أو الضابط المهيمن على هذه العناصر الثلاثة العقل والروح والجسد الضابط الذي يتحقق «الاتساق» أو «الهرمونية» بينما هو الاعتدال في المشاعر والأقوال والأفعال .. هو الوسطية العادلة بلا إفراط أو تفريط .. بلا إسراف أو تقدير .. وهذا مانص عليه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أَمَةً وَسَطَا لَنَا كُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (٣) يقول الإمام محمد عبده «الوسط هو العدل والخير ، وذلك أن الز يادة على المطلوب في الأمر إفراط ، والنقص عن تفريط وتقدير ، وكل من الإفراط والتفرط ميل عن الجادة القوية ، فهو شر ومذموم ، فالخير هو الوسط بين طرفي الأمر أي المتوسط بينهما والمسلمون خيار وعدول لأنهم وسط ليسوا من أرباب الغلوف الدين المفترضين ولا من أرباب التعطيل المفترضين ، فهم كذلك في العقائد والأخلاق والأعمال .

ذلك أن الناس كانوا قبل ظهور الإسلام على قسمين : قسم تقضى عليه تقاليده بالمادية الحضرة فلاهم له إلا الحظوظ الجسدية كاليهود والمشركين ، وقسم تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة وترك الدنيا وما فيها من اللذات الجسمانية كالنصارى والصابئين وطوائف من وثنى الهند أصحاب الرياضيات .

(١) البقرة ١٧٢ .

(٢) المؤمنون ٥١ .

(٤) البقرة ١٤٣ . ومن أبلغ الكلم في «وسطية الإسلام» قول الإمام على كرم الله وجهه «.. اليهود والتمال مضلة ، والطريق الوسطى هي الجادة ، عليها باقي الكتاب وأثار النبوة ، ومما من بعد السنة ، وإليها مصير العاقبة . هلك من أدعى ، ونحاب من افترى ...» نهج البلاغة ٤٣ ..

وأما الأمة الإسلامية فقد جمع الله لها في دينها بين الحقين : حق الروح وحق الجسد فهي روحانية جسمانية ، وإن شئت قلت إنه أعطاها جميع حقوق الإنسان ، فإن الإنسان جسم روح ... حيوان وملك^(١) ..

ومن منطلق هذه الوسطية الأخلاقية نهى القرآن عن البخل لأنه تفريط في حق النفس وحقوق الآخرين ، كما نهى عن التبذير لأنه إفراط وإسراف في الإنفاق يؤدي إلى الضرر

سُبْحَانَ اللَّهِ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ آثْبَطٍ فَتَقْعُدْ مَلُومًا

سَمِعْرَا

وهذه الوسطية العادلة صفة من أهم صفات المؤمنين ... عباد الرحمن

سُبْحَانَ اللَّهِ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا مِمْْبَارَهُمْ يَقْرُبُونَهُ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً

وف الصلاة كذلك **ع**

سُبْحَانَ اللَّهِ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا

وال المسلم مطالب بالاعتدال في العاطفة حبا وكراهية فلا يغلو في الحب ولا يسرف في الكراهية ، عملا يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام « أحبب أخاك هونا ما عسى أن يكون عدوك يوما ما ، واكره عدوك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما » .

وال المسلم مطالب بالتفوييق بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، بين مطالب الآخرة

ومطالب الدنيا **سُبْحَانَ اللَّهِ وَابْتَغِ فِيمَا أَتَنَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**

وَأَخْسِنْ كَمَا أَخْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِي الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ

• • •

ولكن هل كان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ نفسه بهذه القاعدة : قاعدة الوسطية العادلة في هذه الأمور؟

نـى حديث للسفيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى حتى انتفخت قدماه . وفي رواية أخرى أنه كان يصلى حتى ترمـ قدماه . فقيل له أتكلـ هذا وقد غـ لك ما تقدم من ذنبـك وما تـ خـرـ قال : أـفـلا أـكـونـ عـبـداـ شـكـورـاـ؟

(١) المـارـ ٤/٢ .

(٢) الإـسـراءـ ٢٩ .

(٣) الـقـرـآنـ ٦٧ ..

(٤) الإـسـراءـ ١١٠ ..

(٥) القـصـصـ ٧٧ ..

— وقالت عائشة — رضي الله عنها — كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ديمه ، وأيكم يطيق ما كان يطيق ؟

— وقالت : كان يصوم حتى نقول : لا يفطر ، ويفطر حتى نقول : لا يصوم (٠) .

— وعن عوف بن مالك — رضي الله عنه — كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن ثم توضأ ، ثم قام يصلى فقدمت معه ، فبدأ فاستفتح البقرة : فلا يمربأية رحمة إلا وقف فسأل ، ولا يمربأية عذاب إلا وقف فتعوذ ، ثم رکع بقدر قيامه يقول : سبحان ذي الجبروت والملائكة والكربياء والمعظمة ثم سجد وقال مثل ذلك ، ثم قرأ آيات عمران ثم سورة سوره يفعل مثل ذلك ..

— وعن حذيفة — رضي الله عنه مثله . وقال : سجدنُوا من قيامه ، وجلس بين السجدين تكروا منه . وقال : حتى قرأ البقرة وأآل عمران والنمساء والمائدة ..

— وعن عبدالله بن الشخير — رضي الله عنه — أتيت رسول الله عليه الصلاة والسلام — وهو يصلى وجلوته أزيد كأزيد الرجل .

— وقال ابن أبي هالة — رضي الله عنه — كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة (١) .

صورة ملائكية شفافة مضيئة مشرقة ، تمثل قمة السلوك الإنساني الرباني ، فالنبي صلى الله عليه وسلم — فيما أوردهنا يقسم على نفسه كل القسوة وينتصر للروح على حساب راحته ومطالب حياته وجسمه . والله سبحانه وتعالى يقول :

وَمَا أَنْذَكْمُ أَرْسُولَ فَخُدُوهُ وَمَا نَهَكْمُ عَنْهُ فَأَنْتُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ (٢)

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة (٣)

فإذاً كنا مطالبين بطاعة الرسول والاقتداء به في عمله وخلقه وعبادته ، وكان مسلكه عليه السلام بالصورة التي رأيناها ، وهذا قليل من كثير أو قطرة من محيط — إذا كان الأمر كذلك فأين « الوسطية العادلة » في هذه الأعمال وكلها كما رأينا مثالية لا تدرك ؟ ومن الصعب .. إن لم يكن من المستحيل قيام العباد والتزامهم بها .

(٠) أي يصوم ويتطول صيامه حتى يخلي المسلمين أنه صوم وضائع . أما قوله : ويفطر حتى نقول لا يصوم فتفصيده أنه يتناول في الإفطار طعاماً قليلاً كافية من لايتنى الصيام .

(١) ارجع إلى الشنا للقاضي عياض الجزء الأول — ٢٨٥ — ٢٨٨ .

(٢) المشر ٧ .

(٣) الأحزاب ٢١ .

ودفعاً لهذه الشبهة أو هذه الخاطرة نقول: إن ماصدر عن النبي عليه السلام - وأشارنا إلى بعضه وهو غاية لا تدرك - إنما صدر من « مقام النبوة » .. من « النبي محمد » لا من محمد النبي ^(١) . وهذه المثالية التي لا تدرك « خصوصية » من خصوصياته والأمة غير مطالبة بأداء مادل الدليل على أنه خاص به كوجوب تجده بمقتضى قوله تعالى « ومن اللئيل فتنهج به نافلة لك » ^(٢) وجواز مواصلة الصوم ، وقد نهى غيره عنه وقال « وأيكم مثلني؟ إنني بيت يطعمني ربي ويستقيني » ^(٣) ..

وشدد النبي عليه السلام - في نهي أصحابه عن الاقتداء به في هذه الخصوصيات أو هذه المثاليات النبوية : « فعن عبد الله بن عمرو قال : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال : ألم أخبرك أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟ قلت : بلـي . قال : فلا تفعل قم ونم ، وصم وأفطر فإن بحسبك عليك حقا ، وإن لم يلتفت إليك حقا ، وإن لزورك (زائرك) عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإنك عسى أن يطول بك عمر ، وإن من حسبي أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، فإن بكل حسنة عشر أمثالها ، فذلك الدهر كله . قال فشددت فشدد على . فقلت فإني أطيق غير ذلك . قال فصم صوم نبي الله داود . فقلت : وما صوم نبي الله داود؟ قال نصف الدهر » . ^(٤)

وكان عليه السلام يغضب إذا ما طلب المسلمين « مزيداً » من التكاليف أو شدیداً من الأمر حرصاً منهم على مزيد من الثواب ، أو تقريراً لمكانتهم عند الله : قالت عائشة - رضي الله عنها - كان رسول الله - عليه السلام - إذا أمرهم .. أمرهم من الأعمال بما يطيقون ، قالوا إنا لسنا كهيئة يارسول الله ، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول : « إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا » ^(٥) ..

• • • • •

هذه هي الطبيعة الحقيقة للمثالية الإسلامية ، فهي مثالية واقعية إن صحت هذا التعبير أو هي واقعية مثالية لأن الحق بعيداً عن معاناة الأرض ودنيا الناس ، ولا تنفس في الحمأة المنكودة وشهوانية المادة الصباء « والأخلاق الحقيقة هي التي تضع الضمير الإنساني في وضع متوسط بين « المثالى » و « الواقعى » وتجعله يدمج بينهما ، وهذا الدمج يؤدي إلى تغيير مزدوج في كليهما : ففي عالم الواقع يحدث جديد .. هو الاتجاه نحو الأفضل . كما أن القاعدة

(١) صاحب هذا التفريق هو المرحوم عباس العقاد في كتابه « عبرية الصابرين » .

(٢) الإسراء ٧٩ . فتجده : فصل في نافلة لك : فريضة زائدة خاصة بك .

(٣) انظر حسب الله : أصول التشريع الإسلامي ٤٩ . وانظر الحديث يتمامه في البخاري ١١٩/٦ كتاب الاعتصام ..

(٤) البخاري : ٣٩/٨ (كتاب الأدب - باب حق الفيف) .

(٥) البخاري : ١١/١ (كتاب الإيمان) ..

المثالية هي الأخرى باحتكاكها بالحقيقة الحسية تعدل نفسها لتلائم الواقع ، فإذا احتمم النزاع بين واجبين .. فقد يتبعين أن يخلع أحدهما السبيل أمام الآخر ، أو تختم طبيعة العلاقات المركبة بين الأشياء إيجاد نوع من التوفيق بينهما ، أو يسمح المخالب غير المحدد من القاعدة باختيار حريةؤكد إنسانية الإنسان .

وهكذا نرى أن الإلزام الخلقي يستبعد « الخضوع المطلق » مثلما يستبعد « الحرية الفوضوية » ويضع الإنسان في موضعه الحقيقي بين « المادة الصرف » و « الروح الصرف » (١) .

وهذه الوسطية العادلة « للقيم الإسلامية تعد عملية « توفيق » دقة جداً بين « الأعلى » و « الأرضي » وهو توافق ضروري — كما ذكرنا مراراً — لحياة القواعد الأخلاقية وحيوية الالتزام بها ، لأنه إذا حدث « انفصام » بين « العلوى » و « الأرضي » بين المثال والواقع ، فقد المثال قيمته العملية ، وأصبح الواقع يتخطى بلا مرشد أو ضابط « فلا الصيغة الجبردة لقاعدة عامة ، ولا التحليل الدقيق للحالة الخاصة — معزولاً كلامها عن الآخر يكفي هداية إرادتنا ، وإنما هو .. تركيب « المثل » الشامل القادم من أعلى مع « الواقع » الراهن الذي ليس سوى إيضاح وبيان حتى يوجد الدليل الممتاز لضميرنا ، فين المثل الأعلى والواقع ، بين المطلق والنسيبي ، يوجد الضمير الإنساني علامة توحيد يجب أن يستمر في التقرير بين هذين الطرفين ، بأن يؤكّد رابطة ما بينها في صورة العمل الذي يولد من اقترانها السعيد ، ويرتدي هذه الصفة المزدوجة التي يمثلها في وقت ثبات القانون الأزل ، وجدة الإبداع الفني » (٢) .

فالعملية إذن عملية « توفيق » لا « تلفيق » والفرق بينها كالفرق بين الطبيعى المنسجم الأجزاء ، والافتعالى الذى قد يدل بظاهره على « توافق » ولكنه في الواقع يفتقر إلى عنصر التفاعل الحقيقي بين جواهره وجزئياته .. وفي التوفيق يراعى التنااسب العملى بين العناصر المادية والروحية والتعلقية تبعاً لمقتضيات الحال في نطاق الحدود الشرعية. أما التلفيق فلامراعاة .. المهم فيه المظهرية ولو بالتعسف والتعتن . وبسبب هذه الفروق الهائلة بين التوفيق والتلفيق كانت الفروق هائلة بين « العمل الناتج » عن كل منها : فنتائج التوفيق عمل يتسم بالصدق في المظهر والمخبر ، ونتائج التلفيق عمل قد يبهر بمظهره ولكنه في حقيقته خواء ... لا يحمل دلالة نفسية على تقوى أو صلاح .. ومن أمثلة أعمال « التلفيق » أن رجلاً وجد تمرة ملقاة في شارع من شوارع المدينة ، فرفعها بيده وصار ينادي بأعلى صوته « يامن

(١) من تقديم د. السيد محمدى بدوى لكتاب (دستور الأخلاق فى القرآن) ٩. هـ

(٢) دراز: دستور الأخلاق فى القرآن ١٢٦ .

ضاعت له نمرة؟! يامن ضاعت له تمرة؟! فصر به عمر بن الخطاب بدرته وقال له « كلها يا صاحب الورع الكاذب ». .

نعم يا صاحب الورع الكاذب ... فالمثالية هنا لم تتلمس تلبسها الحقيقى « بالعمل » المعروض ... والطاقة المبذولة هنا لا « تتناسب » مع طبيعة العمل وقيمه . لذلك كانت وسطية الإسلام عادلة ... وعددها في كون صورتها التطبيقية جاءت « توفيقا » لا « تفيفيا » ..

• • • •

ثالثاً : الهيمنة التشريعية

وأقصد بهذه السمة أن كل قاعدة من قواعد الشريعة الإسلامية لها طابعها الأخلاقي ، ووراءها الدافع الإنساني سواء أكانت قاعدة من قواعد المعاملات أو من قواعد العبادات أو من قواعد الحدود ، وقبل أن نفصل القول في هذه السمة علينا أن نذكر ونتذكرة أن الإسلام لا ينظر إلى الشكل والظاهر ولكن ينظر إلى الجوهر والخبر ، ومن ثم كان للنية الاعتبار الأول في تكيف الأعمال والحكم عليها :

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال «إِنَّمَا الأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَانُويٌّ، فَمَنْ كَانَ هَجَرَهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهُوَ هَجَرَهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَ هَجَرَهُ لِدُنْنَا يَصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةً يَتَزَوَّجُهَا فَهُوَ هَجَرَهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» (١) ..

يقول الذهلوi : اعلم أن النيّة روح العبادة جسد ، ولا حياة للجسد بدون الروح . والروح لها حياة بعد مفارقة البدن ، ولكن لا يظهر آثار الحياة كاملة بدونه ، ولذلك قال تعالى

فَلَمَّا لَّمْ يَنْسَأِ اللَّهُ لِحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنْسَأِ اللَّهُ أَلْتَقَوْيَ مِنْكُمْ (٢)
وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم "إِنَّمَا الأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ" . وشبه النبي صلى الله عليه وسلم في كثير من الواضع من صدقته نيته - ولم يتمكن من العمل لمانع - بن عمل ذلك العمل كالمسافر والمريض لا يستطيعان ورداً واظبا عليه فيكتب لهما ، وكصادق العزم في الإنفاق وهو ملق يكتب كأنه أنفق » (٣) ..

فقيمة العمل إذن الحكم عليه .. يكون بالنية المصاحبة له ، أي بالدافع أو الباعث الذي دفع صاحبه إليه : وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم - عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حية ويقاتل رباء : أى ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (٤) .

(١) المخاري ١/٢١ (كتاب الإيمان) ..

(٢) الحج ٣٧ ..

(٣) حجة الله الثالثة ٢/٨٣ ..

(٤) صحيح مسلم ٤/٥٦٧ (كتاب الإمارة)

ومن ناحية أخرى قد يكون العمل في ظاهره طيباً نافعاً للفرد والجماعة وأمة المسلمين ومع ذلك لا يسقط ثوابه فحسب ، بل أكثر من ذلك يعتبره الإسلام على الرغم من ظاهره ونفعه رذيلة يأثم صاحبها ويعاقب عليها ، وليس أدل على ذلك من الحديث الجامع الذي روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — إن أول الناس يقضى يوم القيمة عليه رجال استشهد فأتى به فعرفه نعمه قال فما عملت فيها ؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت . قال كذبت . ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال بعثت العلم ليدعوه ، وقرأت القرآن ليقال قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار ، ورجل وسع الله عليه ، واعطاه من أصناف المال كلها ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال فما عملت فيها ؟ قال : ماتركت من سبيل يحب أن يتفق فيها إلا أتفقت فيها لك . قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ، ثم ألقى في النار^(١) .

وقد تصدق النية ، ومع ذلك يتآدي العمل بصاحبها إلى نتيجة غالطة ولكن يؤجر العامل على عمله هذا ، فقد روى أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»^(٢) ..

وال المسلم يتتجنب الشر ، ويأتي من الخير ما يستطيع طمعاً في الجنة وخوفاً من النار ، وهذه النية في ذاتها أو هذا الدافع في ذاته لا يغبار عليه ، فال مقابل الآخرة ، قد وعد الله به الخيرين من المؤمنين في عشرات من الآيات :

سُبْحَانَ اللَّهِ أَكْبَرَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِنَّ لَهُمْ جَنَّةً يُقْدَّسُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴿٣﴾^(٣)
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿٤﴾

(١) صحيح مسلم ٥٦٨ / ٤ (كتاب الإمارة)

(٢) البخاري ١٣٢ / ٩ (كتاب الاعتصام)

(٣) التوبه ١١١

(٤) الكهف ١٠٧

فَاتَّقُوا أَنَّهُ أَنْتَ وَقُوْدَاهَا أَنَّسٌ وَالْحِجَارَةُ ^{بِكَفَافٍ} (١)

إِنَّا أَعْنَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِفُهَا ^{بِكَفَافٍ} (٢)

وقد يكون للمؤمن من وراء العمل الصالح — غير المدف الأخروي — هدف دنيوي عاجل ، وهو توفيق الله له في الدنيا ، وتوسيع باب الرزق وما شابه ذلك ، وقد قال الله تعالى في محكم كتابه سُبْحَانَ اللَّهِ أَكْبَرَ أَللَّهُ أَكْبَرَ إِنَّمَا أَنْتَ مَنْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتِ مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ^{بِكَفَافٍ} (٣)

وإذا كان هذا هو « مقام العامة » فهناك « مقام الخاصة » الذين يعبدون الله — لا طمعا في جنته ، ولا خوفا من ناره — فهذه هي عبادة التجار — كما قالت السيدة رابعة العدوية — ولكنهم يعبدون الله حبّاً له ورغبةً في رضاه بغض النظر عن الثواب والعقاب .. عن الجنة والنار ، وهي الصفة التي يقول فالثاء:

قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَسُكُونِي وَحَمَيَّاتِي وَمَمَاتِي لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ^{بِكَفَافٍ} لَا شَرِيكَ لَهُ
وَبِذَلِكَ أَمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ^{بِكَفَافٍ} (٤)

وقد صور الإمام الغزالى المقامين وحدد مكان كل منها في قوله « الحقيقة آلا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى ، وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين ، وهو الإخلاص المطلق ، فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة ، وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج ، وإنما المطلوب الحق — لذوى الألباب — وجه الله تعالى فقط (٥) .

فالعمل إذن يوزن بميزان النية ، والعمل يكتسب أو ي عدم « قيمة الأخلاقية » تبعا للدافع الذاتي وهو ما يسمى بالنية . قال أبو سلمة : قلت لأبي سعيد الخدري : ماترى فيها أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم ؟ فقال : يالبن أخى : كل الله ، واسترسل الله ، والبسن الله ، وكل شيء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية أو سرف » (٦) .

(١) البقرة ٢٤

(٢) الكهف ٢٩

(٣) الأعراف ٨٦

(٤) الأنعام ١٦٢

(٥) الإحياء ١٣٥٩/٨

(٦) الإحياء ١٩٦٧/١١

وقد أشرنا من قبل إلى أن «المبادئ التشريعية» من أهم سمات القيم الإسلامية، بمعنى أن كل الأفعال والتكاليف لا تأخذ صورتها السليمة ووجهها الصحيح إلا إذا كان لها طابعها الأخلاقي الإنساني، وتحقق أغراضها ومراميها الإنسانية التي تعدد في ذاتها الحكمة التي أرادها الشارع من وضعها..

وتتجلى هذه «المبادئ التشريعية» للطوابع الأخلاقية الإسلامية في جوانب كثيرة جداً من التشريعات منها: العبادات والقواعد القانونية وخاصة في مجال المعاملات والمدنيات.. وسنحاول أن نلقي الضوء على هذين الجانبيين:

أولاً: هادفة العبادات:

بني الله— سبحانه وتعالى— الإسلام على حسن قواعد الشهادتين وما الركن الأول. أما الأركان الأربع الباقية فتمثل ما يسمى بالعبادات وهي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً.

وهذه العبادات حددتها لنا النبي— صلى الله عليه وسلم— كما وكيفاً: فالصلاحة حسن منها الثانية والثلاثة والرابعة في أوقات محددة، وهي تؤدي بهيئة معينة حددتها النبي عليه السلام.

والزكاة أنواع منها: زكاة المال وزكاة التجارة وزكاة الفطر وزكاة الحيوان... الخ
والصوم شهر في العام هو شهر رمضان.
والحج مرة في العمر، في وقت محدد في العام بأركان وشروط معروفة.

وال المسلم مطالب بأن يؤدى هذه العبادات— من الناحية الشكلية المظهرية— بالصورة التي تطلبها الإسلام، فليس له مثلاً أن يصلى الظهر ثلاث ركعات، وليس من حقه أن يصلى المغرب أربع ركعات، ولكننا نلاحظ بالنسبة لهذه التكاليف التعبدية أمران:

الأول: أن القرآن لم يفصل أغلبها من ناحية الكم والتقويم، وما عرف بشأن تفصيلاتها إنما عرف من السنة بنوعيها: القولي والعملي.

الثاني: أن القرآن في حديثه عن هذه العبادات يحرض على أن يرطها دائماً بأهدافها وقيمها الأخلاقية والإنسانية العليا، وقد رأينا من قبل أن المسلم قد يغذب بعمله «الصالح» إذا كان وراءه نية خبيثة غير صالحة، وهي قاعدة عامة تصدق على الجهاد والعلم والصدقة... الخ.

ولنقف قليلاً أمام المنطق القرآني. وهو يلفتنا بجواهر العبادة والمهدف التبليغ الذي شرعه من أجله:

فالصلاحة :

وهي عماد الدين — ذكرت في القرآن عشرات المرات ، والعجب أن التعبير عنها كان دائماً «بالإقامة» لا «بالأداء» ... القرآن يقول «أقيموا الصلاة» لا «أدوا الصلاة» ويتحدث عن المؤمنين بأنهم يقيمون الصلاة .

يقول الإمام محمد عبده في تفريغه الباهر بين الإقامة والأداء : إن الصلاة متى حددت بكيفية مخصوصة يقال لمن يؤدّيها بتلك الكيفية : إنه صلي ، وإن كان عمله هذا خلوا من معنى الصلاة وقوامها المقصود من الهيئة الظاهرة ، فاحتياج إلى لفظ يدل على هذا المعنى الذي به قوام الصلاة ، وهو ما عبر عنه القرآن بلفظ الإقامة ، وقد قالوا : إن إقامة الصلاة عبارة من الإتيان بجميع حقوقها من كمال الطهارة ، واستيفاء الأركان والسنن ، وهو لا يبعدها وصف الصورة الظاهرة ، وإنما قوام الصلاة الذي يحصل بالإقامة هو التوجّه إلى الله تعالى والخشوع الحقيقى له والإحساس بال الحاجة إليه تعالى .

فإذا خلت صورة الصلاة من هذا المعنى لم يصدق على المصلى أنه أقام الصلاة فإنه قد هدمها بإخلالها من عمادها وقتها بسلبها روحها (١) .

ولقد أبان القرآن الكريم عن جوهر الصلاة وغايتها في قوله تعالى : **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ أَنْ تُلْهِيَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الْمُصَلِّوَةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ** (٢)

فرسالة الصلاة هي إحياء النفس وتربية الضمير وصقل القلب ، وغرس التقوى في أعماق المؤمن : فإذا ماهم بمعصية كان لصلاته «صوت» قوى ينهى و «سوط» لا هب يكبح جماح كل نازع خبيث .

أما إذا تخللت الصلاة ، أو شاء صاحبها أن تتخلى عن رسالتها فهي الاستغفار الذي يحتاج إلى استغفار . وعن ابن عباس رضي الله عنهما «من لم تأمره صلاته بالمعروف ، وتنهى عن المنكر لم يزد بصلاته من الله إلا بعدها ». وعن الحسن رحمه الله «من لم تنهى صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلة وهي وبال عليه » (٣) ..

(١) تفسير المنار ١٤٨/١

(٢) العنكبوت ٤٥

(٣) انظر الكشاف ٢٠٧/٣

ومن كرامة الصلاة أن الله – سبحانه وتعالى – قرئها أكثر من مرة بخلقة من قبل
الخلائق الإنسانية وهي الصبر:

(١) ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْمُتَّسِعِينَ ﴾ (٢)

(٢) ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

﴿ إِنَّمَا يَنْهَا أَهْلَ الدِّينَ مَنْ أَعْصَى اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

﴿ إِنَّمَا يَنْهَا أَهْلَ الدِّينَ مَنْ أَعْصَى اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٣)

والصلوة الذي يحرص على صلاته ويحافظ عليها يغرس الله في نفسه الطمأنينة فلا يعرف
الملل أو الضعف أو الاستسلام في حالة الضرب ، وهو خير معطاء في السراء . استمع إلى قوله
تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَنَ خُلِقَ هَلُوقًا إِذَا مَسَهُ الشَّرُّ جُزُوعًا إِذَا مَسَهُ الْحَيْرُ مُنْوِعًا إِلَّا الْمُصَدِّقِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ (٤)

فالمملوء والجائع من صفات الإنسان الذي خوى قلبه من يقين الإيمان . واستثناء المسلمين
من هذه النوعية من البشر ينحthem – بفهم المخالفة – عكس هذه الصفات ويلاحظ كذلك
أن الآيات نصت على « ديمومة الصلاة » وهي خصيصة تعطي صفة الاستقرار والاستطراد ،
فهي صلاة لا يقطعها الترك والإهمال والكسل ، وهي صلة بالله مستمرة غير منقطعة .. وقد
كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا عمل شيئاً من العبادة أثبته – أى داعم عليه –
وكان يقول : وإن أحب الأعمال إلى الله تعالى مadam وإن قل » (٥) .

ولى هذا المفهوم الم gioheri الإنساني للعبادة .. كان القرآن يلفت أنظار المسلمين دائمًا :
فالعبرة بجوهر الأشياء لا بقشورها وفروعها . وحيثنا أراد أهل الكتاب أن يشدو المسلمين إلى
معركة فرعية بخوضهم في مسألة القبلة وتحولها من بيت المقدس إلى الكعبة وخاض معهم
بعض المسلمين هذا المخاض – حينئذ نزل القرآن ليرد المسلمين إلى النهج الصحيح الذي كاد

(١) البررة ٤٥

(٢) البررة ١٥٣

(٣) لممان ١٧

(٤) المزارج ١٩ - ٢٣ . هلوعاً : سريع الخوف سديد الحرص . جزوعاً : كثير الجزع والأسى . متوعاً : كثير المتع
والإمساك ..

(٥) سيد قطب : الفلاح ٦ / ١٣٦٩٩

ينحرف بهم عن الجوهر الصادق إلى المظاهر الذي لا تأسن عليه العقائد ، ولا تبني عليه قواعد

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُؤْتُوا بِهِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ يَعْمَلُ
وَالْيَوْمَ الْآخِرُ وَالْمَلَئِكَةُ وَالْكِتَابُ وَالنَّبِيُّنَ وَإِنَّ الْمَالَ عَلَىٰ حُرْبِهِ ذُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينَ وَأَبْنَاءِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَإِنَّ الْزَكْوَةَ وَالْمُوفُونَ
يُعَهَدُ هُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ أَبْلَسَ أَوْتَلَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَأَوْتَلَكَ هُمُ الْمُتَقْوِنُونَ (١)

إن القرآن يوجه نظر المسلمين إلى المضمون الإنساني للعمل .. إنه يقول للمسلم : اصدق النية ، وتقدم واثق العزمة ، وأد العمل بقدر ما تستطيع الله والناس والمجتمع ، أما الذين يهدرون طاقاتهم وجدهم في قشور الأشياء ومظاهرها فليسوا من الحق ولا من البر في شيء ..

إن الإسلام يفتح مفهوم البر ليتسع لكل عمل إنساني ، ويتسع هذا المفهوم حتى يكاد يكون مرادفا « للا الإنسانية » بجانبها القولي والفعلي ، « فالبر كل عمل يفعله الإنسان قضية لانقياده للهلاك الأعلى ، واضمحلاله في تلقى الإلهام من الله ، وصيروته فانيا في مراد الحق ، وكل عمل يجازى عليه خيرا في الدنيا أو الآخرة ، وكل عمل يصلح الارتفاعات التي يبني عليها نظام الإنسان ، وكل عمل يفيد حالة الانقياد ويدفع الحجب .

والإثم كل عمل يفعله الإنسان قضية لانقياده للشيطان وصيروته فانيا في مراده وكل عمل يجازى عليه شرافي الدنيا أو الآخرة ، وكل عمل يفسد الارتفاعات ، وكل عمل يفيد هيئه مضادة لانقياد و يؤكّد الحجب (٢) .

• • • •

٢ — **والصوم** لا يقصد به الإجاعة والإطماء ، فالامتناع عن الطعام والشراب في نهار رمضان هو المظاهر الحسنى المباشر للصوم ، ولكن الصوم ليس « عقاباً » يفرض على المؤمن ، إنما هو « تربية » علوية لها جانبها الاجتماعي وجانبه النفسي وجانبه الإنساني العام بما

(١) البقرة: ١٧٧ . البر: هو جميع الطاعات وأعمال الخير. في الرقاب: في تحريرها من الرق أو الأسر.. البأس: الفقر ومحنة. الضراء: السقم ومحنة. حين أبليس: وقت مواجهة العدو.

(٢) الدلهي: حجۃ اللہ البالغہ ٥٨/١

لا يتسع هذا المقام لتفصيل القول فيه . وقد قيل لنبي الله يوسف « مالك تجوع وأنت على خزان الأرض ؟ قال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع » (١) ..

فالصوم إذن ليس إلتزاما بالجوع والمعطش المقصودين لذاته ، ولكنه إلتزام خلقي يتخذ من الجوع والمعطش وسيلة موصلة إلى الخير .. يوسف يجوع لأحبّ في الجوع لذاته ولكن ليذكر ألام الجائدين .. والمسلم يجوع ويعطش ليذكر آلام الجوعي والمعطشي ..

إن من جوامع الكلم قوله صلى الله عليه وسلم « الصيام جنة » والجنة بضم الجيم هي كل ما وقى (٢) . فهو وقاية للإنسان من النهم والبطنة وأمراض البدن والمعدة كما أثبت الأطباء بالشاهد الجازمة .

وهو وقاية للإنسان من التطلعات الشهوانية ومن السقوط والانحراف والإساءة إلى الآخرين . فالالتزام الخلقي للصوم يقتضيه لا يرى ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم (٣)

والإنسان تحكمه عاداته ، ويصل به الأمر إلى أن يصبح مجموعة من العادات ، وتحكم فيه العادات إلى درجة يصنع معها كأنه آلة من الآلات تسير على نسق معين وتؤدي أعمالاً محدودة ، فيبتعد كل الابتعاد عن المرونة التي تفرق بينه وبين الآلات .

والإنسان الذي تحكمه عاداته يصبح عبدا لها ، ويتخلّى عن شيء الأحرار الذين يعملون في حرية واختيار . وفرض الله الصيام ليحرر الإنسان من هذه العبودية ، فإن الصيام يقلب العادات رأسا على عقب ، ويعمل الإنسان نوعا من المرونة حتى لا يتصرف تصرف الآلة (٤)

وصفة القول أن قيمة العبادات ليست في كونها حركات تؤدي وشعائر توتى .. إنما قيمتها أن تكون منهج حياة يشمل كل الحياة ، قيمتها أن تكون خطة سلوك وخطبة عمل وخطبة فكر وخطبة شعور ، قائمة كلها على منهج واضح يتبيّن فيه — في كل خطبة — ما ينبغي وما لا ينبغي أن يكون (٥)

ويطول بنا المقام لورحنا نستقرىء القيم النفسية والروحية والدروس العملية في الزكاة والحج . ويكفيانا أن نقول إن كل هذه العبادات استطاعت بحق أن تربى جيلا من المسلمين فتح مشارق الأرض ومقاربها ، ونشر كلمة الله في أرجاء المعمورة وكأن لسان حالم يقول **صَيْغَةُ اللَّهِ وَمَنْ أَحَسَّ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَيْدُونَ** (٦)

(١) الشفا ٢٩٩/١

(٢) القاموس المحيط فصل الجيم باب النون (٤/٢١٠)

(٣) انظر المخارق ٣١/٣ (كتاب الصوم)

(٤) عبد الحليم محمود : أسرار العبادات في الإسلام ٨٣

(٥) محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ٣٩

(٦) البقرة ١٣٨ . صبغة الله : تطهير الله النفوس بالإيمان .

ثانياً: أخلاقية القواعد وبناؤها على أساس إنساني :

وصف القرآن النبى عليه السلام بأنه على خلق عظيم، ولنفس النبي جواهر رسالته في قوله «إنما بعثت لأتم مكارم الأخلاق»، واتساقاً مع هذا الجواهر العظيم في شخصية الرسول وشخصية الرسالة كانت كل التكاليف الإسلامية – كما ذكرنا أكثر من مرة – ذات مضامين أخلاقية سامية وأهداف إنسانية نبيلة ، «فالشرعية الإسلامية تعتبر من أبرز القوانيين التي لا تقيم حدوداً فاصلة بين القاعدة القانونية والقاعدة الأخلاقية ، فالنظم القانونية الإسلامية لا تغلق أبوابها في وجه القواعد الأخلاقية بحيث تستطيع هذه المبادئ أن تتسلل بسهولة إلى الكيان القانوني^(١) ..

ومظاهر الميمنة الأخلاقية على القواعد القانونية الإسلامية كثيرة جداً في فقه المعاملات بخاصة . نجتزيء منها ما يأتى :

١- نظرية التعسف في استعمال الحق :

فالنظرية الإسلامية في الحق ترى أن استعماله يجب أن يعتمد على القيم الإنسانية العليا مثل العدل والمساواة والإحسان واتباع المعرفة وتجنب الطغيان والفساد ، وعلى عدد من القواعد الشرعية العامة التي أقرتها الشريعة قصداً إلى إيجاد مجتمع مثالى متكملاً سليم صالح .

وبناءً على ذلك يجب أن يكون استعمال الحقوق سبيلاً إلى تحقيق المصالح وجلبها وإلى دفع المفاسد وتجنبها . سبيلاً يقوم النظر فيه إلى المجتمع أولاً وإلى الفرد ثانياً باعتباره جزءاً منه . فإذا كان في استعمال المالك حقه ضرر بغيره وجب أن يوازن بين مصلحته المشروعة التي أرادها والمضررة التي تترتب على استعماله له ، فإن رجحت مصلحة المالك سلم له حقه ، وإن رجحت مضررة غيره قيد حقه بما يدفع المضررة .

ويبدو من النظر في أقوال الفقهاء أن ما يترتب على استعمال المالك لحقه من الضرر بغيره قد يكون ضرراً متحققاً الواقع ، وقد يكون ضرراً يغلب على الظن وقوعه ، وقد يكون ضرراً لا يغلب على الظن وقوعه ، ثم هو مع ذلك قد يكون ضرراً كثيراً ، وقد يكون ضرراً قليلاً . وقد يكون ضرراً مقصوداً ، قصد إليه من أراد من المالك استعمال حقه وقد يكون غير مقصود لم تتجه إليه إرادة المالك المستعمل لحقه . وعندما تتعارض المصالح والمقاصد في هذه الأحوال يجب مراعاة تطبيق القواعد الشرعية الآتية :

(١) أبوطالب : مبادئ تاريخ القانون ٤١٠

- الضرريرزال .
- يتحمل الضرر الأخف لدفع الضرر الأشد .
- يتحمل الضرر الخاصي لدفع الضرر العام ، ويجب تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ..
- دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح .
- الضرورات تبيح المحظورات (١) .

وثمة ضوابط ومعايير تجعل استعمال المالك لحقه تعسفا ، وهذه المعايير هي :

- إذا لم يقصد المستعمل لحقه سوى الإضرار بغيره .
- إذا كانت مصلحته التي يتبعها من استعماله حقه تتعارض مع مصلحة عامة أو مصلحة خاصة تفوقها بحيث ترى مصلحة قليلة الأهمية . ولا تناسب أبنته مع ما يصيب غيره من ضرر عظيم بسببها ، ولم يكن ذلك الضرر نادر الواقع .
- إذا كانت المصلحة التي يتبعها المالك من استعمال حقه يؤدى إلى الإضرار بغيره ضررا فاحشا بتنا ، وكان في استطاعته تحقيق مصلحته بطريق آخر لا يؤدى إلى هذا الضرر .
- إذا كان الضرر المترتب على الاستعمال عظيما محتملا الواقع وليس بالأمر النادر .
- إذا كان المالك على علم بترتب الضرر الفاحش ، وكان في استعماله لحقه متزلفها لا يلحقه ضرر من تركه وأقدم مع ذلك عليه (٢) ..

وفي مجال الحديث عن التطبيقات العملية لنظرية التعسف في استعمال الحق تحدث الفقهاء عن حق الجوار وقالوا : إن للجبار على جاره من الحقوق الأدبية والخلقية ما يجعله ملزما بالحافظة على أمواله وحقوقه . وعلى ذلك فليس للجبار أن يتخذ من داره مصنعا تتبعه منه رائحة كريهة ، أو يحدث صوتا مزعجا أو هزاتا قد توهن الجدران وتقلق السكان ، أو يفتح نافذة على ملك جاره ، أو يقيم بناء يمنع الضوء والهواء عن جاره .

لكن هل يمنع الإنسان من هذا قضاء أم ديانة ؟

المتقدمون من الأحناف ومعهم الشافعى وأحمد على أن القياس لا يمنع المالك من التصرف في ملكه كيف شاء ، وحق الجار عليه لا يحده من تصرفه في ملكه : فله أن يتتخذ منه مصنعا أو

(١) انظر على الخفيف : الملكية في السرية الإسلامية ص ١٠٠ وما بعدها .

(٢) السادس ١٠٤

متجرًا أو مسكنًا ، وله أن يحفر فيها ما يشاء من حفر وآبار إلى غير ذلك من سائر التصرفات ، ولا يعني ذلك بقعة القضاء ، لكن من الناحية الخلقية فإنه يجب عليه أن يحافظ على إحساس جاره وشعوره ويعمل على راحته وإكرامه فإن خالف فلا سلطان لأحد عليه في الدنيا ، وحسابه على ذلك عند الله .

والمتأخرُون من الأحناف ومعهم الإمام مالك تخلَّفوا عن القياس في هذا الحكم واستحسنوا أن يلزم الجار بالامتناع عن عمل فيه إيناء وأضرار بناء جاره أو راحته ، وخصوصاً أن الناس ساعت أخلاقهم وتركتوا ما أمرهم به الدين من مراعاة الجار ، فوجب إلزامهم بهذا قضاء وإلزامه بنتيجة فعله وإزالته ما ينبع عنه الضرر (١) .

ومن تطبيقات نظرية التعسف على الدائن — وهو صاحب حق لا ينكر — أن عليه أن يهل المدين إذا كان المدين معسراً استجابة لقوله تعالى ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرْهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصْدِقُوا خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) يروى أن رجلاً أصيب في عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في ثمار ابتعاه فكثريده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تصدقوا عليه » فتصدق الناس عليه فلم يبلغ وفاء دينه . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم « خذوا مَا وجدتم وليس لكم إلا ذلك » (٣) .

فالشرعية الإسلامية تقتضي الرفق بالمدين عند التنفيذ على أمواله ، لذلك نجد صاحب مرشد الحيران يقرئ في ١٦٤ م أنه « إذا كان المالك مديوناً ديناً ثابتاً عليه شرعاً يجوز نزع ملكية الزائد عن حواضجه الضروري المحتاج إليها في الحال ومنها مسكنه الضروري فإذا لم يكن له مال من جنس ماعليه من الدين الشرعي ، وبيع قضاء إذا امتنع عن بيعه بنفسه لقضاء دينه من ثمنه ، وبدأ في البيع بالأيسير فال AISER بقدر الدين » (٤) .

بل إن الإسلام ذهب في هذا السبيل إلى حد أنه يميز نزع الملكية من صاحبها إذا أساء استخدام حقه فيها ، ولم يكن ثمة وسيلة أخرى لمنعه من ذلك . وقد طبق الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — هذا المبدأ تطبيقاً عملياً على سمرة بن جندب : فقد كان سمرة نخل في

(١) انظر: سلام مذكور: الفقه الإسلامي ٢١٩

(٢) البقرة ٢٨٠ . عسراً: ضيق الحال لانعدام المال . فن壮رة: فلامهال وتأخير.

(٣) القرطبي: ١١٨٤/٢

(٤) أبوطالب: السابق ٤١١

بستان رجل من الأنصار، فكان سمرة يكثر من دخول البستان هو وأهله فيؤذى ذلك صاحب البستان فشكاه إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فاستدعي سمرة وقال له : « بعه نخلك » ، فأبى . فقال « فاقطعه » ، فأبى . فقال « هبه ، ولنك مثله في الجنة » فأبى ، فقال عليه السلام « أنت مضار » أى تبتغى ضرر غيرك ، ثم قال لمالك البستان « اذهب فاخلع نخله » (١) ..

وكان للضحاك بن خليفة الأنباري أرض لا يصل إليها الماء إلا إذا مر بستان محمد بن مسلمة ، فأبى ابن مسلمة أن يدع الماء يجري بأرضه ، فشكاه الضحاك إلى عمر بن الخطاب ، فاستدعي عمر محمد بن مسلمة ، وقال له : أعليك ضرر أن يمر الماء بستانك ؟ قال : لا ، فقال له : « والله لو لم أجده له ممرا إلا على بطنك لأمرته » (٢) ..

ومن هذا القبيل أن الإسلام لا يبيح للملك تعطيل ملكه إن كان في ذلك التعطيل إضرار بالصالح العام ، فقد جاء في الأثر أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد أقطع بلال بن الحارث المزني « العقيق » وهي أرض قرب المدينة ، فلم يستطع عمارتها كلها . ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة قال « يابلال إنك استقطعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أرضا طويلا عريضة فأقطعك إياها ، وإن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لم يكن يمنع شيئاً يُسأله وأنت لا تطبق مافي يديك » فقال « أجل » قال عمر « فانظر ما قويت عليه منها فامسكه ، ومالم تقوى عليه فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين » فقال « لا أفعل والله !! شيء أقطععنيه رسول الله – صلى الله عليه وسلم » . فقال عمر « والله لنفعلن » . وأخذ منه ما عجز عن عمارته فقسمه بين المسلمين (٣) .

ويروى عن عمر قوله « من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنوات لا يعمرها ، فعمرها لتفعلن » . وأخذ منه ما عجز عن عمارته فقسمه بين المسلمين (٤) ..

٢ – نظرية الضرورة :

يعتبر رفع الحرج أصلاً من أصول الشريعة الإسلامية ، ويعنى بالحرج تحمل المرء مشقة زائدة عن المشقة المعتادة في التكاليف وذلك مرفوع عن المكلفين لأمرين :

(١) انظرد . على عبد الواحد وافي : حقوق الإنسان في الإسلام ٧١

(٢) السابق ٧٢

(٣) السابق ٧٣ . وانظر كذلك أبا يوسف في الحراج ١٣٢

(٤) أبو يوسف : الحراج ١٣١

الأول : أن المكلف مطالب بأعمال متنوعة لابد له من القيام بها ، فإذا تجاوز حد الاعتدال من ناحية فقد تعرض للانقطاع أو التقصير في ناحية أخرى ، وتوجه إليه اللوم على ذلك ، كمن يكثر من العبادة حتى يقصر في حق الزوجة والولد ، وهمل السعي في طلب الرزق .

والثاني : أن تحميم النفس من التكاليف ما يشق بغضها إليها ، ويؤدي بها إلى الانقطاع عن التكاليف جملة ، ومن أجل هذا جعل الله الشريعة سهلة محببة إلى قلوب المؤمنين (١) ..

قالت عائشة – رضي الله عنها – ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم – بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما مالم يكن إثنا، فإن كان إثناا كان أبعد الناس منه (٢) .

لذلك كانت نظرية الضرورة لونا من ألوان التيسير على الناس ودفع الحرج عنهم وهي تعتبر تطبيقاً منها للاتجاه الأخلاقي الذي يسود التشريع الإسلامي ، فهي تسود في كثير من المبادئ القانونية الإسلامية ، وتعتمد على كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وقد عبر الفقهاء عن هذه المبادئ بعبارات مختلفة منها : لاضرر ولا ضرار ، المشقة تجلب التيسير ، الضرورات تبيح المحظورات ، الضرر يدفع بقدر الإمكان (٣) .

فالضرورة تلجم الإنسان إلى الاضطرار ، والاضطرار عند علماء الشريعة هو الإلقاء إلى الفعل من الإنسان أو غيره ، فهو يشمل الإكراه الذي يكون الدافع فيه على الفعل من الإنسان ، ويشمل غيره ، وهو ما يكون الدافع فيه على الفعل القوة الطبيعية .

وهذا النوعان يتساوىان في أن كلًا منها قد يبيح المحظور تمثليا مع قاعدة الضرورات تبيح المحظورات . والأحناف يقسمون الإكراه من ناحية مباحة الفعل والترخيص فيه إلى ثلاثة أقسام :

الأول : نوع يبيح الفعل كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وشرب الخمر إذا كان الإكراه تاما لأن هذه الأشياء مما يباح عند الاضطرار .

الثاني : لا يبيح الفعل لكنه يمنع المؤاخذة وهو إجراء كلمة الكفر على اللسان مع اطمئنان القلب بالإيمان إذا كان الإكراه تاما ، وهو يحرم في نفسه مع ثبوت الرخصة المانعة

(١) انظر حسب الله : أصول التشريع الإسلامي ٢٤٨ - ٢٤٩

(٢) البخاري : ٣٧/٨ (كتاب الأدب)

(٣) أبو طالب : السابق ٤١٢

من المسئویة ، لأن كلمة الكفر مما لا يحتمل الإباحة بحال ، فكانت الحرمة قائمة إلا أنه سقطت المراخدة بعد الإكراه .

الثالث : لا يبيح الفعل ولا يرخص فيه : كقتل المسلم بغیر حق ، أو قطع عضو من أعضائه ولو كان الإكراه تاما لأن قتل المسلم بغیر حق لا يحتمل الإباحة (١) .

ولننظر في الضرورة تطبيقات متعددة من أهمها : التطبيقات المتعلقة بعقد الإيجار : من ذلك إنقاص الأجرة في حالة هلاك الزرع في العين المؤجرة كمن يستأجر حاما في قرية ثم يهجر الناس تلك القرية ، وقد يرجع العذر للمؤجر كمن يضطر لبيع عين مؤجرة ليوبي من ثمنها دينا عليه إذا لم تكن لديه وسيلة أخرى يستطيع بمقتضاه وفاء ذلك الدين ، وقد يرجع العذر للمستأجر كانتقاله من حرفة إلى أخرى أو إفلاسه (٢) .

وقد وضع الفقهاء « للحالة » حتى تكون من قبيل حالات الضرورة شروطاً أربعة هي :

— أن تكون الضرورة ملحة بحيث يجد الفاعل نفسه أو غيره في حالة يخشى منها تلف النفس أو الأعضاء .

— أن تكون الضرورة قائمة لامتنظرة : فليس للجائع أن يأكل الميتة قبل أن يجوع جوعاً يخشى منه .

— الا يكون لدفع الضرورة وسيلة إلا ارتكاب الحرم ، فإذا أمكن دفع الضرورة بفعل مباح استعن بها بفعل حرم : فالجائع الذي يستطيع شراء الطعام ليس له أن يمتحن بحالة الضرورة إذا سرق طعاماً .

— أن تدفع الضرورة بالقدر اللازم لدفعها ، فليس للجائع المضطر إلى أكل الميتة أن يأكل منها إلا بقدر إدھاب الصلة عنه (٣) .

ونظرية الضرورة في الشريعة الإسلامية تتشمي مع أحدث النظريات القانونية التي ظهرت في الفقه الحديث في هذا الصدد ، وقد عبر عن ذلك الفقيه الفرنسي لا بير بقوله « تعتبر نظرية الضرورة في الفقه الإسلامي أشد ماتكون جزماً وشمولاً عن فكرة يوجد أساسها في القانون الدولي العام في نظرية الظروف المتغيرة ، وفي القضاء الإداري الفرنسي في نظرية الظروف الطارئة وفي القضاء الانجليزي فيها أدخله من المرونة على نظرية استحالة

(١) راجع سلام مذكور: نظرية الإباحة عند الأصوليين والفقهاء ٣٨٨ - ٣٩١

(٢) أبوطالب : السابق ٤١٢

(٣) انظر: عودة « التشريع الجمائي الإسلامي » : القسم العام ٥٧٧

تنفيذ الالتزام تحت ضغط الظروف الاقتصادية التي نشأت بسبب الحرب ، وفي القضاء الدستوري الأمريكي في نظرية الحوادث المفاجئة^(١) .

ونظرية الحوادث أو الظروف الطارئة التي أشرنا إليها والتي تجد أصلها في نظرية الضرورة الإسلامية — نظرية الحوادث الطارئة تعبّر عنها الفقرة الثانية من المادة ١٤٧ من القانون المدني المصري . تقول الفقرة الأولى من هذه المادة «العقد شريعة التعاقدين» فلا يجوز نقضه ولا تعديله إلا باتفاق الطرفين أو للأسباب التي يقررها القانون وتنص الفقرة الثانية — وهي شاهدنا هنا — «ومع ذلك إذا طرأ حادث استثنائي عامة لم يكن في الوعي توقيتها ، وترتبط على حدوثها أن تنفيذ الالتزام التعاقدى . وإن لم يصبح مستحيلاً — صار مرهقاً للمدين بحيث يهدده بخسارة فادحة جاز للقاضي تبعاً للظروف وبعد الموارنة بين مصلحة الطرفين أن يرد الالتزام المرهق إلى الحد المعقول ، ويقع باطلًا كل اتفاق على خلاف ذلك» .

وتلخص فكرة هذه النظرية أن هناك عقوداً يتراوح في تنفيذها إلى أجل أو إلى آجال ، وتحصل عند حلول أجل التنفيذ أن تكون الظروف الاقتصادية قد تغيرت بسبب حدث لم يكن متوقعاً ، فيصبح تنفيذ الالتزام شاقاً على المدين . ومرهقاً له إلى الحد الذي يجعله مهدداً بخسارة فادحة . الأمر الذي يميز للقاضي أن يتدخل ليعزز تبعية هذا الحادث على عاتق الطرفين .

ومثال ذلك أن يتعهد شخص بدور يد سلفة ثم يحدث قبل حلول ميعاد التوريد أن يرتفع ثمن هذه السلعة إلى ثمانية أضعاف ثمنها وقت العقد ، وذلك بسبب قيام حرب فجائية أدت إلى تعذر ورود السلعة من الخارج فيصبح هذا الشخص مهدداً بخسارة جسيمة تجاوز الحد المأمول في مثل هذه الحالة وحينئذ يجوز للقاضي أن يعدل التزام المدين بحيث يقف به عند الحدود المعقولة^(٢) .

و واضح أن الفقرة الأولى من المادة المذكورة تعبّر عن القاعدة العامة في العقود أما الفقرة الثانية فتمثل الاستثناء الوارد على هذه القاعدة وهو استثناء يعتمد أول ما يعتمد على قواعد العدالة التي توجب مراعاة الظروف .

وشبيهة بالشروط التي اشترطها فقهاء المسلمين في حالة الضرورة كانت الشروط التي اشترطها فقهاء القانون في الحادث الطارئ حتى ينبع أثره القانوني ، فاشترطوا في هذا الحادث من حيث طبيعته ومنشئه :

(١) أبوطالب السابق ٤١٢

(٢) عبد المنعم الصدة : مصادر الالتزام ٣٣١ - ٣٣٢

- أن يكون استثنائياً .. أى نادر الوقع كزلزال أو حرب أو وباء .
- أن يكون عاماً كالأحداث السابقة لا خاصاً بالمدين كمرضه أو موته ..
- ألا يكون متوقعاً وقت إبرام العقد .
- أن يستحيل تحاشي وقوعه .

ويشترط في هذا الحادث الاستثنائي من حيث نتيجته .. أن يترتب عليه جعل الوفاء مرهقاً للمدين إرهاقاً يهدده بخسارة فادحة ويفسر الإرهاق تقديرًا موضوعياً لأشخاصياً أي يعول في تقدير الإرهاق على مدى اختلال التوازن الاقتصادي بين التزامات الطرفين بقطع النظر عن ثروة المدين^(١).

فالنظر يتان: نظرية التعسف في استعمال الحق، ونظرية الضرورة اللتان ترتكبا بصفتها واضحة في نظرية القوة القاهرة ونظرية الظروف الطارئة استقتا من منبع أصيل هو «الإنسانية»، والإنسانية هي القيمة العليا التي تجعل العدل فوق القوة، والروح فوق الحرفة والرحة فوق القانون .. فالقانون في الإسلام وسيلة لا غاية .. وحتى القانون — بهذا التحديد — تقدم عليه نوازع الرحمة والعفو والأمان والإعدار: حينما جاء ماعز إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — مقرأ بالزنى رده النبي عدة مرات وكان «يستجوه» استجواباً العروف السليم الذي يفتح أمام المتهم ألف باب وباب للتراجع «لعلك باشرتها .. لملك فناخذتها .. لملك .. لملك .. ولكن ماعزا يصر على أنه ارتكب الزنى الموجب للحد .. لأنه يحرض على حد قوله أن «يتظاهر بالحد» نعم فالخطيئة لم تقتل فيه عنصر الظهور النادر أو الندم الظهور.

ورجم النبي — صلى الله عليه وسلم — الغامدية بعد أن ردها كذلك عدة مرات حتى وضعت حلها .. ثم حتى فطم طفلها الذي جاءت به من سفاح .. واشتراك خالد بن الوليد في رجمها، وسبها خالد لأن دما منها أصحاب وجهه، فغضب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقال: «مهلا يا خالد .. فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لوتاها صاحب مكس لغفرله» ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت^(٢) ..

وفي عهد عمر يسجل المسلمون انتصاراً حاسماً في «تشتر» ببلاد فارس ولكن عمر لم يفرح للنصر بقدر ماحزن حينما علم أن المسلمين قتلوا في تستر مسلماً ارتدى عن الإسلام .. قال عمر

(١) راجع في تفصيل ذلك: سليمان مرقص: موجز أصول الالتزامات (٣٥٥ - ٣٦٢).

(٢) زاد الماء ٢٠٦ / (والعكس: النص والظلم).

والحزن يعتصر قلبه «فهلاً أدخلتموه بيـتاً ، وأغلقتم عليه ، وأطعـتموه كل يوم رغيفاً فاستـتبـتمـوه ، فإنـ تـابـ وـلاـ قـتـلـتمـوه ؟ ثمـ قالـ «الـلـهـ إـنـيـ لـمـ أـشـهـدـ وـلـمـ آـمـرـ وـلـمـ أـرـضـ إـذـ بلـغـنـيـ» (١) ..

وللعلماء كلام إنساني كثير في الحدود : منه أن الحد لا يجب على جاـهـلـ بالـحرـمـ لأنـهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ سـأـلـ الزـانـيـ عـنـ حـكـمـ الزـنـيـ . فـقـالـ «أـتـيـتـ مـنـهـ حـرـاماـ مـاـيـأـتـيـ الرـجـلـ مـنـ أـهـلـهـ حـلـلاـ؟» ، وأنـ الحـدـ لـايـقـامـ عـلـىـ الـحـاـمـلـ ، وـأـنـهاـ إـذـ وـلـدـ الصـبـيـ أـمـهـلـتـ حـتـىـ تـرـضـعـهـ وـتـفـطـمـهـ . وـأـنـ الإـمـاـمـ لـاـيـجـبـ عـلـيـهـ أـنـ يـبـدـعـ بـالـرـجـمـ ، وـأـنـ لـاـيـجـزـ سـبـ أـهـلـ المـعـاصـىـ إـذـ تـابـواـ وـأـنـ يـصـلـىـ عـلـىـ مـنـ قـتـلـ فـعـدـ الـزـنـيـ . وـأـنـ المـقـرـ إذاـ اـسـتـقـالـ فـيـ أـثـنـاءـ الـحـدـ وـفـرـ تـرـكـ وـلـمـ يـتـمـ عـلـيـهـ الـحـدـ ، فـقـبـلـ لـأـنـهـ رـجـوعـ ، وـقـبـلـ لـأـنـهـ تـوـبـةـ قـبـلـ تـكـمـلـ الـحـدـ ، فـلـايـقـامـ عـلـيـهـ كـمـاـ لـوـتـابـ قـبـلـ الشـرـوـعـ فـيـهـ (٢) .

وـأـحـيـراـ وـقـبـلـ أـنـ نـتـرـكـ هـذـاـ الفـصـلـ عـلـيـنـاـ أـنـ نـتـبـهـ إـلـىـ مـلـمـعـ قـرـآنـيـ قـوـيـ يـدـورـ فـيـ فـلـكـ الـهـيمـيـنـةـ التـشـريـعـيـةـ لـلـأـخـلـاقـ فـيـ الـأـحـكـامـ وـالـأـعـمـالـ وـالـتـكـالـيفـ ، وـأـعـنـيـ بـهـذـاـ الـلـمـلـمـعـ الـقـرـآنـيـ «الـخـضـورـ الـرـبـانـيـ» أـوـ «الـخـضـورـ اـسـمـ اللـهـ» فـيـ الـأـوـامـرـ وـالـنـوـاهـيـ وـالـأـحـكـامـ وـالـقـصـصـ وـالـأـخـبـارـ وـالـمـعـاـمـلـاتـ وـمـظـاـهـرـ الـطـبـيـعـةـ وـالـعـقـابـ وـالـتـعـيـمـ ... الخـ : فـقـىـ أـوـلـ آـيـةـ قـرـآنـيـ «اقـرأـ بـاسـمـ رـبـكـ ...» رـبـطـتـ الـقـرـاءـةـ أـوـ الـعـلـمـ بـاسـمـ الـرـبـ الـخـالـقـ الـبـانـيـ للـإـيمـانـ بـأـنـ الـعـلـمـ يـجـبـ أـنـ يـكـونـ ذـاـ هـدـفـ إـنـسـانـيـ فـيـ بـنـاءـ نـبـيلـ كـمـاـ أـشـرـنـاـ مـنـ قـبـلـ .

وـالـمـادـيـنـةـ أـمـرـ لـاـتـخلـوـ مـنـ حـيـاةـ الـأـفـرـادـ وـالـجـمـعـاتـ ، بـلـ هـيـ أـصـلـ مـنـ أـصـولـ الـاـقـتصـادـ حـالـاـ فـيـ الـعـلـاقـاتـ الـمـصـرـفـيـةـ عـلـىـ مـسـتـوىـ الـأـمـةـ الـواـحـدـةـ بـأـفـرـادـهـ فـيـ عـلـاقـاتـهـ الـاـقـتصـادـيـةـ .
وـآـيـةـ الـمـادـيـنـةـ هـيـ أـطـوـلـ آـيـةـ فـيـ الـقـرـآنـ وـأـكـثـرـهـ تـفـصـيلاـ (٣)ـ . وـمـعـ أـنـ الـآـيـةـ تـعـلـقـ بـالـتـعـاملـ المـادـيـ الـبـحـثـ .. إـلـاـنـ الـقـرـآنـ يـذـكـرـ الـمـتـعـاملـيـنـ بـاسـمـ اللـهـ وـهـزـنـ فـيـ نـفـوسـهـمـ وـجـدانـ التـقـويـ وـحـيـاةـ الـضـمـيرـ «..... وـلـيـأـبـ كـاتـبـ أـنـ يـكـتـبـ كـمـاـ عـلـمـهـ اللـهـ» « وـيـمـلـ الـذـىـ عـلـيـهـ الـحـقـ وـلـيـتـقـ اللـهـ رـبـهـ» «..... وـاتـقـواـ اللـهـ وـيـعـلـمـكـمـ اللـهـ» «... فـلـيـؤـدـ الـذـىـ اـؤـتـمـنـ أـمـانـتـهـ وـلـيـقـ اللـهـ رـبـهـ .. وـالـلـهـ بـمـاـ تـعـلـمـونـ عـلـيـمـ» .

(١) الطـنـطاـوـيـانـ : سـيـرـةـ عـمـرـبـنـ الـخطـابـ ٣٥١

(٢) زـادـ المـعـادـ السـابـقـ بـعـدـ الصـفـحةـ

(٣) الـبـقرـةـ ٢٨٢

التذكير بالتقوى والعدل واسم الله .. كلها أمور تهول بين الإنسان وغرام المادة وجاذبيتها القوية : فلا يسقط في حماة الشيطان بالغش أو الكذب في الكتابة أو الشهادة أو الإملاء . وأيات الربا والميراث والوصية والقتال والزواج .. الخ تتحول هذا المنحى وتتخذ نفس الاتجاه ، وكلها تحرص الحرص كله على تربية الوجдан الأخلاقى في الإنسان ..

الفصل الثالث

مُحَمَّد

القيِيمُ .. والمنْهَج

سئللت السيدة عائشة — رضى الله عنها — فقالت : كان خلقه القرآن : يرضى برضاه
ويسخط بسخطه (١) ..

ولم تبالغ السيدة عائشة ولم تسرف في القول لأن القرآن لم يذكر أية قيمة من القيم الأخلاقية إلا وكان لها مكانها في شخصية الرسول — عليه الصلاة والسلام — في أقواله وأفعاله .

ووصفه ابن أبي هالة بقوله « كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس ببغض ولا غليظ ، ولا صخاب ولا فحاش ، ولا عياب ولا مداع » (٢) ..

وحينما سأله على بن أبي طالب كرم الله وجهه عن سنته قال : « المعرفة رأس مالي ، والعقل أصل ديني ، والحب أساسى ، والسوق مركتى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلامى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والعجز فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبي ، والجهاد خلقى ، وقرة عينى في الصلاة » (٣) .

المعرفة ... العقل ... الحب ... الشوق ذكر الله ... الثقة .. قائمة من القيم الأخلاقية الإنسانية العظيمة ، صنعت النسيج النفسي لهذه الشخصية العظيمة .. وكل صفة منها يمكن ردها إلى مأصلها القرآني ، بل إن القرآن قد ألح على كل واحدة منها عشرات من الآيات ، ومن هنا نستطيع أن ندرك مدى صدق السيدة عائشة حين قالت « كان خلقه القرآن » .

لقد عصمه الله من مفاسن الجاهلية من صغره ، وكان في شبابه وقيل أن يبعثه الله نبياً ورسولاً موضع ثقة المجتمع الجاهلي فهو عندهم « الأمين » .. وهو الصادق الذي لا يعرف الكذب بشهادة أبي سفيان أمام قيسار الروم ، ولم يكن أبوسفيان قد أسلم آنذاك ..

• • • •

(١) أنظر الشفا ٢٠٧/١

(٢) السابق ٢٤٦/١

(٣) السابق ٢٨٩/١ . في قوله عليه السلام « والعجز فخرى » يقصد بالعجز : إظهار الضعف أمام الله والخشوع له والاحتياج الدائم إليه ، وليس العجز هنا بمعنى التواكل والتکاسل وتفقرهمة النفس أمام الخلقين ، يؤيد ذلك ما روى عن أبي سعيد الخدري — رضي الله عنه — قال : دخل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ذات يوم المسجد فإذا هوبرجل من الأنصار يقال له أبوأمام ، فقال يا أيها أمة مالي أراك جالسا في المسجد في غير وقت صلاة » قال : هم لزمني وديون يارسول الله ، قال أفلأ أعلمك كلاما إذا قلته أذهب الله هك ، وقضى عنك دينك ؟ قلت بلى يارسول الله . قال : قل إذا أصبحت وإذا أمسست : اللهم إنى أعوذ بك من المهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وفقر الرجال » أخرجه أبوداود ..

ومن عجب أن قريشاً التي جمعت عصبة شر: من كل قبيلة فتي لضرب محمد ضربة رجل واحد حتى يتفرق دمه في القبائل ، فلا تقدر هاشم ولا بنو عبد المطلب أن يثأروا لدمه .. قريش هذه لم تكن تستأمن على ودائعها إلا حمداً عليه السلام ، ومن ثم خلف النبي عليه وراءه في مكة ليؤدي الوداع لأصحابها ، وهاجر هو وصاحب أبو بكر ..

إنما الأمانة التي لا تفرق في المعاملة بين المسلم والكافر ، وكان هو أول الأخذين أنفسهم بقوله تعالى :

سُبْحَانَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا أَلَا مُنْتَهٰ إِلَيْهَا وَإِذَا حَكُمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ إِنْ تُحْكِمُوا بِالْعَدْلِ (١)

وف أرض الجحema والعبوس والقصوة : قسوة الطبيعة وقسوة الأرض وقسوة الحياة وقسوة قلوب كالحجارة بل أشد قسوة **وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ أَلَّا يَهْرُرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَسْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْيِطُ مِنْ خَشْيَةً اللَّهِ** (٢)

في هذه الأرض ظهر محمد رحمةً مهداة ، فأحب أصحابه وأحبه أصحابه جداً لم يحبوه آباءهم وأبناءهم وأخوانهم ، وبالرحة استطاع أن يكتب جامع النقوس وأن يلين جامد القلوب ، وتحقق فيه قوله تعالى **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا فَسَرَّاهُ اللَّهُ أَنْ يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا فَسَرَّاهُ اللَّهُ أَنْ يَرَهُ** (٣) **غَلِيلِيَّهُ الْقُلُوبِ لَا نَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ**

نعم لأنفسوا من حولك ، ولكنك كنت « الرحمة المهداة » التي جمعت حوالها قلوب القساة الأنظاظ فإذا هي ألين من الماء وأنقى من صفحة السماء إنه **سُبْحَانَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا أَلَا مُنْتَهٰ إِلَيْهَا وَإِذَا حَكُمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ إِنْ تُحْكِمُوا بِالْعَدْلِ** **وَإِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا أَلَا مُنْتَهٰ إِلَيْهَا وَإِذَا حَكُمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ إِنْ تُحْكِمُوا بِالْعَدْلِ** **سُبْحَانَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا أَلَا مُنْتَهٰ إِلَيْهَا وَإِذَا حَكُمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ إِنْ تُحْكِمُوا بِالْعَدْلِ** (٤)

(١) النساء ٥٨

(٢) البقرة ٧٥

(٣) آل عمران ١٥٩

(٤) الفتح ٢٩

ورحمة جمعت حوله من حرموا الرحمة ، واستضعفوا في الأرض .. هؤلاء الذين أمره ربهم أن يصبر نفسه معهم .. مع هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يرددون وجهه فأحبهم وأحبوه .. ووعدهم الله عَزَّوَجَلَّ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ أَذْلَى أَرْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا عَزَّوَجَلَّ (١)

ومرت الأعوام ... وكما وعد محمد : تملك بدوى فقير سوارى كسرى ، وأذن مستضعف آخر من قبة الإيوان .. ودك المستضعفون الحفاة ملك قيسر ، وامتدت للإسلام امبراطورية لا تغيب عنها الشمس .

ولم تكن رحمة محمد تقف عند حد ، فهى متعدة الأرجاء متعدة المناهى : نقل القاضى عياض عن بعض العلماء قوله « ومن فضل محمد أن الله أعطاه اسمين من أسمائه فقال : بالمؤمنين رعوف رحيم » (٢) ..

وكان رحيم بالأطفال محبا لهم : قال أبوهريرة : قبل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسا . فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ماقبلت منهم أحدا ، فنظر إليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقال : من لا يرحم لا يُرحم » (٣) .

ويروى أنه عليه الصلاة والسلام — صلى بأمامه ابنته زينب يحملها على عاتقه فإذا سجد وضعها ، وإذا قام حملها (٤) .

وكان رحيم حتى مع المخطئين ، وقد أشرنا في الفصل السابق إلى موقفه من ماعز و موقفه من الغامدية . فإذا ما كان الخطأ ناتجا عن جهل بقواعد الدين أو قواعد التعامل وال العلاقات الاجتماعية لم يقص على الخطأ بل أخذه بالرأفة ، ووجه نظره في هواة . فحيينا رأى المسلمين أعرابيا يسبول في المسجد .. حاولوا أن يمنعوه ويؤذوه فأمرهم النبي أن يتركوه ولا يقطعوا عليه بوله ، لأن ذلك يحزنه ويؤذيه ، ثم يدعو بذلو من ماء يصب على مكان التبول ويرشد الأعرابى في رأفة وهوادة إلى ما يحب عليه عمله في مثل هذه الحال (٥) ..

(١) التوره

(٢) الشفا ٢٥١/١

(٣) البخارى ٩/٨ (كتاب الأدب)

(٤) الشفا ٢٥٩/١

(٥) أنظر البخارى ١٤/٨ (كتاب الأدب)

ولم يحرم الحيوان حظه الأولى من رحمة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقد نهى أن يتخذ الناس الحى – أى الطير والحيوان – غرضاً توجه إليه السهام^(١).

وهو عليه السلام القائل «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلت فأحسنت القاتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، ولبيح أحدكم شفتره ، ولريح ذبيحته»^(٢).

ومن أعجب ما يروى في باب رحمة بالحيوان ، أنه عليه السلام حينما زحف بالألف ذات العدد إلى مكة لفتحها رأى كلبة تهر على أولادها ، وهن حولها ترضعن . فخشى الرسول عليه السلام أن يسحقها الزاحفون هي وأولادها دون أن يشعروا . فأمر جعيل بن سراقة أن يقوم حذاءها حتى لا يعرض لها أحد من الجيش ولا لأولادها^(٣)

وأنذر عليه السلام بعذاب الله من يعذب حيواناً : أليس هو القاتل : عذبت امرأة في هرة أو ثقها ، فلم تطعمها ، ولم تسقها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض^(٤)

حتى في الخلاف والقتال .. حتى حينما تتشابك الرماح بلا هواة، وتعانق السيف في وحشية .. حتى حينما تهلكي كثيراً من القيم ، ويستبدل بالتلحين الغضب والكرامة والبغضاء والتنقمة .. حتى في هذه الحال : شجاراً أو قتالاً : ليبيّن هناك الحد الأدنى من الإنسانية ، وهو كما قال الرسول – عليه السلام – «تخنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته»^(٥).

وضرب الوجه بسيف أو نحوه إن ترك تشوهها فيه عاش صاحبه طيلة حياته منغض النفس ، معدب القلب ، ناقا على الحياة والأحياء بعد أن فقد جمال صورته وروءوها . وإن كانت الضربة لطمة أو نحوها فهي الإهانة التي لا تغفر ، وقد تجرئ إلى القتل وسفك الدماء لذلك جعل الله سبحانه وتعالى – ضرب الوجوه من أشد ألوان التحقيق والإهانة في الآخرة :

﴿وَلَوْ تَرَى إِذَا يَتَوَفَّ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضَرِّبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرُهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرَقِ﴾^(٦)

(١) صحيح مسلم ٦٢٤ / ٤ (كتاب الصيد والذبائح)

(٢) السابق ٤ / ٦٢٢

(٣) إمتناع الأسماع ٣٦٦

(٤) مسلم ٥ / ٤٧٩

(٥) السابق ٥ / ٤٧٢

(٦) الأنفال ٥٠

نعم... في منطق الإسلام.. الرحمة مطلوبة.. الإنسانية لازمة.. حتى في مقام درج الناس فيه على إسقاط الرحمة والإنسانية من قائمة حسابهم.

ولذا كان هذا هو مكان الرحمة في قاعدة القيم الحمدية فلا عجب أن يربطها النبي بالخير بل يجعل الخيرياً وسع معانيه متوقفاً عليها «من يحرم الرفق يحرم الخير»^(١). إنه يحرم خير الدنيا حين يفقد - بفظاعته وقوسته - حب الآخرين فهم منه نافرون، وهم له كارهون .. إنه يحرم خير الآخرة، لأنَّه حصاد العمل الصالح في الدنيا والقلب الذي يفقد الرحمة لا يعرف الطريق إلى العمل الصالح. وكم من لمسة حانية فتحت مغالم القلوب وألانت شيماس الأخلاق، وكم من كلمة طيبة فرجت أزمات، وحلت مشكلات معضلات.

• • • •

ومن الصفات التي ترتبط بالرحمة أوثق ارتباط.. حلمه - عليه الصلاة والسلام - كان حليماً وسع بعلمه كل من أساء إليه .. لقد عاد إلى مكة فاتحاً بعد أن خرج منها مُهاجراً فاراً إلى ربه بيدينه .. بعد ثلاثة عشر عاماً من المعاناة والعذاب .. ولو أنه - إذ فتح مكة - قتل رعوس الكفر في قريش مالاً مالاً أحد، ولو أنه - إذ فتح مكة - صادر أموال أهلها ... أو على الأقل أموال رعوتها وزعمائتها لكان تصرفه هذا لبونا من ألوان «التعويض» أو «الاسترداد» بعد أن «نَبَّ» القريشيون أموال المسلمين ودورهم .

ولكن قلب محمد لم يتغلق عن هؤلاء الكافرين ، فظل إلى آخر لحظة يطمع في إسلامهم ، وكان دعاؤه لهم - وهم المسيئون إليه - «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» . وفي مكة ... المدينة المفتورة يخطب الرسول الظافر في الألف الذين اخْتَنَت رءوسهم ذلك وانكساراً وخوفاً من سيف القائد النبي الفاتح ، وجاء الحكم عفواً عاماً ورحمة دافقة وإنسانية لا تعرف التوقف «اذهبو فأنتم الطلقاء»^(٢) .

عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : كنت أنسى مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعليه ثُرد نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجذب بردانه جبنة شديدة . قال أنس : فنظرت إلى صفة عاتق النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبنته . ثم قال : يا محمد مُزِّلٌ من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه فصحيح ، ثم أمر له بعطاء^(٣) ..

(١) مسلم ٤٥٢ / ٥ (كتاب البر)

(٢) راجع سيرة ابن هشام ٣ / ١٦ - ٤٤

(٣) البخاري ٨ / ٢٩ (كتاب الأدب)

واعفو النبى عن المسىء كأن دأما عفو القادر الذى لا يعجز عن النصر والغلبة ولم يكن عفو الضعيف المستضعف، لأن التصرف هنا لا يسمى «عفوا» ولكنه استسلام المقهور المغلوب الذى يعجز عن غالبه ، ولا يملك له شيئا .

وهو عليه السلام كان يغوفى مواقف يكون العفو فيها أكبر من أن تتحمله طاقة البشر: عفا عن وحشى الحشى قاتل أحب الناس إلى نفسه : عمه حمزة . وعفا عن هند بنت عتبة التى دبرت مؤامرة قتل حمزة ، ولاكت كبده يوم أحد . واستبد به الحزن والغضب فى هذا اليوم المحزون ؛ فأقسم أن يقتل بعنه سبعين من الكفار فنزل قوله تعالى يذكره بمقام النبوة :

﴿ وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَوْقَبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَرَبْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾
﴿ وَاصْبِرُو وَمَا صَبَرْتُكُمْ إِلَّا لِلَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (١)

• • • • •

والغفو عند المقدرة وهو التطبيق العملى لفصيلة الحلم لا يتحقق فى نفس يعرف الغضب إليها سبيلا ، لذلك كان من أبرز صفات المتقيين كظم الغيط والعفو والإحسان إلى الناس (٢) . ويلفت الرسول عليه السلام أنظار المسلمين إلى أن القوى الحقيقى هو الذى يملك نفسه عند الغضب ، وليس هو الصرعنة الذى يغلب هذا ويصفع ذاك (٣) ...

• • • • •

وفي ذلك الرحمة أيضا تدور فصيلة الوفاء .. الوفاء للأصدقاء والأقارب وذوى الفضيلة والجحيران والخلدان. إنه الشبات على الإحسان وحسن الذكر وحسن العمل على بعد العهد واتساع الفراق . وكان الوفاء خليقة بارزة من خلائقه عليه السلام ، ومن عجائبها في ذلك أنه بعد إحدى الغزوات سأله أصحابه : هل تفقدون من أحد؟ قالوا : نعم فلانا وفلانا وفلانا . قال : هل تفقدون من أحد؟ قالوا نعم فلانا وفلانا وفلانا : ثم قال هل تفقدون من أحد؟ قالوا : لا . قال : لكنني أفقد جلبيبيا فأطلبوه» فطلب في القتلى فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فوقف عليه فقال : قتل سبعة ثم قتلوا . هذا مني وأنا منه ، فوضعه على ساعديه ليس له إلا ساعدا النبي - صلى الله عليه وسلم - فحرف له ووضع في قبره (٤) .

(١) التحل ١٢٦ و ١٢٧

(٢) «الذين ينفقون في المرأة والمرأة والكاظمين الغيظ والمكافئين عن الناس والله يحب الحسين» آل عمران ١٣٤

(٣) أنظر الحديث في البخاري ٣٤/٨ (كتاب الأدب)

(٤) مسلم ٥ / ٣٣٥ (كتاب الفضائل)

وَجُلَيْبِيبَ كَانَ مِنْ عَامَةِ النَّاسِ ، لَمْ يَكُنْ مِنْ وِجَاهِ الصَّحَابَةِ وَلَا أَغْنِيَاهُمْ بِلَ كَانَ قَصِيرًا دَمِيًّا ، رَفَضَ أَنْصَارِي وَزَوْجَهُ أَنْ يَزْوِجَهُ ابْنَتَهَا لِدَمَامَتِهِ لَوْلَا أَنَّ الْفَتَاهَ نَزَلتَ عَلَى أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ فَدَعَاهَا النَّبِيُّ بِالْخَيْرِ ، فَصَارَتْ هِيَ وَجْلَيْبِيبَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خَيْرًا^(١) ..

وَوَفَاءُ النَّبِيِّ لِلنَّسِيَّةِ خَدِيجَةَ بَعْدَ مَوْتِهَا أَشْهُرًا مِنْ أَنْ نَفَقَ عَنْهُ طَوِيلًا ، لَقَدْ ظَلَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — يَذَكُّرُهَا دَائِمًا بِالْخَيْرِ وَالْحُبِّ أَمَّا نِسَاءُهُ جِيَعاً وَخَاصَّةً عَائِشَةُ وَهِيَ أَحَبُّ نِسَاءٍ إِلَيْهِ بَعْدَ خَدِيجَةَ . قَالَتْ عَائِشَةُ : أَسْتَأْذِنُكَ هَالَةَ بَنْتَ خُوَيْلَدَ أَنْتَ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ — صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — فَعَرَفَ أَسْتَئْذَنَكَ خَدِيجَةَ فَارَّا حَلَقَ لِذَلِكَ قَوْلًا : اللَّهُمَّ هَالَةَ بَنْتَ خُوَيْلَدَ فَغَرَّتْ فَقَلَتْ : وَمَا تَذَكَّرَ مِنْ عَجَزَرٍ قَرِيبٍ شَهْرَاءُ الشَّدَقَيْنِ هَلَكَتْ فِي الدَّهْرِ فَأَبْدَلَكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا^(٢) . وَكَانَ إِذَا سَمِعَ مِنْ عَائِشَةَ مُثْلِ ذَلِكَ قَالَ : نَعَمْ خَدِيجَةَ : إِنِّي رَزِقْتُ حَبَّهَا^(٣) ..

وَمِنْ وَفَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ — هَا وَلَذِكْرِهَا أَنَّهَا — كَمَا تَرَوْيِي عَائِشَةَ : كَانَ يَذْبَحُ الشَّاةَ وَهَدِيَ مِنْهَا لِأَهْلِ خَدِيجَةَ وَأَقْارِبِهَا وَصَوَاحِبِهَا^(٤) .

وَيَرِسِّمُ الْإِمَامُ الْغَزَالِيُّ صُورَةً حَيَّةً نَابِضَةً لِلْوَفَاءِ الْحَقِيقِيِّ فَهُوَ التَّبَاتُ عَلَى الْحُبِّ ، وَإِدَامَتِهِ إِلَى الْمَوْتِ مَعَهُ ، وَبَعْدَ الْمَوْتِ مَعَ أَوْلَادِهِ وَأَصْدِقَائِهِ فَإِنَّهُ يَرَادُ لِلآخِرَةِ ، فَإِنَّ انْقِطَاعَ قَبْلِ الْمَوْتِ حَبْطَ الْعَمَلِ ، وَضَاعَ السَّعْيُ ، وَلِذَلِكَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّبْعَةِ الَّذِينَ يَظْلَمُهُمُ اللَّهُ فِي ظَلَمِهِ « وَرِجَالٌ تَحَبَّبُ فِي اللَّهِ ، اجْتَمَعُوا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقُ عَلَيْهِ » وَقَالَ بَعْضُهُمْ : قَلِيلُ الْوَفَاءِ بَعْدَ الْوَفَاءِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِهِ فِي حَالِ الْحَيَاةِ . وَلِذَلِكَ رَوَى أَنَّهُ — صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — أَكْرَمَ عَجُوزًا أَدْخَلَتْ عَلَيْهِ ، فَقَبَلَ لَهُ فِي ذَلِكَ قَوْلًا : « إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا أَيَّامَ خَدِيجَةَ ، وَإِنَّ كَرَمَ الْعَهْدِ مِنَ الدِّينِ^(٥) .



وَالصَّبْرُ هُوَ الْخَلِيقَةُ الْعَمَلِيَّةُ الَّتِي تَعْتَمِدُ عَلَى الرِّزَانَةِ وَقُدرَةِ الْعُقْلِ وَمُغَالَبَةِ الشَّهَوَاتِ وَأَهْوَاءِ النَّفْسِ . وَالصَّبْرُ نَوْعَانٌ : صَبْرُ عَنِ الْلَّذَائِذِ وَالْمَغْرِيَاتِ ، وَصَبْرُ عَلَى الشَّدَائِذِ وَالْكَرْبَاتِ ، وَالْأَوْلُ « امْتِنَاعٌ » وَالثَّانِي « ثَبَاتٌ »، الْأَوْلُ كَالصَّبْرُ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ بِالصَّيَامِ . وَالثَّانِي كَالصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى وَالْفَقْرِ وَالْحَرْمَانِ .. الخَ .

(١) أَسْدُ الْغَابَةِ / ١ ٧٧٢

(٢) مُسْلِمٌ / ٥ ٢٩٣ (كتاب الفضائل)

(٣) السَّابِقُ نَفَسُ الصَّفَحةِ

(٤) أَنْظَرَ الْبَخَارِيُّ / ٨ ١٠ (كتاب الأدب)

(٥) إِحْيَاءُ عِلْمِ الدِّينِ / ٥ ٩٧٥

وكلاهما له في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وجود وأي وجود . يقول عليه السلام: «ليس أحد ، أو ليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يدعون له ولدا ، وإنه ليعافيهم ويرزقهم » (١) ..

لقد كان عليه السلام يلبس في الغالب الشملة والكساء الخشن والبزد الغليظ ويفسر على من حضره أقبية الدياج المخوصة بالذهب ويرفع لمن لم يحضر (٢) ..

قالت عائشة - رضي الله عنها - «لم يتلئ جوف النبي - صلى الله عليه وسلم - سبعة قط ، ولم يبسط شكوى لأحد ، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى ، وإن كان ليظل جائعا يلتتوى طول ليلته من الجوع ، فلامنهه صيام يومه ، ولو شاء سأله جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها ، ولقد أبكى له رحمة مما أرى به وأمسح بيدي على بطنه مما به من الجوع ، وأقول نفسي لك الفداء ، ولو تبلغت من الدنيا بما يقوتك ؟ ! فيقول ياعائشة : مالي وللنها ، إخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا ، فضوا على حاهم ، فقدموا على رهم فاكرم ما بهم ، وأجزل ثوابهم ، فأجدنى استحقى إن ترتفت في معيشتي أن تقصر بي غدا دونهم ، وما من شيء أحب إلى من اللحوق بإخوانى وأخلاقى (٣) ..

إن زهادة الرسول - صلى الله عليه وسلم - هنا هي زهادة القادر الميسور وليس تقشف المحروم المقهور . أو بعبير آخر هي « الزهادة الإرادية » لا « الزهادة الاضطرارية الاستسلامية » . ولا أقصد بذلك أنه كان غنيا واسع الثراء ، وما - على ثراه - إلى جانب الشفف والزهد والتقشف . ولكنني أقصد أن الله عرض عليه الدنيا بمحلوها وروائحها .. عرض عليه - بصوت جبريل - أن يجعل له الأخشبين ذهبا فاختار جانب المساكين .. اختار جانب الكفاف حتى لا تشغله متع الحياة عن أصحابه الفرماديين .. حتى لا تشغله حلاوة الدنيا عن مرارة الجوع الذي يمزق قلوبها وأكبادها ، وهو القائل « ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس » (٤) ..

(١) البخاري ٨ / ٣١ كتاب الأدب

(٢) الشفاعة ١ / ٢٠٤

(٣) الشفاعة ١ / ٢٣٣

(٤) البخاري ٨ / ١١٨ (كتاب الأدب)

وَحِينَا مَالَتْ نَفْسُه بعْضَ الْمَلِيلِ عَنِ الْفَقَرَاءِ إِلَى بعْضِ أَغْنِيَاءِ قَرِيشٍ طَمِعاً فِي إِسْلَامِهِمْ ،
وَكَانَ شَرْطُهُمْ أَن يَخْلُوُ مَجْلِسَهُمْ مِنْ هُؤُلَاءِ الْفَقَرَاءِ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى وَاصِبْرْ نَفْسَكَ مَعَ
الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْعُنْيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعُدْ عِنْنَاكَ عَنْهُمْ
تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الْدُنْيَا وَلَا تُطِعَ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنِ ذِكْرِنَا وَأَتَبَعَهُ هَوْنَهُ
وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطَا (١)

وَحِينَا كَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُشْفُولاً بِأَمْرِ جَمَاعَةٍ مِنْ كَبَرَاءِ قَرِيشٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ جَاءَهُ
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَمْ مَكْتُومُ الْفَقِيرِ الْأَعْمَى — وَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ مُشْفُولٌ بِأَمْرِ الْقَوْمِ — يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَعْلَمَهُ
مَا عَلِمَهُ اللَّهُ ، فَعَبَسَ فِي وَجْهِهِ وَأَعْرَضَ عَنْهُ لِأَنَّهُ شَغَلَهُ عَنِ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَانُوا يَطْمَعُ فِي أَنْ
يَقْوِيَ الْإِسْلَامُ بِدُخُولِهِمْ فِيهِ ، فَنَزَلَ الْقُرْآنُ يُعَاتِبُ الرَّسُولَ عَتَابًا شَدِيدًا وَيَقْرِئُ حَقْيَقَةَ الْقِيمِ فِي
حَيَاةِ الْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمَةِ فِي أَسْلُوبٍ قَوْيِّ حَاسِمٍ ، كَمَا يَقْرِئُ حَقْيَقَةَ هَذِهِ الدُّعَوةِ وَطَبِيعَتْهَا :

عَبَسَ وَتَوَلََّ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَهُ
يَزَّكِي (٣) أَوْ يَدْكُرُ فَتَنَفَّعُهُ الَّذِي كَرَاهَ (٤) أَمَّا مَنْ آسَتَغْنَى (٥)
فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَزَّكِي (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ
يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَحْتَشِي (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذَكَّرَةٌ (١١)
فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مَكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مَطَهَّرَةٍ (١٤)
إِنَّمَّا يَدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامِ بَرَّةٍ (١٦) (٢)

وَصَارَ ابْنُ أَمْ مَكْتُومٍ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَاسْتَخْلَفَهُ
عَلَى الْمَدِينَةِ ، وَعَلَى الصَّلَاةِ بَهَا حِينَ خَرَجَ لِقَتَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي بَدْرٍ (٢) .. وَاسْتَخْلَفَهُ مِنْهُ أُخْرَى
حِينَ خَرَجَ لِغَزْوَةِ قَرَارَةِ الْكَذَّارِ (٤) وَقَرَبَهُ إِلَيْهِ يَوْمُ فَتْحِ مَكَةَ وَجَعَلَهُ بَيْنِ يَدِيهِ وَهُوَ يَسْعَى بَيْنِ
الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَكَانَ ابْنُ أَمْ مَكْتُومٍ يَنْشُدُ :

(١) الكهف ٢٨ وانظر السيوطي : أسباب النزول ٧٩-١١٥

(٢) عبس ١-١٦ وأنظر : السيوطي : أسباب النزول ١٧٩ ، قطب الظلال ٦/٣٨٢١

(٣) إِمْتَاعُ الْإِسْمَاعِ ٦٣

(٤) السابق ١٠٧

أرض بها أهلى وعوادى	نـ	يا حبذا مكة من وادى
أرض بها ترسخ أوتادى ^(١)	نـ	أرض بها أمشى بلا هادى

وكان النبي بعد ذلك إذا رأه هش له وبش وقال : أهلا بن عاتيني فيه ربى .

هذه هي طبيعة « الصبر الحمدى » .. صبر عن متع الحياة ولذائتها على سهولها ويسرها لواراد .. وصبر على الجوع والشظف وزهادة الحياة ... وصبر على إيذاء الكفار وجفائهم وكبرهم وعنجهيتهم فما أخنى وما استسلم .. وصبر مع أصحابه الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يرددون وجهه .

* * * *

وموقف النبي عليه الصلاة والسلام — من الفقراء والمساكين واحتضاؤه بهم في مجالسه يشدنا إلى صفة أخرى من صفاته عليه السلام وهي « التواضع » : ارتعش رجل في حضرته فقال له : « هون عليك فلست جبار ولا ملك ، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد »

نعم : لم يكن جبارا ولا ملكا ، فتواضع الله ، ورفعه الله ، خرج من مكة مهاجرا فارأ بيده ، وعاد إلى مكة فاتحا ظافرا ، ولكن لم يأخذ زهو الفاتحين ولا جبروت الغزاة ، بل عزل أحد قواد الفتح وهو سعد بن عبادة ، حين استشعر شيئاً من الزهو والخيلاء فقال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً وكان صوت النبوة أقوى وأعلى : لا يسعد ... بل اليوم يوم المرحمة ، اليوم قدس الحرمة ، اليوم أغى الله قريشاً^(٢) .

ودخل النبي الفاتح مكة وهو يركب ناقته القصواء ، وقد أحني رأسه على رجله تواضعاً حتى كادت لحيته تمس الرحل من شدة التواضع ، وهو يقول : لا عيش إلا عيش الآخرة^(٣) .

وقبلها اشتراك المسلمين في حفر الخندق ، وكان يحمل معهم التراب حتى يعلو الغبار وجهه ، ويعلق بلحيته ، وكان يشاركهم رجزهم ويرفع صوته بالرجز معهم^(٤) .

إن المتواضعين هم أهل الجنة ، أما المتكبرون فهم حطب جهنم ، حدث النبي — عليه السلام — أصحابه ذات يوم فقال : « ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضاعف

(١) السابق ٣٣٧

(٢) ابن هشام ١٧/٣ وامتناع الأسماع ٢٧٥

(٣) أنظر إمتحان الأسماع ٣٣٧

(٤) ابن هشام ١٤٣/٢

لو أقسم على الله لأبره . ألا أخبركم بأهل النار ؟ كلّ غنثٍ جَوَاظٌ مستكبر» (١) ..

وعلم يغتر الآدمي ويستبد به الكبر ؟ إن كان كبره لقوته بدنه ففرض ساعة يهدم قوة سنوات . والموت يخول الإنسان في لحظة من نبض الحياة إلى خود التراب «أيتكبر مال أصحاب ؟ إن المال أغلاه وأعلاه الملك ، والله هو مالك الملك يوتى الملك من يشاء ، وينزع الملك من يشاء ، ويعز من يشاء ويدل من يشاء .

هل كان في الأرض أعتى من قارون ؟ استبد به غرور المال .. فأوصله غروره إلى بغي الكفر .. وانتهى به كفره إلى الدمار

سُبْحَانَ اللَّهِ الَّذِي لَا يَحِبُّ الْفَرِحَةَ وَالْمُؤْمِنُونَ يَرَوُنَ الْفَرِحَةَ وَالْكُفَّارُ هُنَّا مَنْ لَا يَرَوُنَ الْفَرِحَةَ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٢٧) قَالَ إِنَّمَا أَوْتَنَاهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِنَا
أَوْلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً
وَأَكْثَرُ جَمِيعًا وَلَا يُسْعِلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٢٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ
فِي زَيْنَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَدْلِيُّنَا لَنَا مِثْلَ مَا أَوْنَى
قَدْرُونَ إِنَّهُ لَذُو حَظٍ عَظِيمٍ (٢٩) وَقَالَ الَّذِينَ أَتُوا الْعِلْمَ وَيَلْكُمُ ثَوَابَ
اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ أَمْنَى وَعَمِلَ صَلِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا أَصْدِرُونَ (٣٠) فَخَسَفَنَا
بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِتَّةٍ يَنْصُرُونَهُ وَمِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ
مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٣١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنُّوا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَانُ
اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنَّ مَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا
الْحَسَفَ إِنَّا وَيَكَانُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٣٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ تَجْعَلُهُمْ

(١) البخاري ٨ / ٢٤ (كتاب الأدب - باب الكبر)

لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَدْيَةُ لِلْمُتَّقِينَ ^ج ^(١)

إنها قصة الكبر الذي يتذكر للقيم الإيمانية في كل عصر .. فينسى الآدمي بشريته ، ويحاول أن ينماز الله حكميته ثم تكون الفاجعة المحتمية والانكسار الذي لاقيامه منه .. وكل عصر لا يخلو من «قارونه» أو «قاريءه» . ولو تدبّر الإنسان المتكبر قصة قارون كما أوردها القرآن لخلع نفسه من حمّة الغرور وعاش إنسانا «رفيعا» بفضيلة التواضع . ولعل أشد ألوان الكبر ماجاء من ناحية النسب .. من جهة الآباء والأجداد . وقد عالج أبو حامد الغزالى هذا النوع من الغرور بقوله : فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليتدارو قلبه بعرفة أمرين :

أحد هما : أن هذا جهل من حيث أنه تعزز بكمال غيره ، ولذلك قيل :
لئن فخرت بآباء ذوى شرف .. لقد صدقت ولكن بشّـ ما ولدوا

فالمتكبر بالنسبة إن كان خسيسا في صفات ذاته ، فمن أين يجير حسته بكمال غيره ، بل لو كان الذى ينسب إليه حيا لكان له أن يقول «الفضل لي ومن أنت؟ وإنما أنت دودة خلقت من بولى . أفترى أن الدودة التي خلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التي خلقت من بول فرس؟ هيأت بل هما متساويان ، والشرف للإنسان لا للدودة .

الثانى : أن يعرف نسبة الحقيقى فيعرف أباه وجده :

فإن أباه القريب نطفة قطرة ، وجده البعيد تراب ذليل .. فمن أصله التراب المهن الذى يداوس بالأقدام ، ثم خمر طيبته حتى صار حماً مسنوناً كيف يتكبر؟ وأحسن الأشياء ما إليه انتسابه . إذ يقال يا ذل من تراب ، ويا أنتن من الحمام ، ويا أقدر من المضبغة . فإن كان كونه من أبىنه أقرب من التراب فنقول افتخر بالقريب دون البعيد .. فالنطفة والمضبغة أقرب إليه من الأب ، فليحقر نفسه بذلك . ثم إن كان ذلك يجب رفعه لقربه فالأب الأعلى من التراب ، فمن أين رفعته؟ وإن لم تكن له رفة فمن أين جاءت الرفة لولده؟ فإذا أصله من التراب ، وفصيله من النطفة ، فلا أصل له ولا فصل ، وهذه غاية خسدة النسب . فالأصل يوطأ بالأقدام ، والفصل تغسل منه الأبدان ، وهذا هو النسب الحقيقى للإنسان ، ومن عرفه لم يتكبر بالنسبة ^(١) ..

(١) الفصص : ٧٦ / ٨٣ . فبغى عليهم ظلمهم أو تكبر عليهم بعناء ، لتنبه بالعصبة : لتشتملهم وتتمثل بهم . لاتفرج : لا تبطّر بکثرة المال . القرون : الأمم . زيتها : مظاهر غناه وترفه . ويلكم : زجر عن هذا التقى . لا يلقاها : لا يوقف للعمل للمثبتة . ويکأن الله : نعجم لأن الله . يقدر : يضيق على من يشاء .

(٢) إحياء علوم الدين ١١ / ١٩٧٤

ومع أن محمدا هو خاتم النبيين ، وأكرم البشر على الله ، وإمام الأنبياء في الإسراء إلا أنه - تواضعنا منه عليه السلام ، رفض أن يفضل على سائر الأنبياء « لا تفضلوني على يومنَ بن هنْيَ ، ولا تفضلوا بين الأنبياء ، ولا تُخْبِرُونِي على موسى ، ونحْنُ أُولَئِكَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ ، وَلَوْلَيْسْتَ مَا لَبَثَ يُوسُفَ فِي السِّجْنِ لَأَجْبَتَ الدَّاعِيَ » (١) .
ونداء أحد المسلمين ذات مرة « ياخير البرية » فقال « ذاك إبراهيم » (٢) .

وفي هذا المقام علينا أن ندرك أن بين الفضيلة والرذيلة خيطا رفيعا يجب أن نفتح أعيننا له حتى لا تزدَّ بنا أقدامنا - بحسن نية - من الحق إلى الباطل ، ومن الفضيلة إلى الرذيلة . وبصورة أكثر تحديدا علينا أن نعي أن بين فضيلة التواضع ورذيلة الضعف خيطا رفيعا ، جد رفيع : فالتواضع نزول من كبار النقوس وعظاء العقول إلى من هم أقل علينا وفهمها ، وأخفض منزلة وعيشا ، والتبسيط معهم ومعالجة أمورهم ومحاولة الارتعان بهم مكانا ووعيا ونظرا .
أما الضعف فهي في إيجاز - إدعاء التواضع أو النزول إلى مستوى السفلة باسم التواضع . بينما حقيقة الأمر إذلال للنفس واحتقارها في سبيل هدف دنيوي رخيص خسيس .
كذلك الغرور أو الكبر إنه تعالى على خلق الله ، وزهو منفوش ، ونظر إلى بني آدم من على قمة فضائل النفس وصلاح القلب ونقاء الصميم ..

أما استعلاء الإيمان فيعني الترفع على طينية الأرض والزهد فيما يتکالب عليه الناس ويريقون ماء الوجه من أجله ، إنه العزة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ هُنَّ الْمُغْلَظُونَ (٣)

فاعتزاز المؤمن بربه ودينه ونفسه يمنحه طاقة المواجهة : مواجهة الحياة بالعمل الطيب ، ومواجهة المحتاجين بكل عون شريف ومواجهة أعداء الدين والحق والوطن بالقوة والصلابة والشموخ ، ثم تكون العاقبة في النهاية .. الحسنى التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا أَلْحَسْنَى وَزِيَادَةً

وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَرْتَرًا وَلَا ذَلَّةً أَوْ لَتَّكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَلِدُونَ (٤) وَالَّذِينَ كَسَبُوا الْسَّيِّئَاتِ جَزَاءً سَيِّئَةٌ بِإِثْلِهَا وَتَرَهُقُهُمْ

(١) الشنا ١ / ٢٦٥

(٢) السابق نفس الصفحة

(٣) المتفقون ٨

ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَانُوا أَغْشَيْتُ وُجُوهَهُمْ قَطْعًا مِنَ الَّيلِ
مُظْلِمًا أَوْ لَتِكَ أَصْحَبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا حَلِيلُونَ

(١)

ويستعلاء الإيمان .. يجعل الحقيقة الإيمانية في نظر صاحبها أقوى وأثري من أقطار هذه الأرض بما جمعت ، وتبعه الحمية التي لا تعرف التوقف ولا الماهنة فإذا هو الكاسب في كل حال : إن انتصر فهذا كسب عظيم ، وإن استشهد فذاك كسب أعظم .

لذلك كان المؤمن من واقع هذه العزة ، ومن معين هذا الاستعلاء الإيماني مطالبا بالتسك بمحققه وعدم التفريط فيه أو النزول عن بعضه .

لقد جاء مسيلة الكذاب — كما ذكرنا من قبل — إلى المدينة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ومعه خلق كثير من بنى حنيفة . وكان مسيلة بقوة شخصيته وقدرته على الاستهواء في مركز القيادة منهم ، وكان بتوحيفه من أقوى قبائل العرب وأعتاها وأمنعها . قال مسيلة « لو جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته » أشار النبي إلى قطعة جريدة في بيده وقال « لوسائلتني هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن أتعدي أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعرقلتك الله .. ». (٢)

وكان النبي يستطيع أن يصانع هذا الزعيم القوى ولكن النبوة في هذه الحال تكون قد تخللت عن « المنطق الإيماني » في الاستعلاء الذي يعتمد على المعين الرباني في تصريف الأمور .

وعلى نفس الدرب — درب الاستعلاء الإيماني — سار الصديق أبي بكر .. حين أصر على مقاتلة المرتدين لمنعه عقال بغير كانوا يؤدونه رسول الله .

وعلى نفس الدرب سار عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — في مواجهة الملك الغساني : جبلة بن الأبيهم حين أصر أن يلطمها الفزارى الفقير كما لطمه (٣) .

وعلى السدرب نفسه سار عثمان بن عفان — رضي الله عنه — حين زفنه أن يسلم أحد جنوده لعصابة السبية والمأجورين الذين حاصروه يوم الدار ، وكان دمه ثمناً لوقف

(١) يومن ٢٦ ، ٢٧ . لا يرهق : لا يغنى . قتر : دخان معه سواد . عاصم : مانع من عذابه . أغشيت : كسيت وألبست .

(٢) مسلم ٥ / ١٢٢ (كتاب الرؤيا)

(٣) أنظر القصة كلها في الأغاني ١٥ / ٥٤٦٥ - ٥٤٦٧ وفي سيرة عمر بن الخطاب للطبطاوين ٣٦٠ - ٣٦٥ .

استعلاء إيماني يدركه أمثاله من المدّة المهدّين (١) ..
وهو نفس الدرب الذي هو فيه على بن أبي طالب شهيداً بعد أن رفض التهاون في حق
من حقوق الخلافة الرشيدة .

واستعلاء الإيمان يقتضي أن يكون المؤمن شجاعاً في الحق صريحاً في القول صادقاً في
العزيمة لا يعرف الانحناء والالتواء والخنوع والاستسلام والتهاون في عزة النفس وشرف
الذات .

وهذا المفهوم لاستعلاء الإيمان ومن هذا المنطلق الواضح أرى من الأمانة أن نقف قليلاً
أمام حديث رسول الله قد يثير شبهة عند البعض ، أو خلطًا في الفهم ، وكل ذلك لا أساس له
إذا فهمنا الحديث فيها جيداً . ونص الحديث — وهو يروى عن عائشة رضي الله عنها — أن
رجلًا استأذن النبي — صلى الله عليه وسلم — فلما رأه قال : بئس أخو العشيرة وبئس ابن
العشيرة ، فلما جلس تطلّق النبي — صلى الله عليه وسلم — في وجهه وانبسط إليه ، فلما
انطلق الرجل قالت له عائشة : يا رسول الله : حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ، ثم
تطلقت في وجهه وانبسطت إليه . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : يا عائشة :
متى عهَدْتِنِي فحَسَّاشَا ، إن شر الناسِ منزلةٌ يَوْمَ القيمةِ مَنْ ترَكَهُ النَّاسُ اتقاءً
شره (٢) .

فقد يتّهم متّهم أن موقف النبي السابق في صورته يتعارض مع ما عرف عنه من جرأة
في الحق ووضوح في أقواله وأفعاله . كموقفه مع مسيّلة الكذاب ، وقد يتّهم أن هذه المدارسة
تعد لوناً من ألوان التنازل عن استعلاء الإيمان .
ودفعاً لهذا الوهم أو هذه الشّبهة علينا أن نعي ما يأتي :

(١) ذكر الإمام النووي أن المعنى بهذا الحديث هو عبيدة بن حصن (٣) . وقد كان من
الأعراب الجفاة المؤلفة قلوبهم ، ومن جفائه أنه دخل على النبي من غير إذن فقال له : أين
الإذن ؟ فقال : ما استأذنت على أحدٍ من مضرٍ .
وكان من ارتد وتبع طليحة الأسدى ، وقاتل معه ، فأخذ أسيراً . وحمل إلى
أبي بكر — رضي الله عنه — فكان صبيان المدينة يقولون : يادُو الله أكفرت بعد إيمانك ؟
فيقول : ما آمنت بالله طرفة عين .

(١) راجع عثمان بن عفان للدكتور هيكيل ١١٥ - ١٢٤ . والجندى المشار إليه هو كثيرون من الصّلت الكندى أحد الذين
دافعوا عن عثمان وهو محاصر في بيته . وقد طلب المحاصرون تسليم عثمان وقال : « لم أكن لأقتل رجلاً نصرني
وأنتم تريدون قتلي » فاقتحموا الدار وأسلعوا النار في بابها وسقّتها وقتلوا عثمان .

(٢) البخارى ٨ / ١٦ (كتاب الأدب) ومسلم ٥ / ٤٥٢ (كتاب البر والصلة والآداب) .

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٥ / ٤٥١

ودخل على عمر مرة فقال له : يا ابن الخطاب ، والله ما تقسم بالعدل ولا تعطى الجزول .
ومع أن عثمان بن عفان كان قد تزوج ابنته إلا أنه دخل عليه ذات يوم ، وأغلظ له
القول وأساء معه الأدب ^(١) .

فتاريخ الرجل يقطع بصدق وصف النبي عليه السلام له .

(٢) انبساط النبي - صلى الله عليه وسلم - له وطلاقته وبشاشة في وجهه والإلامة القول له
إنما كان تألفا له ولأمثاله على الإسلام .

(٣) عرف النبي صلى الله عليه وسلم - بالحياء والأدب والبشاشة والتبرّم في وجوه
الآخرين حتى الذين يسيئون إليه . عن قيس بن حرب قال : « ماحجبني النبي - صلى
الله عليه وسلم - منذ أسلمت ، ولا رأني إلا وتبسم في وجهي » ^(٤) . وقصص إحسانه
إلى من أساء إليه أكثر من أن تحصي .

فاستقباله لعيينة بهذه الطريقة إنما هو من باب الأدب والحياء وإكرامه لمن قصده ،
وذلك لا يتعارض مع وصفه للرجل بما وصف . يقول النووي « ولم يدخله النبي - صلى
الله عليه وسلم - ولا ذكر أنه أثنى عليه في وجهه ولا في قفاه ، إنما تألفه بشيء من الدنيا
مع لين الكلام ^(٥) ..

(٤) ولا تعارض بين بشاشة النبي ولينه في القول مع عيينة ، وشددته في القول مع مسلمة
الكذاب لأن الأول لم ينل بكلامه من أصل العقيدة ونظام القرآن والإسلام في حياة
النبي على الأقل ، لذلك كان النبي يأمل دائماً أن ينتفع الإسلام بهذا الأعرابي الجافى
القوى الشجاع وهو الذي وصف في التاريخ بأنه من « الزعماء أو القادة الجرارين » أى
القادرين على الاقتحام ، لذلك كان النبي دائماً يحاول كسر العنجية فيه ، وتحطيم
الساتر الصفيق الذي يقف به عند العتبة الأولى من عقبات الإسلام فأعطاه من سهم
المؤلفة قلوبهم

وكذلك أبو بكر الصديق ، ولو أنه نفع الإسلام بطاقة وشجاعته لكن قائداً عظيماً في
سلسلة القادة العظام ، مثل سعد و Khalid و عمرو بن العاص ، ولكنه وقف بإسلامه عند
أولى العقبات .. ومات مسلماً على أية حال .

(١) انظر أسد الغابة ٤ / ٣٣١

(٢) البخاري ٨ / ٢٩

(٣) مسلم السابن

أما مسيلمة فجاء إلى المدينة مساوماً . يطلب مقابلاً ضخماً لإسلامه وإسلام قومه « إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته ». فالمسألة هنا في حاجة إلى حسم قاطع لا يعرف الملاينة أنها قضية من القضايا العليا ، وكان قول النبي هو الفيصل الحاسم ، رفع قطعة جرید في يده وقال : لوسائلى هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن أتعذر أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ». .

وعاد مسيلمة إلى وطنه موكوناً منكوساً وادعى النبوة، وكتب محمد عليه السلام كتاباً يقول فيه « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله : أما بعد فإنني قد أشركت معك في الأمر ، وإن لنا نصف الأرض . ولقيش نصفها ، ولكن قريشاً قوم يعتدون ». .

وكان رد النبي عليه « من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب .. فالسلام على من اتبع المهدى . أما بعد فإن الأرض يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ». . وانتهى أمره على ما هو معروف في التاريخ ، قتل كافراً .. ومزق قومه في موقعة اليمامة ، ولو استجواب النبي لطلبه أو بعض طلبه لكان في ذلك تنازل عن « الاستعلاء الإيمانى » وحاشا للنبي أن يفعل ذلك فللله العزة ولرسوله وللمؤمنين .

نعم إن الملاينة والشدة يصدران من محمد في مواجهة رجالين جافيين غير سوين ، لا يدلان على تناقض في طبيعة المعالجة ولكن يدلان على واقعية وبعد نظر ، إنه تصرف من يعطي الشخصية ما يناسبها ، ومن يعطي الموقف أنساب ما يعطي من الأقوال والأفعال ، فالطيب يلتجأ إلى تصميم جرح وقد يشير بقطع العضو الجريح وهو في كلتا الحالتين الطبيب البارع . والطيب يشير على مريضه بالدواء المطلوب وقد يستجيب مريض ، ويتعصى على الدواء مريض فيمضى الأول في طريق الشفاء ، وتتكالب على الثاني العلل والأدواء . والطيب هو الطبيب براءة وذكاء وقدرة وبعد نظر .

* * * * *

الرحة . الأمانة . الحلم . الوفاء . الصبر . الرزد والتشفف . التواضع . العزة . واستعلاء الإيمان قليل جداً من كثير جداً من « قائمة القيم » التي كانت لهذا الرجل العظيم الذي أدبه رباه فأحسن تأديبه . هذا الرجل العظيم الذي جمع كل هذه الخصائص والصفات ، لو لم يكن نبياً بأمر الله لكان نبياً بداعية هذه الشمائل الوضيعة العريضة . إنه كان وسيظل « المثل الأعلى » للبشرية في كل العصور . ولكن هذه « المثالية » أو هذه « العلوانية » هل كانت « ملائكة » أكبر من دنيا الناس وفوق طاقة البشر ؟
وفي مقام الإجابة عن هذا السؤال لنخرج من حسابنا « خصوصياته » عليه السلام ، فهو مما يدخل في « مقام النبوة » وقد نهى النبي – عليه السلام – عن التمثال به فيها ، وشدد في هذا النهي .

ولنخرج من حسابنا كذلك .. أمور المعاش التي تخضع للخبرة والعادات والتقاليد والأعراف ، فقد حدد النبي موقفه منها في قوله « أنت أعلم بشؤون دنياكم » الزراعة . الصناعة .. المأكل .. المشرب .. السفر. كلها أمور تخضع لقواعد الاجنباد والتطور على مدار الزمن بشرط ألا تصطدم بقواعد من قواعد الشريعة الغراء .

يبقى بعد ذلك هديه عليه السلام في العادات وال الحرب والسلم وقواعد الحكم والشوري ، وقواعد السلوكية انعكاساً لخصائصه الخلقية العظيمة من صدق وشجاعة وكرم وعفة ... الخ وكل ذلك نحن مطالبون به . وهو في كل ذلك كان خير تجسيد « للمثالية الواقعية » ... خير تجسيد « للوسطية العادلة » .

وتؤكدنا لنفسى « يوتوبية المثال » أو خياليته كان تركيز القرآن الكريم على « بشرية محمد » : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَّهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلَيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝ (١)﴾
 ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَّهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ۝
 وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ (٢)﴾

وهذه « البشرية » يتصدى لها - بأمر ربه - للكفار حين يطلبون مقابل إيهامهم به .. يطلبون « قائمة » قد تكون سهلة هينة على الله ولكنها فوق طاقة « البشر » من ناحية ، وتحقيقها لن يخدم قضية الإيمان من ناحية أخرى :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ تَحْسِيلٍ وَعِنْبٍ فَنَفَجِرَ الْأَنْهَارَ خَلَلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَنِ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّىٰ تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَئُهُ ۝ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولاً ۝ (٣)﴾

(١) الكهف ١١٠

(٢) فصلت ٦

(٣) الإسراء ٩٠ - ٩٣ . ينبعوا : عيناً لا يناسب ما وها . كسفاً : قطعاً . قبيلاً : مقابلة وعياناً أو جماعة . زخرف : ذهب .

ومن منطلق هذه «البشرية»، من منطلق هذه «المثالية الواقعية» كان الأمر بطاعة الرسول ، وهي طاعة تدخل في حدود الإمكان :

(١) ﴿ يَأَيُّهَا أَلَّذِينَ إِذْ آمَنُوا أَطْبَعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلُّوْا عَنْهُ وَإِنْ تَسْمَعُونَ فَقُلْ أَطْبَعُوا اللَّهَ وَأَطْبَعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلُّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حَمِلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حِيلَتْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الْمَرْسُولِ إِلَّا أَبْلَغَ الْمُبْيَنَ ﴾ (٢)

(٣) ﴿ وَأَطْبَعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لِعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٤)

(٥) ﴿ وَمَا أَنَّكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَيْكُمْ عَنْهُ فَاقْتَبُهُوا ﴾ (٦)

(٦) ﴿ وَمَنْ يُطِيعَ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسْنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (٧)

فجعل تعالى طاعة رسوله طاعته ، وقرن طاعته بطاعته ، ووعد على ذلك بجزيل التواب ، وأوعد على خالفته بسوء العقاب ، وأوجب امثال أمره واجتناب نهيه ..

قال المفسرون والائمة : طاعة الرسول في التزام سنته والتسليم بما جاء به .. . وقالوا ما أرسل الله من رسول إلا فرض طاعته على من أرسله إليه . وقالوا : من يطع الرسول في سنته يطع الله في فرائضه ، وسئل سهل بن عبد الله عن شرائع الإسلام فقال : « وما أتاكم الرسول فخدوه » وقال السمرقندى : يقال : أطیعوا الله في فرائضه والرسول في سنته .. . وقيل أطیعوا الله فيما حرم عليكم والرسول فيها بلغكم ، ويقال : أطیعوا الله بالشهادة له بالربوبية ، والنبي بالشهادة له بالنبوة (٧) .

• • • • •

(١) الأنفال ٢٠

(٢) التورٰ ٤٥

(٣) آل عمران ١٣٢

(٤) النساء ٨٠

(٥) الحشر ٧

(٦) النساء ٦٩

(٧) أنظر الشفا ٢ / ١٧ - ١٨

وأيا كان التفسير فالآقوال كلها تلتقي على ضرورة طاعة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأن طاعته من طاعة الله ، ولا يستقيم إسلام من يفرق بين الطاعتين ويدعو مذهب من يقول عندنا كتاب الله يكفيانا .

فإذا ما آمنا بأن مثالية الرسول كانت «مثالية واقعية» وأن طوابعه الأخلاقية تمثل «علوانية أرضية» ، وأننا مأمورون بطاعته على مدى المصور .. ولن الأبد بحكم عمومية الرسالة وخاتمية النبوة ، فإن إيماننا بكل ذلك يقودنا إلى أول ملمع من ملامح المنهج الحمدي في غرس القيم في نفوس المسلمين ، وهو أنه – عليه السلام – كان قدوة عملية صالحة للMuslimين : مانهى عن شيء وأتاه ، وما أمر بشيء إلا وكان أسرع الناس إلى القيام به . وحيثما شرعت الصلاة كان أول مقال : صلوا كما رأيتموني أصلى .

وفي ساعات الفزع كان هو أسرع الناس إلى النجدة والتصدى وإغاثة الملهوف : فرع أهل المدينة ليلة لصوت رهيب . وجلبة عاتية مزقت نيات الليل البهيم ، فانطلق أناس قبيل الصوت ، فتلقاهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – راجعاً قد سبقهم إلى الصوت ، وقد استبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عري ، والسيف في عنقه وهو يقول : «لن تراغوا» (١) .. قال على بن أبي طالب – كرم الله وجهه – إنما كنا إذا حمى الأساس وأحررت الحدائق اتقينا برسول الله – صلى الله عليه وسلم – فإنه يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، وقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي – صلى الله عليه وسلم – وهو أقربنا إلى العدو ، وكان أشد الناس يومئذ أساساً (٢) .

وكان عليه السلام – قدوة مثلى لا في موقع النصر – فحسب – ولكن في محن الانكسار : في أحد اشتتد الكرب بال المسلمين وانكشفوا عنه بعد أن خالفوا أمره .. وخلص إليه الكفار .. فكسرت رباعيته ، وشج وجهه وجرحت شفته ومع ذلك ثبت في موقعه مع قلة من المؤمنين تعدد على أصابع اليد الواحدة ، وتمكن – ودمه يغطي وجهه – من قتل رأس من رؤوس الكفر هو أبي بن خلف طعنه رسول الله برمخ في عنقه .. وبلغ من فزعه أن قال وهو يختصر : «والله لو بصدق على محمد لقتلني» (٣) .

وفي المرحلة الأولى من غزوة حين اشتتد الزهو بال المسلمين وأعجبتهم كثراهم .. انحدرت عليهم هوازن .. وانكشف الكل عن رسول الله إلا القلة القليلة .. ووقف محمد قدوة

(١) أنظر الشفا ١ / ٢٣٨ (عرى : أي بلا سرج . لن تراغوا : أي لن تفزعوا لأنك ليس هناك مايفزع) .

(٢) السابق ١٣٧ (أحررت الحدائق : كنائس عن الشعور بالشدة والبلاء . نلوذ : نتفى ونختمى)

(٣) راجع بن هشام ٢ / ٢١ – ٢٥

فِي الشَّبَاتِ وَالشَّجَاعَةِ وَهُوَ يَنْادِي الْكُثُرَ الْمُفْرُوضَةَ «أَينَ أَيْهَا النَّاسُ؟ هَلْمَوْا إِلَى ، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»^(١) ..

وَفِي الْخَنْدَقِ – كَمَا أَخْنَنَا فِي الْفَصْلِ السَّابِقِ – كَانَ يَحْضُرُ مَعَ أَصْحَابِهِ وَيَحْمِلُ مَعْهُمُ التَّرَابَ وَالْعَبَارَ يَغْطِي وَجْهَهُ وَلْحِيَتَهُ ، وَهُوَ يَشَارِكُهُمْ أَهَازِجَهُمْ وَأَرْجَازَهُمْ . نَعَمْ : بِالْقَدْوَةِ الْحَسَنَةِ اسْتَطَاعَ النَّبِيُّ أَنْ يَغْرِسْ قِيمَ الْإِسْلَامِ فِي نُفُوسِ أَصْحَابِهِ ، وَأَنْ يَعْقِنَ فِي نُفُوسِهِمْ حُبَّ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْوَفَاءِ وَالْإِخْلَاصِ .

وَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَهِزُّ الإِيمَانَ بِالْقِيمِ الْإِنْسَانِيَّةِ مُثْلَ الْانْفَصَامِ بَيْنَ «الْدَّاعِيِّ» وَ«الْمَدْعَوِينَ» «بَيْنَ الْمُعْلَمِ» وَ«الْمَرْيَدِينَ» بَيْنَ الدُّعَوَةِ وَالْتَّنْفِيدِ .. بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَهُذَا هُوَ الَّذِي نَعَاهُ اللَّهُ – سَبِّحَانَهُ وَتَعَالَى – عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ :

﴿أَتَأْمَرُونَ النَّاسَ بِالْإِيمَانِ وَتَنْسُونَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تُنَذَّلُونَ أَلَا كِتَابٌ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٢)

عَنْ أَسَامِةَ بْنِ زَيْدٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ : يُؤْتَيُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَيَقُولُونَ : يَا فَلَانَ مَالِكُ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمِرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ : بَلِيْ : قَدْ كَنْتَ آمِرًا بِالْمَعْرُوفِ وَلَا أَتَيْتَ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتَيْتَهُ»^(٣) ..

وَالْدَّاعِيَةُ حِينَ يَكُونُ قَدْوَةً حَسَنَةً لِلنَّاسِ فَيَا يَدْعُوكُ إِلَيْهِ إِنَّمَا يَقْدِمُ بِذَلِكَ الدَّلِيلِ الْعَمَلِيِّ عَلَى «وَاقِعِيَّةِ» الدُّعَوَةِ ، وَإِمْكَانِيَّةِ أَخْذِ النَّاسِ أَنفُسَهُمْ بِهَا ، فَيَسْعَى النَّاسُ إِلَيْهَا هَرُولَةً ، وَيَرِيدُ الْمُؤْمِنُونَ بِهَا إِيمَانًا .

وَكَمْ أَخْفَقْتُ دُعَوَاتِي – عَلَى بَرِيقَهَا وَرَوَاهُ مِبَادِئَهَا – لِأَنْ قِيَادَتِهَا وَدُعَاتِهَا لَمْ يَكُونُوا لِلنَّاسِ أَسْوَةً وَقَدْوَةً ، فَكَانُوا كَبْنَى إِسْرَائِيلَ .. أَمْرُوا النَّاسَ بِالْبَرِ وَنَسُوا أَنفُسَهُمْ .

● ● ● ●

وَمُلْمِحُ ثَانٍ مِنْ مَلَامِحِ النَّبِيِّ التَّرْبُوِيِّ الْمُحْمَدِيِّ وَهُوَ يَسْتَغْلِلُ الْوَقَائِعَ وَالْأَحْدَاثَ لِلتَّوْجِيهِ وَالْإِرْشَادِ : أَمْرًا بِالْخَيْرِ وَنَهَا عَنِ الشَّرِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مُثْلِ هَذِهِ الْحَالِ كَانَ يَنْطَلِقُ مِنَ الْخَاصِ إِلَى الْعَامِ وَمِنَ الْفَرْدِيِّ إِلَى الْجَمَاعِيِّ .

وَرَبِّطَ التَّوْجِيهِ بِالْوَاقِعَةِ يَوْضِعُ طَبِيعَةَ التَّوْجِيهِ وَيَقْنَعُ النَّاسَ بِهِ مِنْ نَاحِيَّةِ وَيَكْتُبُ هَذَا التَّوْجِيهِ الْاسْتِقْرَارِ وَالْدِيمُونَةِ مِنْ نَاحِيَّةِ أُخْرَى ، وَذَلِكَ لِارْتِبَاطِهِ بِمَحْدُثٍ يَسْهُلُ تَذْكُرَهِ وَاسْتِعْدَادِهِ ، فَهُوَ نَوْعٌ مِنْ رَبْطِ التَّجَرِيدِيِّ بِالْمَحْسُوسِ وَكَأْنَاهُ الْحَدِيثُ هُنَا يَقُولُ بِالدُّورِ الَّذِي تَقْوِيمُ بِهِ «الْوَسَائِلُ الْتَّعْلِيمِيَّةُ» فِي عَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِ .

(١) أَنْظُرُ السَّابِقَ / ٣ / ٥٠ - ٨٣٧ (كتاب الزهد)

(٢) البرمة / ٤٤

(٣) مسلم / ٥ / ٨٣٧ (كتاب الزهد)

عن حكيم بن حزام قال : سألت النبيـ صـى الله عليه وسلمـ فـأعطـانـى ثم سـأـلـهـ ، فأـعـطـانـىـ ، ثـمـ سـأـلـهـ ، فأـعـطـانـىـ ، ثـمـ قالـ لـيـ يـاـ حـكـيمـ : إـنـ هـذـاـ مـالـ خـصـيـرـةـ حـلـوـةـ فـنـ أـخـذـهـ بـطـيـبـ نـفـسـ بـُورـكـ لـهـ فـيـهـ ، وـمـنـ أـخـذـهـ بـإـشـرـافـ نـفـسـ لـمـ يـارـكـ لـهـ فـيـهـ ، وـكـانـ كـالـذـىـ يـأـكـلـ وـلـاـ يـشـيـعـ ، وـالـيـدـ الـعـلـيـاـ خـيـرـ مـنـ الـيـدـ السـفـلـيـ »^(١) ..

فالواقعة الخاصة هنا .. واقعة مسلم متصلع إلى المال منهوم مجده فليعطيه الرسول حتى يسكن وحش النهم ولو إلى حين .. ثم بعد ذلك ليأت دور القيم الخالدة : على المسلم أن يتحلى بالرضا والقناعة وعفة النفس والاعتماد عليها في التكسب ، وليتسع المقام كذلك لتقرير قاعدة اقتصادية واجتماعية وانسانية وهي : اليد العليا خير من اليد السفلية .. المعطى خير من الآخذ . ولننظر في مجتمعاتنا المعاصرة : إن الدولة التي تعطي المنح وتمتنع القروض والمعونات هي اليد العليا .. هي صاحبة المكانة العظمى بين الدول والمجتمعات . أما الدول الآخذة فهي المتخلفة أو « النامية » تأدبا ... هي اليد أو الأيدي السفلية التي تمدد دائماً لتسعدـ ولوـ إلىـ حينـ بـالـعـطـاءـ السـاقـطـ مـنـ الـيـدـ أوـ «ـ الأـيـدـيـ »ـ الـعـلـيـاـ .

وحينما تسرق المرأة الخزومية « الشريفة » وحين تشعر قريش بأنها ستُحدِّي صبيها الفزع وتهرب إلى الحِبْ . بن الحِبْ أَسَمَةَ بْنَ زَيْدَ لِيُشْفَعَ لَهَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِـ صـى الله عليه وسلمـ وـيـغـضـبـ الرـسـوـلـ وـيـقـوـلـ مـسـتـكـراـ : «ـ أـتـشـفـعـ فـيـ حـدـ مـنـ حـدـودـ اللـهـ؟ـ؟ـ ثـمـ قـامـ فـخـطـبـ قـائـلاـ «ـ يـاـ يـاهـ النـاسـ ، إـنـاـ ضـلـلـاـ مـنـ قـبـلـكـ أـنـهـمـ كـانـواـ إـذـاـ سـرـقـ الشـرـيفـ تـرـكـوهـ ، وـإـذـاـ سـرـقـ الـضـعـيفـ فـيـهـمـ أـقـامـواـ عـلـيـهـ الـحـدـ ، وـأـئـمـ اللـهـ لـوـأـنـ فـاطـمـةـ بـنـتـ مـحـمـدـ سـرـقتـ لـقـطـعـ يـدـهـاـ »^(٢) .

الناس أمام القانون سواء .. المراكز الاجتماعية لا تعطل قوة القانون ، التفريق في المعاملة القانونية أدى و يؤدي إلى ضياع الأمم وهلاكها .
مبادئ وقواعد عظيمة قررها الرسول عليه السلامـ بـمـنـاسـبـةـ خـطـيـةـ وـقـعـتـ فـيـهـ اـمـرـأـةـ مـنـ عـلـيـةـ الـقـوـمـ .

• • • •

فالنبيـ كانـ يـعـتـمـدـ عـلـىـ الـوـاقـعـ الـمـشـهـودـ فـتـقـرـيرـ الـمـبـادـىـءـ الـإـنـسـانـيـةـ وـقـرـيبـ مـنـ هـذـاـ أـنـهـ كانـ يـسـتـعـيـنـ بـالـأـمـثـالـ وـالـقـصـصـ وـالـأـشـيـاءـ وـالـنـظـائـرـ لـتـقـرـيرـ مـاـ يـمـحـرـصـ عـلـىـ غـرـسـهـ فـيـ نـفـوسـ أـصـحـابـهـ مـنـ قـيـمـ . وـالـسـنـةـ غـاصـةـ بـالـأـمـلـةـ الـتـىـ تـدـورـ فـيـ هـذـاـ الـفـلـكـ نـكـتـيـ فـيـهـ مـنـ بـنـمـوذـجـينـ :

(١) البخاري ٨ / ١١٦ (كتاب الأدب)

(٢) البخاري ٨ / ١٩٩ (كتاب الحدود) . الحـبـ اـنـ الحـبـ (بـكـسـرـ الـحـاءـ) أـنـ الحـبـ اـنـ الحـبـ ، وـكـانـ الـسـيـ عـلـيـهـ السـلـامـ يـعـبـ أـسـمـةـ وـأـبـاهـ زـيـدـاـ حـتـىـ كـانـ الـمـسـلـمـونـ يـطـلـمـونـ عـلـيـهـ : زـيـدـ بـنـ مـحـمـدـ .

- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «**بَيْنَ رَجُلٍ بِطْرِيقٍ أَشْتَدَ عَلَيْهِ الْعَطْشُ، فَوُجِدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرَبَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلَّبُ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطْشِ فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلَّبُ مِنَ الْعَطْشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبَئْرُ فَلَأْخَفَّهُ مَاءً . فَسَقَى الْكَلَّبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَنَا فِي الْبَاهَمَ أَجْرًا: فَقَالَ فِي كُلِّ ذَاتٍ كَيْدَ رِطْبَةٍ أَجْرُ» (١) ..**

- ويروى عنه عليه السلام أنه قال «**مَثَلُ الْفَاقِمِ فِي حَدَّودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِي هَا كَمَثَلُ قَوْمٍ اسْتَهْمَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَصَارُ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرَوُا عَلَى مِنْ فَوْقِهِمْ، فَقَالُوا لَوْلَا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا حَرَقًا، وَلَمْ نُؤْذِنَ مَنْ فَوْقَنَا!! إِنَّ تَرْكَوْهُمْ وَمَا أَرَادُوهُ هَلْكُوْهُمْ جَيْعاً وَإِنْ أَخْذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَحْوَهُمْ جَيْعاً» (٢) ..**

وهذا الحديث يبرز أهمية الشعور بالمسؤولية الاجتماعية وبوحدة المصلحة في المجتمع كله ، وهى مسئولية كل فرد في الأمة منها صغر موقعه الوظيفي في المجتمع . ولكن المسؤولية تعظم بالنسبة للقائمين على أمر الأمة وقيادة سفينتها ، وهذا الشعور الجماعي بالمسؤولية يحتم على كل فرد أن يكون صالحا في ذاته من ناحية ، وأن يمنع المنكر والانحراف - بقدرتها - من ناحية أخرى ، غير مستعين بما يرى من مظاهر الفساد منها كان ضئيلا فعظم النار من مستصغر الشر . وصدق الشاعر العربي إذ قال :

إِذَا نَحْنُ طَامِنًا لِكُلِّ صَغِيرَةٍ: فَلَابَدُ يَوْمًا أَنْ تُسَاغِيَ الْكَبَائِرُ

••••

ومن أهم ملامح التوجيه النبوى - وقد أشرنا إلى ذلك من قبل أنه عليه السلام - لم يكن يواجه الخطىء بخطئه - إلا إذا وجد للمواجهة ضرورة من دين أو خلق - بل كان يجعل الخطاب بضمير الغائب ، وبصيغة الجمع غالبا ، وبمسمى الجميع - «**مَا بَالْأَقْوَامِ يَفْعَلُونَ كَذَا .. وَكَذَا ..**» .

استعمل عليه السلام رجلا من الأسد يقال أنه ابن اللتبية فلما قدم قال هذا لكم وهذا لي ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : ما بال عامل أبعشه فيقول هذا لكم ، وهذا أهدى إلى ، أفالا قعد في بيته أبيب بيته أمه حتى ينظر أهدي إليه أم لا ، والذى نفسي بيده لابنال أحد منكم منها شيئا إلا جاء به يوم القيمة يحمله على عنقه » (٣)

(١) البخاري ٣ / ١٧٣ (باب الآثار)

(٢) البخاري ٨ / ١٩٠ (كتاب المحدود)

(٣) مسلم ٤ / ٤٩٧ (كتاب الأمارة) الأسد (بتسكن السين) أو الأرد ، وكان الرجل من قبيلة أردشوه .

والنبي بهذا الأسلوب غير المباشر في التوجيه يدل على أنه عليه السلام — كان يحترم آدمية الإنسان، وعلى أن المدف من التشريع هو الإصلاح لا التشهير. والتشهير بالخطى عقدي دفعه إلى الإصرار على السير في طريق الخطأ والخطيئة، وقد غضب النبي عليه السلام على خالد بن الوليد حين سب الغامدية وهو يقيم عليها حد الرجم لزناها.

ومسلك النبي هذا انعكاس عملي لفضيلة نفسية عرفت عنه وهي عفة اللسان وصونه من المُجُر والفحش والبُذاء حتى في حق الأعداء : حينما شج يوم أحد وسال دمه وكسرت رباعيته قال له أصحابه (لودعوت عليهم) فقال : « إنِّي لَمْ أَبْعَثْ لِعَانًا ، وَلَكِنِّي بَعَثْتْ دَاعِيَا وَرَحْمَةً ، اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » (١) ..

• • • •

وكان المسلمون يلتجئون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتونه ويسألونه فيما يعن لهم من أمور الدين والدنيا ، وكثيرا ما كان القرآن يتکفل بالإجابة وقد أورد القرآن الأسئلة والإجابات عليها في خمسة عشر موضعًا منها :

سُبْحَانَكَ مَاذَا يُنْفَقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْأَفْرَادُ إِلَيْهِمْ

وَالْمَسْتَكِينُ وَأَبْنَى السَّبِيلَ وَمَا تَعْلَمُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ (٢)

سُبْحَانَكَ مَاذَا أَحْلَلَ لَهُمْ قُلْ أَحْلَلَ لَكُمُ الْطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلِمْتُمْ مِنْ أَجْوَارِحِ مُكْلَبِينَ
تعلمونهن ماعلمنكم الله فكلاواما مسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣)

سُبْحَانَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِرَوْقَتِهَا
إِلَّا هُوَ نَقْلَتِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يسألونك كأنك حفي عنها قل
إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤)

(١) الشفا / ١ ٢٢١

(٢) البقرة ٢١٥

(٣) المائدة ٤ الجوارح : الكواكب للصيد من السباع والطير. مكليين : معلمون لها الصيد .

(٤) الأعراف . أبيان مرساها : متى طابتها ووقتها . يجلبها : يكتشفها ويظهرها . حفي عنها : عالم بها .

**سَمِّعُوكُمْ يَسْأَلُونَكُمْ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلْ أَلَا نَفَلُ لِلَّهِ وَالرَّسُولُ فَأَنْفَلُوا اللَّهُ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْتِكُمْ
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** (١)

ويلاحظ أنَّ أغلب هذه الآيات مدنية ، وأنَّ سورة البقرة – وهي أول السور المدنية نزولاً – أعمَّ السور بالأسئلة والأجوبة ، إذ كان المسلمين يتطلعون إلى معرفة الكثير في المجتمع الإسلامي الجديد الذي كان يمثل الأساس القوى للدولة الإسلامية الوليدة .

وإذ لم يقدم القرآن الجواب على ما يطرحه المسلمون من أسئلة . كان النبي عليه السلام يجيبهم بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم ، وكان يعطي لكل سؤال حقه من الإجابة : إيجازاً أو تفصيلاً تبعاً لمقتضيات الحال ، والإجابة دائماً شافية كافية بحيث لا يترك النبي السائل وفي نفسه أثارة من حرج ، أو أثارة من جهل بأى جانب من جوانب الموضوع الذى يسأل عنه .
 سأله رجل ذات مرة : يا رسول الله : أستاذن على أمى ؟ فقال : نعم . قال الرجل : إننى معها في البيت . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – استاذن عليها ، فقال الرجل : إننى خادمها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : استاذن عليها . أتحب أن تراها عريانة ؟ قال : لا . قال : فأستاذن عليها (٢)

هكذا بصدر رحب وإنسانية صافية يقنع الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل مثيراً فيه عاطفة « البنوة » التي تكره أن ترى من الأم ما يسيء إليها وإليه .

• • • • •

وآخر هذه الملامح التربوية في تعليم الدين والحياة والخلق أن يضع النبي نفسه موضع السائل على سبيل ما يسمى « بتجاهل العارف » وال المسلمين يجيبون . فإن كانت الإجابة سديدة أقرّها . وإن كانت الإجابة غالطة صصحها، وأبان عن الصواب . وإن كانت الإجابة ناقصة أكملها . ومن أمثلة ذلك :

* عن أبي بكرة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا بلى يا رسول الله . قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين (٣) .
 * عن ابن عمر – رضي الله عنها – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخبروني بشجرة مثلها مثل المسلم تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ولا تحيط ورقها » فوقن في نفسي أنها النخلة .. (٤) .

(١) الأنفال وأنظر البقرة ، ١٨٩ ، ١٨٧ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٠ ، الإسراء ، ٨٥ ، الكهف ، ٨٣ ، طه ، ١٠٥ ، النازعات ، ٤٢ ، والأنفال : الغنائم ..

(٢) الموطأ ٥٩٧ (كتاب الاستئذان)

(٣) البخاري ٨ / ٤ (كتاب الأدب) عرق الوالدين : خالفتها وعصيannya والإساءة إليها .

(٤) السابق ٣٩ (تحت ورقها : أى تسقطه وتريله)

* عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قَيْمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِسَبِّي .. إِنَّ امْرَأَةً مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ تَبَغِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبِيِّ أَخْذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «أَتُرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ فَقَلَّنَا لَا وَاللَّهُ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَلَا تَطْرَحَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بُولَدَهَا» ^(١) ..

* ومن الأسئلة التي طرحتها النبي على المسلمين وجاءت إجابتها غالطة فصححها : سؤاله عن الصرعة فكان الجواب إنه الذي يغلب هذا ويصرع ذاك . قال النبي : «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يملك نفسه عند الغصب » .

وكذلك سؤاله عن المفلس : جاءت إجابتهم بأنه من لا درهم له ولا متاع . ويصحح النبي هذا المفهوم الغالط : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيمة بصلوة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا وسفك دم هذا وضرر هذا ، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ماعليه .. أخذ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه ثم طَرَحَ في النار .

والسنة الشريفة حافلة بهذا اللون الذي يقوم على طريقة «السؤال والجواب» . وسواء أجاءت إجابة المسلمين كاملة شافية ، أو ناقصة وأكملاها النبي عليه السلام ، أو غالطة وطرح النبي عليه السلام البديل الصحيح يخلص النبي عليه السلام إلى القيمة الدينية أو الخلقية أو الحقيقة الاجتماعية أو الدرس النفسي الذي حرص أن يعيه المسلمون بهذه الطريقة في التعليم وال التربية .

وهذا الاتجاه النبوي يتفق مع أحدث الطرق وأنجحها في التعليم وهي ما تسمى «بالطريقة الاستنباطية» وهي الطريقة التي تعتمد على عرض الأمثلة المساعدة ، ومن فهم هذه الأمثلة واستيعابها والوازنة بينها تستخلص القواعد والحقائق المنشودة .

ومن أصول هذه الطريقة اعتمادها على «طرح الأسئلة المنتجة» التي يصل بها المعلم عن طريق التلاميذ إلى حقائق الدرس سواءً كانت حقائق جزئية في مراحل الدرس المختلفة ، أو حقائق كليلة في آخر مرحلة من مراحل الدرس .. ومن أهم قواعدها أن يحرص المدرس على إثارة كواطن المعرف والخبرات المختزنة عند التلاميذ للانتفاع بها في الخلوص إلى الحقائق التي يهدف إليها المعلم .

(١) مسلم / ٥٧ (كتاب التوبه) . السبي : جامع الأسرى .

نعم كانت «الطريقة الاستنباطية» في التربية إحدى طرائق رسول الله— صلى الله عليه وسلم— وكلها تهدف دون تعنت أو تعسف إلى خلق المسلم الصالح الذي يجمع بين الدين والدنيا... بين العلم والعمل، بين الحق والواجب.

• • • •

وبعد هذه المسيرة نعود فنكر أن السيدة عائشة لم تبالغ حين قالت عنه— صلى الله عليه وسلم— كان خلقه القرآن: «يرضى برضاه ويستخط بسخطه»؛ فقد كان مجموعة من القيم الإنسانية في أرقى صورها من ناحية ، وأصلحها للتطبق من ناحية أخرى . واستطاع أن يغرس هذه القيم في أعماق الرعيل الأول متبعاً منهاجاً واضحاً محدد الملامح والسمات :

- فكان قدوة حسنة يسبق فعله قوله .
- وانخذل من الأحداث وسيلة لتقديم أخلاق المسلمين وتربيتهم .
- واستعلن في سبيل ذلك بالقصص والأمثال .
- واستعلن بطريقة التوجيه غير المباشر حتى لا يشهر بالخطيء .
- وفتح صدره للمسلمين يسألون ويستفتون وهو يجيب عن كل ما يسأل حتى ما كان تافهاً لا قيمة له في مسيرة المجتمع .
- واستعلن — وهو أستاذ الحياة — بأسلوب المعلم الذي يسأل تلاميذه ومراديه ليخلصوا للحق والحقيقة في مجال النفس والخلق والمجتمع .
- وكانت الحصيلة جماعة من الأنجم الزواهر .. أشرقت بنور الله في مشارق الأرض ومعاربها فإذا الظلم والباطل بلا صولة ولا جولة ولا صوبيان . وهذه الجماعة صارت كلمة الله هي العليا وكلمة الباطل والكفر والضلالة في أسفل سافلين ..

الفصل الرابع

شبهات على الطريق

الحقيقة واضحة .. الحقيقة دامغة .. ولكن أصوات الشبهات المنكرة لا تكل ولا تهدأ .. بعض هذه الأصوات مدفوع بسوء النية وضعف الواقع الإيماني ، وبعضها متأثر بالتفكير العلماني .. منبر متبع للكل ما هو غربي أو أجنبي ، وبعضها يجرى وراء شهرة جوفاء على طريقة « خالق تعرف » .

وأيا كان الدافع الظاهر أو الخفى فليس من همنا – في بحثنا هذا – تقييم هذه الدوافع وتفصيل القول فيها ، ولكن يهمنا التعرف على أهم هذه الشبهات ومناقشتها في إيجاز: يرى واحد من كبار كتابنا « أن عنصر الأخلاق في الأديان ليس كل جوهرها ، وأن بعض البلاد قد استطاعت أن تجد في الأخلاق غنى لها عن الأديان : إنما قوة الدين وحقيقةه في العقيدة والإيمان بالذات الأزلية » (١) .

ونسى الكاتب المفكر – أو تناهى – أن الإيمان النقى بالذات الأزلية لا يتحقق لمن لا يُحلق له ، وكيف يتحقق مثل هذا الإيمان لكتاب أو غادر أو وزان أو قاتل .

والفصل بين الدين والخلق سيظل فصلا صناعيا واهيا ، لأن الدين هو أقوى المصادر وأغناها بالقيم الخلقية ؛

– فالإحساس الديني هو أقوى الأحساس ، وسيظل أقواها وأعمقها لأنه يستمد بقاءه وقوته من الفطرة الإنسانية التي لا تموت ، وشعور التدين حتى في أبسط صوره يكسب الأخلاق بقاء وقوة ويربطها دائما بالذات الأزلية الخالدة .

– والذين يدعون إلى « علمانية » الأخلاق ينسون حقيقتين :

الحقيقة الأولى : أن القيم الاجتماعية عرضة للتغير والتقلب والهبوط والصعود ، تحت تأثير الأيديولوجيات الوضعية التي قد تتصف بكثير منها ، وقد تفرغ بعضها من مضامينه الحقيقة ، وقد تحول بعضها إلى التفريط . ويصبح المجتمع أسر « قائمة » جديدة من القيم لها دعاتها وفلسفتها الذين يدعونها بالحيثيات الوجيهة والتبريرات الطلية التي تطمس معالم الحقيقة .

(١) توفيق الحكيم : تحت شمس الفكر ١٦

والحقيقة الثانية : أن القيم الإسلامية ثابتة ولكنها غير جامدة ، مرنة ولكنها لا تقبل التبيع .. تعرف السماحة ولكنها لا تقبل التهاون .

ولعل موقف النبي – صلى الله عليه وسلم – من حلف الفضول الجاهلي ، واختلاف موقفه مع مسلمة الكذاب عن موقفه مع عيينة بن حصن يوضح الفرق بين الثبات والأصالة وبين الجمود والتججر ، والفرق بين المرونة والسماحة وبين التهاون والتغريط .

– واعتناق الأخلاق الدينية – زيادة على مسايرته للفطرة الإنسانية – له ما يؤيده من الواقع العملي التاريخي . ففي تاريخنا الإسلامي المثل الأعلى .. بل المثل العليا .. محمد وصحابه .. نعم كل قيمة أخلاقية لها واقع عملى في سجل هؤلاء الأشراف ، وهذا السجل يعد « مرجعنا عمليا » لمن أراد القدوة وطلب الأسوة واستشراق الاحتداء .

– وحتى لو سايرنا منطق الماديين والعلمانيين الذين يخضعون الأشياء لقياس المتفعة ، أو معيار « المكاسب والخسائر » ... حتى على هذا الاعتبار يبقى رصيدنا الخلقي الإسلامي « تجارة » لا تبور ولن تبور ، وتبقى حصيلة هذه التجارة فائقة دائنة أبدا ، لأن القيمة الخلقية فيها لا تنفصل ، بل تتلاحم بالقيمة الإيمانية . فالصدق والجهاد والكرم والتضحية وكل المعانى الإنسانية لا يمكن أن يكون لها قيمة في عزلة عن الإيمان ، يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدْلُكُمْ عَلَىٰ تَبَرُّهُ تُنْجِيْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۚ إِنَّمَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُوْلُكُمْ وَأَنفُسُكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ كُلُّهُ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾ (١)

ونتيجة لهذا التحلی ، وحصلة هذا السلوك وذلك المسار هى أعظم النتائج في الآخرة ، وأثرى الثرات في الدنيا .

﴿ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَلَانَهُرُ وَمَسَكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّتٍ عَدَنَ ۚ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَآخَرِي تُحْبَونَهَا نَصْرًا مِنَ اللَّهِ وَفَتْحًا قَرِيبًا وَبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ (٢)

(١) الصف ١١، ١٠

(٢) الصف ١٣، ١٢

وإنه لربع ضخم هائل أن يعطي المؤمن الدنيا وياخذ الآخرة ، فالذى يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من في السوق فكيف بن يتجر في أيام قليلة معدودة في هذه الأرض وممتع محدود في هذه الحياة الدنيا ، فيكسب به خلودا لا يعلم له نهاية إلا ماشاء الله ، ومتاعا غير مقطوع ولا منع (١) ..

والله — سبحانه وتعالى — وسعت رحمته كل شيء ، وهو ذو الفضل العظيم على عباده .. يعطى أنى شاء وأيان يريد ، ولكن من عدله ومن رحمته بالعباد أيضا أنه جعل منطق الجزاء .. أى منطق الشواب والعقاب ومناصره لعباده أو تخليه عنهم يعتمد على فكرة «المقابل المبذول» من العبد ، حتى لا يتواكل استنادا إلى سعة رحمته — تعالى — وعظيم عفوه وكرمه الذى لا يحده . وتأتى الآيات تترى تأييدا لهذا الميزان الذى لا يميل ولا يجور . ومنها :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَصْرُّفَ اللَّهِ يَنْصُرُكُمْ وَيُثْبِتُ أَقْدَامَكُمْ (٢)
وَكَانَ حَقًا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٣)

وَلَوْا نَأْهَلَ الْقُرَىٰ أَمْنًا وَأَتَقْوَا لَفَتَحَنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ (٤)

إِنَّ اللَّهَ أَشَرَّى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ جَنَّةً (٥)
وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَهْلِكَ قَرِيَّةً أَمْرَنَا مُتَّرِفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقُولُ
فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا (٦)

وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٧)

(١) سيد قطب : الفلال ٦ / ٣٥٥٩

(٢) محمد

(٣) الروم ٤٧

(٤) الأعراف ٩٦ (٥) التوبية

(٦) الإسراء ١٦

(٧) الكهف ٥٩

﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقَرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَلِيلُونَ ﴾ (١)

وهذا المعيار الواضح المنضبط يجعل المؤمن مطمئن القلب ثابت الفؤاد لأنه يومن بحق أن المقابل ليس عادلا فحسب ولكنه فياض كريم أيضا ، فهو يعلم أن :

﴿ مِنْ جَاهَةِ الْخَسْنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمِنْ جَاهَةِ السَّيِّئَةِ فَلَا يُعْزِزُ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٢)

وقد يزيد الثواب على الأمثال العشرة حتى يبلغ مئات الأضعاف

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلَ حَبَّةِ ابْتَقَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبْلَةِ مِائَةِ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَعِّفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣)

وكل ما سبق يبرر أمامنا حقيقة واضحة مؤداها أن الالتزام بالدين وأخذ النفس والمجتمع بقواعد وقيمه يضمن لنا كسويا هائلة في الدنيا والآخرة ، ولكن تبقى هناك عدة شبهات يتتشبث بها المشككون في القيم الدينية ، وهي في مجموعها تكاد تكون واقعا ظاهرا يا مشهودا للشبهة الأساسية التي عرضنا لها في مستهل هذا الفصل :

• وهناك من حققوا انتصارات عسكرية باهرة على الرغم من أنهم ملاحدة لا يعرفون الله .. فالشيوعيون في فيتنام الشمالية استطاعوا أن يكسروا أكبر وأقوى دولة في العالم وهي أمريكا .

وأمريكا في وقتنا الحاضر تعتبر سيدة دول العالم وصاحبة اليد العليا دائما في القروض والمعونات الاقتصادية والعسكرية ، وصوتها هو أرفع الأصوات وأقواها في المحافل والمنظمات الدولية .. هذه هي صورة أمريكا الآن على مافيها من موبقات وتمزقات خلقية في مجال الجنس والغير والمخدرات .

• وهناك شعوب وثنية أو لا دينية حققت في مجال الثقافة والتقدم الصناعي والعلمي إنجازات مذهلة مثل اليابان والصين والهند .

(١) القصص ٥٩

(٢) الأنعام ١٦٠

(٣) البقرة ٢٦١

● وشهد هذا القرن وخصوصا ابتداء من أواخر الأربعينيات هزائم منكرة للعرب وال المسلمين أصحاب أكرم الرسالات وأنبلها على أيدي عصابات الصهاينة الذين لا دين لهم ولا خلق .

● والربط بين الخلق وسلامة التدين وبين انتصار المسلمين وجعل الثاني نتيجة وحصيلة للأول قد ينقضه ما نعرفه من حال الدولة الإسلامية في العصر العباسي مثلا ... ففي عهد هارون الرشيد - وهو المصر الذهبي للدولة الإسلامية - تحققت إنجازات اجتماعية وانتصارات عسكرية هائلة على الرغم مما يروى عن «ليالي هارون الرشيد» وانتشار المخدر وعريدة الشعرا وفساد كثير من كبار رجال الدولة .

● والعصر الذي نعيشه الآن لا يستسيغ الدعوة إلى إسلامية الخلق أو الميمنة الدينية على السلوك والتربية والإعلام والسياسة ، بعد أن أصبح الطابع العلماني يسود العالم كله ، والأمة المصرية - بصفة خاصة - فيها ملايين من غير المسلمين، ومثل هذه الدعوة قد تسنىء إلى مشاعرهم، وتدعى إلى الحرج والتطاحن والبغضاء .

• • • • • هذه الشبهات في جموعها تعتمد على «الظاهر البراق» أكثر من اعتمادها على التحليل العميق ل الواقع والظواهر ، والأسباب والعمل والنتائج ، فكثير من هذه النتائج مازال يحبو على أول العتبات ، ومن ثم كان الحكم بأنها باهرة حاسمة نهائية فيه من الإسراف والغلو الشيء الكثير ، ويكون الخروج بهذا الحكم من دائرة الخاصة ليأخذ صورة التعميم والشمولي خطأ قاتلا .

وانتصار الشيوعيين في فيتنام على القوات الأمريكية لم يكن انتصار وثنية على إيمان ، ولكنه كان انتصار مظلوم مسحوق على ظالم غاصب ناهب . وحتى لوفرضنا جدلا أن هؤلاء انتصروا «بحماسة الإلحاد» فلماذا لا نحاول نحن أن نخوض معاركنا بحماسة الحق والإيمان ؟ أليس الحق أقوى والإيمان الحق أبقى ؟

• • • • •

وأمريكا حقيقة هي دولة الجنس والخمر والأفيون والحسيش والحبوب المخدرة . وفي تقرير رسمي نشر في أمريكا سنة ١٩٧٩ ثبت أن عدد الذين يتعاطون المخدرات يزيد على ٦ % من عدد سكان الولايات المتحدة^(١) ، ومع ذلك فأمريكا هي أمريكا .. أقوى دول العالم اقتصاديا وسياسيا وعسكريا بما يؤكد أن السلوك الخلقي يرتبط أساسا بالجرية الشخصية ، وأن ذلك لا يؤثر بأى حال في كيان الدولة ، ولا يهز مركزها في الداخل أو الخارج ١١

(١) انظر جريدة «الأخبار» القاهرة في ٤/٦/١٩٧٣.

هذا ما يقوله أصحاب الموى .. أو هذا ما يمكن أن يقولوه ، ولكن أشدتهم حماسة لا يستطيع أن يدعى أن المخدرات والخمر والجنس هي سبب التفوق السياسي والاقتصادي والعسكري والاجتماعي في أمريكا ، حتى لو زعم أن هذه الوبقات لا تزال من قوتها .

على أن هناك أصواتاً قوية تدرك خطورة هذه السموم على الشعب الأمريكي ، وتنادي هذه الأصوات بمنعها ، أو على الأقل بأن تفرض عليها قيداً أشد وأعنت . وقد ذكرنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب أن الحكومة الأمريكية قامت في العشرينيات بمحاولة قوية لحرم الخمر تحرماً قاطعاً .

وعليها ألا ننسى في هذا المقام أن المجتمع الأمريكي فيه من « عوامل التعييض » العلمية والثقافية والاقتصادية ما يخفف من تأثير عوامل الهدن اللا أخلاقية . فأثر الآفيون في دولة فقيرة متخلفة كالصين كان أشد وأعنت من أثره في الشعب الأمريكي . والزنبي والخمر في شعب أفريقي يوتيان آثارها القاصمة أسرع وأقوى وأضرى مما يوتيانها في دولة أوروبية عندها من الرصيد المالي والاقتصادي والتكنولوجي ما يعيش إلى حد كبير عن انهاجر جانب من الكيان المعنى للأمة .

وهل يستطيع أحد أن ينكر أن دولة كأمريكا ستكون أكثر قوة واستقراراً في كل الحالات لو خلت حياتها من كل هذه المآتم أو أغلبها ؟

وينضم إلى عوامل التعييض المادية عديد من عوامل التعييض المعنية مما يخفف من وطأة هذا الشرخ الخطير الذي أصاب جدار القيم بالماتم التي أشرت إليها .

إن الشعوب الأوروبية والأمريكية هي أحرصن شعوب العالم على النظام والعمل في حساسة وخلال من مع الالتزام بدقة المواعيد والولاء الحى للدولة والقانون والشعور بالمسؤولية ..

ويتساءل المتسائلون المشككون : وما بال إسرائيل دولة الدعاارة والغدر والخيانة تسجل الانتصار تلو الانتصار على أمة العرب .. الأمة المسلمة .. صاحبة الرسالة الخاتمة .. وأمة خاتم الأنبياء وأكرمنهم على الله ، وخير أمة أخرجت للناس ؟

ونسى هؤلاء أو تنسوا أن « الخيرية » أو « الأفضلية » ترتبط بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله ^(١) فهذه الخيرية « لا يستحقها من ليس لهم من الإسلام واتباع النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا الدعوى وجعل الدين جنسية ^(٢) لهم ، بل لا يستحقها

(١) أنظر آل عمران ١١٠

(٢) يقصد بالجنسية هنا مجرد الاسم والانتساب الشكلي للدين .

من أقام الصلاة وآتى الزكاة ، وصام رمضان ، وحج البيت الحرام والتزم الحلال واجتنب الحرام مع الإخلاص الذي هو روح الإسلام إلا بعد القيام بالأمر بالمعروف والنبي عن المنكر بالاعتصام بحبل الله مع ابقاء الفرق والخلاف في الدين^(١)

والإيمان بالله لا يشل الجانب العقدي في توحيده وعدم الشرك به فحسب ، بل إنه يمثل القاعدة الأساسية ، والمتطلقات الحقيقة لاستكمال المسلم «قافية القيم العليا» .. يقطع بذلك الآيات التي فصلت صورة المؤمن بالله ومنها :

سُبْحَانَ رَبِّنَا وَبِحَمْدِنَا إِنَّا نَزَّلْنَا عَلَيْهِ مِنْ رَبِّنَا مِنْ كُلِّ مَا أَنْزَلَ إِنَّا مُمْلِكُوْنَا وَلَا نَنْهَا وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ وَرُسُلُّنَا لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِنَا وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطْعَنَا غُثْرَانَكُمْ رَبَّنَا وَإِلَيْكُمْ الْمُصِيرُ ^(٢)

سُبْحَانَ رَبِّنَا وَبِحَمْدِنَا إِنَّا نَزَّلْنَا عَلَيْهِ مِنْ رَبِّنَا مِنْ كُلِّ مَا أَنْزَلَ إِنَّا مُمْلِكُوْنَا وَلَا نَنْهَا وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ وَرُسُلُّنَا لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِنَا وَأَنَّا نَزَّلْنَا مِنْ قَبْلِكُمْ وَأَنَّمَا يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ أَلْزَكُوْنَا وَالْمُؤْمِنُونَ يَأْتِيْهِمْ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ أَوْلَئِكَ سُنُّتُنَّهُمْ أَجْرًا عَظِيْمًا ^(٣)

سُبْحَانَ رَبِّنَا وَبِحَمْدِنَا إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُبَيَّنَ عَلَيْهِمْ أَيْمَانُهُمْ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رِبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمَا دَرَّقْنَاهُمْ يُنْفِقُوْنَ ^(٤)

سُبْحَانَ رَبِّنَا وَبِحَمْدِنَا الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكُوْنِ فَدِعُوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَنِفُطُونَ ^(٥)

(١) تفسير النار ٤ / ٥٨

(٢) النساء ١٦٢

(٤) الأنفال ٣ ، ٢

(٥) المؤمنون ١ - ٥

فتعيار «الخيرية» إذن يتجسد في هذه الثلاثية الكريمة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله ، وهي تجعل من المسلم كياناً ديناميكياً ناشطاً يمارس دوره البناء لا بالنسبة لمجتمعه فحسب .. ولكن بالنسبة للمجتمع الإنساني كله .

فإذا بقى للمسلمين اليوم من هذه الثلاثية؟ لم يبق منها إلا الشكل والمظاهر .. تغيرت الحال، واختلت المعايير وأصبح «المسلم الحق» في ديار المسلمين واحداً من «الغرباء» الذين قال عنهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – «قوم صالحون قليل ، في ناس سوء كثیر، من يعصيهم أكثر من يطاعهم^(١) ..

وقد خرج الطبراني من حديث لأبي أمامة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – « وإن من إدبار هذا الدين أن تُخْفَى القبيلة بأسرها ، حتى لا يرى فيها إلا الفقيه أو الفقيهان فيها مقهوران ذليلان ، إن تكلما فأمراً بالمعروف ، ونبيتاً عن المنكر قهماً وفهراً واضطهدنا ، فيها مقهوران ذليلان ، لا يجدان على ذلك أعناناً ولا أنصاراً» ..

يقول ابن رجب الحنبلي (٧٠٦ - ٧٩٥ هـ): ووصف في هذا الحديث المؤمن العالم بالسنة الفقيه في الدين بأنه يكون في آخر الزمان عند فساده مقهوراً ذليلاً ، لا يجد أعناناً ولا أنصاراً^(٢) ..

فالمسلم – على مستوى العالم الإسلامي كله – يعيش اليوم عصر الغربة والضياع واختلال المعايير، فإذا ما قلنا إن «الخيرية» التي تمتّعت بها أمّة الأمس قد فقدتها أمّة اليوم لم نكن مسرفين ولا مشتبئين في الحكم .

• • • •

وتفرّعًا على الشبهة السابقة ثور شبهة أخرى مذادها: حتى على صحة الحكم الذي خلصنا إليه تبقى الأمة الإسلامية بصلاتها وصيامها وإقامتها الفرائض – على الرغم من عصيانها – خيراً من دولة الصهيونية التي هي أكثر بُعداً عن الله والقيم . فكيف يغلب المفضول الفاضل؟ وكيف تكتسح دولة الشر أمّة تحلى ولو بالحد الأدنى من الإسلام والقيم الإسلامية؟

ولا أجد ما هو أبلغ في نقض هذه الشبهة من كتاب عمر بن الخطاب الذي يقول فيه لسعد بن أبي وقاص: «أما بعد فإني أمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب ، وأمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ،

(١) ابن رجب الحنبلي: كشف الكربة بوصف حال أهل الغربة ٧١

(٢) السابق ٩١

وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولو لا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عدتنا ليس كعدهم ، ولا عدتنا كعدهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإن ننصر عليهم بفضلنا .. لم نغلبهم بقوتنا .

واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ماتقلعون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنت في سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا شرمنا ، فلن يسلط علينا وإنأسنا فرب قوم سلط عليهم شرمنهم ، كما سلط على بنى إسرائيل — لما عملوا بمساخط الله — «كفرة الجوس» فجاسوا خلال الديار وكأن وعدا مفعولا .. وأسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسأل الله ذلك لنا ولكلم^(١) ..

وكتاب عمر هذا دستور رفيع في عالم النفس والخلق والسياسة العسكرية :

- ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم . نعم يا عمر: وهل ذنوب الجيش إلا الغدر والخيانة والغفل والتلاقي عن القتال والفرار من الميدان؟ إنها جيش .. بل جيوش من الأعداء الخفية أشد ضراوة من كل عدو وعدة وعدد . إنها «العدو المعايش» الذي لا يبعد عن النفس بل هو لصيق بها متغلغل فيها .. إنها عدو خفى مخادع لأن الآثم قد يأتي الذنب تحت اسم لا يتتفق مع واقعه وحقيقة : فالسرقة والغلو حقيقة ، والخيانة والغدر قدرة وبراعة ودهاء ، والتلاقي عن الجهد حرص على السلام وصيانته للنفس وحقن للدماء ..
- والمسلمون ينتصرون لأنهم «جامعة المتدين المداة» يواجهون «جامعة المذنبين العصاة» على الرغم من قوتهم المادية في العدة والعدد . والتقوى — بمفهومها الشامل — هي الطاقة النفسية والروحية المائة التي تكسر أمامها كل القوى المادية ..

● وفي كتاب عمر تواجهنا قضية منطقية واقعية :

إذا تساوى المسلمين وعدوهم في المعصية انتصر الأعداء وانهزم المسلمون ، لأن المسلمين بالمعصية يكونون قد فقدوا «رصيدهم المأمول» من التقوى والحمدى ، وكانتوا كالاعداء في هذه السمة المهابغة . ويبقى للأعداء بعد هذا «الفقد المشترك» عنصر «التفوق المادى» وهو هذه المرة في صيف الأعداء ، فيكون النصر حليفهم .

منطق لا يستعصى على فهم أحد ، وهو منطق واقعى لأن له ما يؤيده من واقع التاريخ : لقد سلط الله الجوس عبد النار على بنى إسرائيل — وهم أهل دين وكتاب — وذلك حينما عصوا الله . وعملوا بمساخطه .

(١) التويرى : نهاية الأربع / ١٦٨ . وابن عبد رب الأندلسى : العقد الفريد / ١٥٣

وليعد القارئ من جديد إلى كتاب عمر بن الخطاب .. ليعد إليه وفي ذهنه انكسارات الأمة العربية من سنة ١٩٤٨ إلى اليوم .. إنه سيردد معى في أسى مثل العربي المشهور «ما أشبه الليلة بالبارحة» ..

ويقول الشاكون المشككون لقد سجلت الدولة الإسلامية أزهى انتصاراتها في عهود غلب فيها الفساد الخلقي : الخمر .. والنساء .. والجواري .. والغلمان .. والشعر الفاحش .. ويتحذرون من الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد .. ومن بغداد في عهده .. بل من شخصية هارون الرشيد و«لياليه» مثلاً أو أمثلة يؤيدون بها دعواهم أو ادعائهم .

وبهذه الشبهة تحرنا إلى إبراز حقائق ثلات :

الأولى : هي أن التاريخ الإسلامي سقط ضحية مخطط صليبي صهيوني استشرافي مدروس شوه كثيراً من معالجه وخصوصاً أزهى فتراته حتى يفجع المسلم في مثله العليا . وللأسف أسمهم بعض كتابنا الحدثين بالغفلة أو الانبهار ، ومحسن النية أو بسوءها – في هذا المخطط الخبيث .

الثانية : أن المؤرخين المسلمين القدامى – على الرغم من دقة التحرى وبراعة التحقيق عند الكثيرين منهم – جعلوا تاريخهم يعتمد على نقطتين ارتكاناً لها : **الحاكم والعاصمة ..** فهو تاريخ حلفاء وأمراء وزراء .. وهو تاريخ الأحداث المرتبطة بهؤلاء في بغداد ودمشق والفسطاط .. ومن ثم كانت سقطة الأمير – اعتماداً على هذه الوجهة – تعنى سقطة نظام بأسره ، وأى مظاهر الفساد في عاصمة كبغداد مثلاً يعني – اعتماداً على هذه الوجهة أيضاً – فساداً ضارباً الأطناب في كل جوانب الدولة .. لم يظفر الريف ولم يظفر الباادية من المؤرخين بنظره .. ولم يظفر العامة بكتاب من كتب هؤلاء المؤرخين إذا استثنينا اهتمامات خاصة لأبنى الفرج الأصفهانى في كتابه **الأغانى** ^(١) . ومن هنا وقع كثير من مؤرخينا في عدة أخطاء منهجية وموضوعية من أهمها :

- ١ – الاستقراء الناقص : فاستخلصوا أحكاماً عامة من ظواهر ووقائع فردية ..
- ٢ – الاعتماد على الأسباب الظاهرة دون البحث عما وراءها من بواشر خفية ، فليس من اللازم أن يكون السبب الظاهر هو أقوى الأسباب بل قد يكون أضعفها على الإطلاق ..
- ٣ – التأثر بالتغيرات السياسية والطوابع المذهبية مما يبعد المؤرخ عن الحياد وروح الموضوعية ..

(١) وكذلك ابن خلدون في مقدمته وهو يستخلص بعض القواعد الاجتماعية في السياسة والحكم .

وأخطر هذه السقطات جميعها .. هي تعميم الحكم انطلاقاً من أحداث قليلة أو ظواهر فردية كالحكم على الدولة كلها بالفساد اعتماداً على المشهود في عاصمة بغداد مثلاً.

أما الحقيقة الثالثة: فهي أن شخصية هارون الرشيد لم تكن في واقعها الفعلى بهذه الصورة المشوهة التي عرضها المفترضون وذوو الأهواء. وقد رد ابن خلدون في قوة على الذين اتهموا هارون الرشيد بالسكر والتبتك وتسائل مستنكراً ... وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة ، وما كان عليه من صحبة العلماء والأولياء ... وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود صلاة الصبح لأول وقتها؟

وقد حكى الطبرى وغيره أنه كان يصلى في اليوم مائة ركعة نافلة، وكان يغزو عاماً ويحج عاماً ... وقد ثبت عنه أنه عهد بجيس أبي نواس لما بلغه من اتهاماته في المعاقرة حتى تاب وأقلع ، وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق .. وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها .. فلم يكن الرجل بمحى يواعي عمراً من أكبر الكبار عند أهل

الملة^(١) .

• • • • •

الدين الحق بقيمه السياسية في مجال الحكم ، وبقيمه الاجتماعية والإنسانية في مجال الأسرة والمجتمع والعالم ، وبقيمه التربوية التي تصقل الذات وتحفي الضمير ، وتعمل الإنسان دائماً موصولاً بالله . هذا الدين الحق بكل هذه الجوانب الثرية فيه .. أصبح هو ضرورة الضرورات ليحيى من حياتنا من جديد نحن المصريين والعرب والمسلمين ..

إنه القادر الوحيد على التصدى لكل التيارات الغازية سواء العسكري منها والسياسي والفكري . وهذا الدين استطاعت الدولة التركية أن تكسر موجات الغزو الصليبي قرابة أربعة قرون ، وهى أطول مدة في تاريخ البشرية استطاعت فيها دولة أن تصمد لعالم ضار منهوم . ولولا غباء الإدارة وسوء السياسة أحياناً من بعض

(١) مقدمة ابن خلدون - ١٨ - ١٩
ويواجه شقيق جبرى في كتابه « دراسة الأغانى » (٢٨٨ - ٢٨٩) دفاع ابن خلدون عن الرشيد معتمدًا على ركيزتين :

الأولى : أن ابن خلدون لم يورد من الأخبار عن الرشيد ما ينفي عنه معاقرة الخمر .
والثانية : أن الرشيد مات دون الخمسين مما يوحى بتناول الخمر والتبتك والسباحة على صحته فمات في هذه السن .
وما ساقه جبرى في كتابه لا يستقيم رداً منطقياً لأن ابن خلدون أورد في النص السابق وغيره ما يقطع بتدين الرشيد واستقامته .
والاعمار بيد الله ، وهى لا تخلص للاعتبارات المنطقية ولا المعادلات الرياضية . فن التقاة الصالحين من يوت في سن الشباب أو الكهولة كمسير عبد العزى الذى مات دون الأربعين . ومن الفاسدين المنحرفين من يعمر كأبى نواس الذى عاش إلى ما بعد الستين وأبى الفرج الأصفهانى الذى جاوز السبعين .

الحكام الأتراك ، ولو لا ذلك «النخر» الذي قام به بعض المخدوعين من حكام العرب وساستهم في جسم الدولة التركية .. ولو لا العملاء الذين صنعتهم الصهيونية العالمية على عينها من أمثال مصطفى كمال أتاتورك .. لو لا كل أولئك لاستمر الصمود .. صمود الدولة التركية المسلمة قرونا وقرونا .. بل ربما كان للإسلام شأن آخر على مستوى العالم كله^(١) .. وحيثما نقول هو القادر الوحيد فإننا لأنفلو ولا نشط في الحكم ، فوقائع التاريخ الذي تؤيده أكثر من أن تخضى وتعد .. ففي عهود الانحسار العربي والإسلامي .. وفي العهود التي تمزقت فيها الدولة الإسلامية تحت أقدام التتار والصلبيين . كان الإسلام هو «كلمة السر» و«مفتاح السحر» الذي فتح مغاليق الأبواب إلى النصر المؤزر المبين ، وكانت «إسلاماه» هي القوة الصارمة التي غسلت جبين الأرض الإسلامية في حطين وعين جالوت .

وكان رجل الدين — في عهود الانحسار — من أمثال ابن تيمية والعزيز عبد السلام هو الترجي حتى للكفاح النابض والتفكير المستثير ، وكان هو الإمام والملاذ للجماهير حين يشتاد الكرب ويعظم البلاء ..

وكان الإسلام وما زال يتمتع بأصالته لا يتمتع بها أى نظام علماني في العصر الحديث على اختلاف هذه الأنظمة في مشاربها وركائزها وجهاتها : إنه يتمتع بالأصالة الزمانية : فقد سبق زمنيا كل هذه الأنظمة التي تتنازع العالم كله .. في السياسة والحكم والاقتصاد والتربية .

ويتمتع بالأصالة الموضوعية : فقواعدـهـ فيـ شـتـىـ الـمـجـالـاتـ أـقـوىـ وأـقـدرـ وأـثـبـتـ جـذـورـاـ وأـكـثـرـ نـفـعـاـ وـأـقـرـبـ بـلـ أـصـقـ بـالـفـطـرـةـ إـلـيـ إـلـاسـمـانـيـةـ مـنـ القـوـاعـدـ وـالـقـوـانـيـنـ الـوضـعـيـةـ^(٢) ..

ولم يعد هناك نظام إلا وجربته الأمة العربية على اختلاف أوطانها مروراً بالرأسمالية والتنافس الحُرْفِي في مجال السياسة والاقتصاد وانتهاءً بالاشتراكية التي لبست عدة ثوابـ

(١) انظر في توثيق هذه الفكرة وتبصيلها : جلال كشك في مجلة «الرسالة» العدد ١١٠١ ودكتور محمد أنيش : الدولة المشائية والشرق العربي ٤ . ودكتور محمد ذكي عشاوى . الأدب وقيم الحياة المعاصرة ١٧٤ . ودكتور محمد حسين «الاتيادات الوطنية في الأدب العاشر» ٣ / ١ . ومجلة المتنصف عام ١٨٨٩ (ص ٧٢٤ - ٧٢٨) ومقالات لنا بعنوان «الدولة المظلومة والخلية المفترى عليه» بمجلة الرائد الكويتية ٢٣ من مايو سنة ١٩٧٤ .

وأنظر كذلك كتاب «الرجل الصنف» : «مصطفى كمال أتاتورك» بقلم ضابط تركي كبير حيث فضح أسرار أتاتورك والذين تآمروا معه على إسقاط الخلافة الإسلامية في تركيا .

(٢) انظر في صحة هذه المقولـةـ التـشـريعـ الـخـاتـيـ الـإـسـلـامـيـ بـجـزـءـهـ الـمـرـجـعـيـ للـدـكـتـورـ عبدـ الـراـزـقـ السـهـوـيـ . وـاقـرأـ فيـ عـلـمـةـ الـخـاتـيـ الـإـسـلـامـيـ وـتـفـوقـهاـ عـلـىـ الـخـاتـيـ الـغـرـبـيـ كـتـابـ المستشرقةـ الـأـلـمـانـيـ زـيـغـرـ يـدـ هـونـكـةـ «ـشـمـسـ الـعـربـ تـشـرقـ عـلـىـ الغـربـ»ـ .

وتلبيست بها عدة تلفيقات وطوابع حتى أصبح من الصعب نسبتها إلى أي من الاشتراكيات التي عرفت في العصر الحديث.

•••••

وكم هتفت أصوات وأصوات: «الوطنية قبل الدين». وكم رقصت هذه الأصوات على بيت شوقى:

الدين للديان جل جلاله : لوشاء ربک وحد الأقوام

وتلح هذه الأصوات على بقاء «الدين» معزولاً عن «الدولة» تحت قباب المساجد وماذها.. حتى يتعايش عنصراً الأمة في سلام وطمأنينة ووثام. ونسوا أن الإسلام يدعوا إلى التجميع لا التفريق، ونسوا أن أقباط مصر بالذات عاشوا بجلود ممزقة ونفوس ممزوجة تحت سياط الرومان «المسيحيين» وأنهم لم يذوقوا طبع العدل والمساواة إلا في ظل الحكم الإسلامي.

و Ferm يضار المسيحيون إذا حكمت الشريعة الإسلامية في دولة تسعه عشرات سكانها من المسلمين؟ . والجميع يعلمون أن المسيحية لم تأت بنظام سياسي حتى يقال : ولماذا لا يكون للنظام السياسي المسيحي نصيب في شؤون السياسة ونظام الحكم؟ . والجميع يعلمون أن من الأصول الأساسية في المسيحية «دع ما الله الله وما لقيصر لقيصر» ..

وليس في تحكيم الشريعة الإسلامية حجر على الكنيسة المسيحية في مجال العبادة والتربيـة والدعوة والأحوال الشخصية وقواعد المعاش. أما ما يبقى من قواعد الإسلام في مجال الحكم والسياسة والاقتصاد— وكلها قواعد تحكمها العدالة— فليأخذ المسلم نفسه بها دينا .. وليتقبلها المواطن المسيحي قانونا ، وليس في ذلك ما يوقع في حرج أو يدعوه إلى فتنة أو انقسام .

•••••

والذين يقولون «القومية لا الدين» غفلوا أو تغافلوا عن حقيقة واضحة وهي أن الإسلام «دين عربى» وإن كتابه نزل «بـلسان عربى مبين» على «نبي عربى» من «جزرة العرب» . وأن الإسلام اعتمد على نصرة العرب . فإذا كانت فلسفة القومية العربية ترتكز على الاعتزاز بكل ما هو عربى لغة وقىـة وجنـسا فـلـمـا يـنـفـرـ هـؤـلـاءـ منـ إـسـلـامـ؟ . معـ أـنـ كـلـ ماـ يـعـتـزـزـ بـهـ اـذـاـ مـاـ بـتـعـدـنـاـ عـنـ الشـطـطـ وـالـعـصـبـ كـانـ وـمـاـ زـالـ مـنـ أـصـولـهـ وجواهرهـ؟ـ (١)

(١) واضح من قولنا أن الإسلام دين عربى لأننا لا نقصد أنه «دين محلى» أو «دين مرحلى» كالأديان السابقة عليه، فالإسلام دين عالى صالح لكل زمان ومكان، إما نقصد «بربرية الإسلام» عربية القرآن، وعربية النبي، وعربـية الأرض التي ظهر فيها الدين، وعربـية القـومـ الذين بـعـثـ فـيـهـ النـبـىـ عـلـىـ السـلـامـ، هذا طبعا لا يـتعـارـضـ معـ «عالـيةـ الإسلامـ» التي هي حـقـيقـةـ لاـخـتـاجـ مـاـ إـلـىـ أـنـ نـدـلـ عـلـيـهاـ .

والوطنية والقومية بفهمهما الاعتزازي .. الذي يعني حب الأرض والوطن والحرص على صلات القربي والجوار بعيداً عن التعصب الأعمى والتشدد الضيق . هذا المفهوم — لا أقول : يتفق مع الإسلام فحسب — بل أقول إن الإسلام يدعو إليه ، ويلزم المسلمين به . لقد هاجر النبي — عليه السلام من مكة إلى المدينة وفي قلبه حسرات لفراق مكة ، وكان ينادي مكة — أحب بلاد الله إليه على حد قوله — ويدعو الله أن يعينه على هول الدنيا وبواطن الدهر ، ومصائب الليالي والأيام ، وأن يصبحه في سفره ، ويخلفه في أهله (١) ..

وكم عذب بلال بن رباح بمكة في وحشية وقساوة ، وعاش في مكة يواجه الأذى المُرّ والتعذيب الضارى في صبر وثبات .. إلى أن أذن النبي — عليه السلام — للMuslimين بالmigration إلى المدينة فكان في طليعتهم قبل أن يهاجر النبي إليها (٢) .. ومع ذلك كان قلبه معلقاً بمكة ، وكم استبد به الشوق إليها . وكم أنسد وجهي المدينة تغشاه :

ألا ليت شعري هل أبینت ليلهٗ .. يفتح وحولي إذ خروجليلٌ
وهل أرَدْنُ يوماً مياه مجنةٍ .. وهل يبدون لي شامةً وظفيلٌ؟

وهي مواضع ومنابت بمكة وجوارها تشوقها بلال في العلة لما ابتعد عنها ، وليس أعجب في الوفاء لموطن الصبا من هذا الوفاء لأن بلالاً قد لقى عند تلك المواطن والمنابت قسوة في جاهليته ، وتعذيبها في إسلامه ، وخطراً على حياته ، ولكنه عاش فيها مع الصبا الأول ، وعاش فيها مع الإيمان الأول ، فهي حبيبته إليه . أثيره لديه ، وإن لقى الحفاوة والسلامة في الهجرة منها إلى غيرها (٣) ..

فبالهجرة لم يسقط حب مكة من قلب النبي وقلوب المسلمين المهاجرين ، بل كانوا دائماً يتطلعون إليها ، ويشتاقون إلى مدارج صباهم وشبابهم في شباب مكة وجبالها ، فكان من دعاته — صلى الله عليه وسلم — بعد أن استقر في مهجره الجديد « اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد » (٤) ..

* * * *

هذه هي وجهة الإسلام ، وتلك هي طوابعه بما تحمله من ثراء وعطاء . ومع ذلك يصر مسلمو اليوم .. أو القائمون على أمور Muslimi اليوم على التشكيك بالعلمانية في الفكر والسياسة والاقتصاد ، ولو تعمقوا حقائق الأمور والتاريخ لأدركوا أن الإسلام « لو كان في أوربا

(١) انظر ابن كثير: البداية والنهاية / ٣ / ١٧٨

(٢) المقرئي: إماع الأسماع ٣٨

(٣) العقاد: بلال داعي النساء ٩٦ - ٩٧

(٤) محمد الغزالى: فقه السيرة ١٣٥

مانشأة العلمنية في الفكر الأوروبي ، ولما وصل تفكير بعض المفكرين في أوروبا إلى التطرف في المادية والجنجون إلى شحن النفوس بالأحقاد ، ودفعها إلى الانقلاب الدموي حل بعض المشاكل الاجتماعية (١) ..

وإن كان من مفكّر.. فهو صور في معرفة الإسلام ، وخداع نفسه وغيره بعرض قضايا
ذلك أطراها فقط دون جواهرها وغايتها .

وإن كان من سياسي . فهو للتلاعب بالفكرة غير الناضج والتويه في حلبة المناقشة السياسية .

وإن كان من فتى وفتاة . فهو التخلل من التزام الإيمان في التوجيه والسلوك ، والانطلاق في شهوة البطن والفرج والمlbs (٢)

5 of 5

فالدعوة إلى العلمانية والحرص عليها فكراً أو تطبيقاً لم تصدر من أصحابها عن اقتناع بقدر ما هي نتيجة لجموعة من «النفائض الذاتية» من أبرزها العجز والهروب والأنانية.

وفي المقابل تبقى الدعوة إلى «إسلامية الأمة» في السياسة والخلق والاقتصاد والتعليم، لا دعوة إصلاحية فحسب ، ولكن دعوة بنائية بكل مافي كلمة البناء من معنى : هناك أنقاض لابد أن ترفع .. وهناك أسس وجذور لابد أن ترسخ وتضرب في الأعمق ، وهناك صرحو لابد أن ترتفع وتشمخ بالعقيدة وعزيمة الإيمان .

نعم .. لا يكفي الإصلاح بالترميم والطلاء .. لأن ذلك لون من خداع النفس والكذب على الواقع ، فالترميم ترقيع موقوت ، والطلاء بهرج خداع ، وكلها قد يخفى ما في البناء من

(١) د. محمد البهی: العلماۃ والاسلام،

(٢) أنظر السابقة: نفس الصفحة

وَهُنَّ وَعِيُوبٌ ، وَلَكُنْ تَبْقَى الْحَقِيقَةُ هِيَ .. هِيَ .. وَهُنَّ ضَلِيعٌ يَهْدِي الْجَمِيعَ بِالْأَنْهِيَارِ الَّذِي لَا يَقِيُّ وَلَا يَذْرُ:

﴿ أَفَمَنْ أَسْسَ بُنْيَتِنَّهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرَضُوا نَّحْرًا مِّنْ أَسْسَ بُنْيَتِنَّهُ عَلَى شَفَاعَ جُرْفٍ هَارِقَانَهَا رِبَّهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١)

• • • •

وفي ميدان التربية والتعليم مثل صارخ لفلسفة الترميم أو الترقيع الإصلاحى ، ومثله عشرات بل مئات من الأمثلة في شتى الميادين السياسية والاجتماعية ، وأعني به الادعاء القائل بأن « التربية الدينية » مادة أساسية في كل مراحل التعليم . ولمناقشة هذا الادعاء ابتداء من التفسير اللغوي ، وانتهاء بالواقع الذي تعشه هذه المادة التربوية في مدارسنا .

إن كلمة « أساسية » منسوبة للأساس ، وهذا يعني بالمفهوم اللغوي أنها تدخل في « أصل البناء التعليمي » بكل المراحل التعليمية ، وأنها تمثل جزءاً أساسياً في كيانه مثل الطبيعة والكيمياء والرياضيات واللغة العربية ، أي المادتين التي يجب أن يحصل الطالب فيها على نسبة خصين في المائة من الدرجة الكلية أو ما يقارب هذه النسبة حتى يعتبر ناجحاً . كما أن درجة كل مادة من هذه المواد الأساسية تمثل جزءاً من المجموع الكلى لدرجات الطالب .

وهذا يعني - بمفهوم المخالفة - أن مادة التربية الدينية ليست من المواد الفرعية أو الإضافية كال التربية الرياضية ومواد المستوى الخاص .

فإذا سألنا عن « الموقع الحقيقى » لمادة التربية الدينية بين هذين النوعين من المواد الدراسية ، وصلنا إلى نتيجة غريبة تدعى للأسف ، وهى أنها مادة ليس لها من القيمة الفعلية - على أساسيتها المدعاة - ما للمواد الإضافية : فهي مادة رسوب ونجاح - هكذا يقولون - والطالب لا يعد ناجحاً في هذه المادة إلا إذا حصل على أربعين في المائة على الأقل من الدرجة الكلية ، ولكن درجاتها لا تضاف إلى مجموع درجات الطالب لافي سنوات النقل ، ولا في الشهادات العامة !!

(١) التربية ١٠٩

وهي لاتعامل معاملة مادة «التربية الفنية» التي تضاف إلى جموع الطالب ، بل إ لاتعامل معاملة مواد «المستوى الخاص» وهي مواد «تحسين المجموع» .. يختار طالب الثانوية العامة واحدة من هذه المواد .. إذا أرادـ وتنضاف درجاتها إلى جموعه الكلى اذا حصل فيها على خمسين في المائة على الأقل ..

ثم إن نصيب «التربية الدينية» في خطة الدراسةـ بالمرحلة الثانويةـ حصتان في الأسبوع ، وهما غير كافيتين إذا نظرنا إلى هذه المادة نظرة منصفة من جانبها : التربية السلوكي والعلمي المعرفي .

هذا إلى ما يحدث أحياناً في أواخر العام الدراسي من تخفيض الخطة في بعض المدارس مع الجدول الصيفي لتصبح الحصتان حصة واحدة .

وأخيراً لا تفوتنى الإشارة هنا إلى التساهل المفرط في تقدير درجات «التربية الدينية» في الشهادات العامة بصفة خاصة ، فقد أصبح من البديهيات المسلم بها أن الطالب من حقه «أن ينجح» في هذه المادة مادام في ورقة إجابته سطور محبّرة . بصرف النظر عن طبيعة المكتوب الذي لا يدعو غالباً عبارات إنشائية لا يكاد يربطها بالدين أو هي رباط .

وتربّى على كل أولئك استهانة صارخة من الطلاب بمادة التربية الدينية : فهم لا يحفظون الآيات القرآنية المقررة ، بل إن الغالبية العظمى من الطلاب لا يفتحون كتاب التربية الدينية إلا ليلة الامتحان .. يلقون على صفحاته نظارات خاطفة .. وينامون على جفونهم لأنهم يدركون أن «النجاح في الدين» مضمون ..

ولا أعدو الحقيقة إذا قلت إن كثيرين من الذين يقومون بتدریس التربية الدينية لا يقلون استهانة بهذه المادة المطلوبة عن طلابهم .

ـ فليست في مدارسنا المدرس المؤهل ليتفنّغ تفرغاً كاملاً لتدریس مادة التربية الدينية بفروعها المختلفة .

ـ وليس وراء تدریس هذه المادة حافز مادي من دروس خصوصية أو جموعات دراسية توفر للمدرس دخلاً إضافياً مما يدفع المدرسين إلى التهرب منها .

ـ وطبيعة المنهج والتخطيط المتبّع غير الجاد تدفع مدرسي اللغة العربية إلى الجور على حصصي التربية الدينية أو حصصها لتدریس فرع من فروع العربية إذا ما ضاق وقتها عن استيعاب «الكلم» المطلوب منها . بل إن مدرسي المواد الأخرى .. التجربى منها والإنسانى يقّومونـ في أيام الصيفـ بمثل هذا «الجور» ولكن بطريقة «التفاهم الودى» مع السيد مدرس اللغة العربية .

نتيجة مؤسفة ، وتناقض غريب ، وخداع للنفس والحقيقة ، ومع ذلك يصر المسؤولون على أن التربية الدينية مادة أساسية في كل مراحل التعليم ..

• • • • •

وهنالك لون آخر من التناقض أشد وأعنى : الطالب يتلقى في كل سنوات الدراسة أجزاء من القرآن والسنة والعبادات والقيم الخلقية وسير المثل العليا من الشخصيات الإسلامية ، وحيانا يغادر المدرسة إلى الشارع يرى بعينيه ويسمع بأذنيه كل ما ينافق ماتلقى : ففى الكتاب المدرسى : التحشيم في المظهر والملابس واجب .. ولكن يرى في الشارع .. وفي السينما .. وعلى شاشة التلفاز مايندى له الجبين .
الخمر حرام .. ولكن يرى الدولة تبيع الخمر بيعا وشراء وشرابا ..
الربا حرام .. ولكن يرى نظام البنوك يعتمد اعتمادا أساسيا على الفائدة الربوية .

عوامل الهمد أقوى بكثير .. وأكثر بكثير من عوامل البناء ، والنتيجة الطبيعية لهذا التناقض الصارخ بين المعرفة والواقع .. بين المدروس والمعروض .. أن يخرج الشباب إلى معرك الحياة وفي أعقابه جدورة من الحيرة والشك والمصراع الضارى بين الاستسلام لما هو كائن - وهنا تكون السلبية والحنق والضياع - وبين إنكاره والترد عليه ، فيصطدم بعقبات ومعوقات يقف القانون في صف أغليها .. وهنا ينشأ صراع من نوع جديد قد تحول حاسة الشباب فيه إلى عنف وتطرف .

• • • • •

والخل !!؟ .. تقول التجارب المرة التي مرت بها الأمة الإسلامية في القرن العشرين بصفة خاصة .. لا حل إلا في « العودة ». العودة إلى النبع الصافى النبيل .. منيع الدين الذى أكرم الله به هذه الأمة فجعلها خير أمة أخرجت للناس .. ما أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر وأمنت بالله ..

نعم عودة إلى هذا النبع الكريم بعزم المؤمنين وصدق المتقين . والطريق إليه واضح لا يحتاج إلى لواحة وبرامج بقدر ما يحتاج إلى النوايا الصادقة والتنفيذ الأمين ، فالبرنامج - كما يقول كارييل - قد يخفق التجربة الحية خلف درع صلبة ، إنه سيمعن اثبات غير المتتبأة ، ومحبس المستقبل داخل حدود عقلنا (١) ..

(١) الكسيس كارييل : الإنسان ذلك المجهول ٣٥٩

والعودة إلى هذا النبع الكريم لن تكلفنا مشاق ، ولن تخشمـنا آلاماً و معاناة ، لأنها أخذت بيد الإنسان إلى ما يتفق مع « فطرة الإنسانية » بعد أن فقد سعادته .. بل آدميته حين وقع فريسة للأيديولوجيات الوضعية ، وأدار ظهره لميراثه الكريم البطل .

(١) ﴿فَإِنَّمَا الْزَّبُدُ فَيَذَهَّبُ جُفَاءً وَإِنَّمَا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾

(١) الرعد ١٧

خلاصة البحث

نهر ١٥٤ المدى

(١) كان المجتمع الجاهلي غاصاً بالفاسد: عبادة الأوثان، شرب الخمر، الظلم والقهر، الاحتکام إلى السيف في حل القضايا حتى كانت الحروب تستمر عشرات السنين لأنفه الأسباب.

وبعض هذه الأمراض الاجتماعية والخلقية كان عاماً كالذى ذكرنا، وببعضها كان خاصاً ببعض قبائل العرب الصعيفة مثل وأد البنات. على أنه من الحقائق التي يجب أن نعيها بالنسبة للمجتمع الجاهلي في الجزيرة العربية:

أ— أنه لم يكن أسوأ المجتمعات فقد كانت المجتمعات التي تحيط به وبخاصة مجتمع البرس والروم أشد سقوطاً وتکالباً على المفاسد والرذائل. وهذا يقتضينا أن نفس المجتمع الجاهلي تفسيره الصحيح ليشمل كل المجتمعات السابقة والمزامية لبعثة الرسول وهذا يتفق مع طبيعة الرسالة الحمدية.. خاتمة الرسائلات التي جاءت للناس عامة عربهم وعجمهم في كل الأوطان وكل الأزمان.

ب— أنه لم يخل من الفضائل الإنسانية من شجاعة وكرم ونجدة وإغاثة الملهوف. يدل على ذلك:

- حلف الفضول الذي حضره محمد شاباً وأنى عليه نبياً وهو حلف عقد في الجاهلية لنجددة المظلوم.
- نقض بعض الجاهليين— وهم كفار— لصحيفة مقاطعة قريش للنبي وأله من بنى هاشم وإمدادهم بالطعام والكساء في ظلمة الليل سراً.
- استئثار هند بنت عتبة أن يكون هناك الحرفة الزانية.. فالزانيات كن جماعة من الإمامات المحترفات لا يزيد عددهن عن ست أو سبع.
- إنقاذ بعض كرام الجاهليين للوليدات الائني يحاول آباءهن وأدهن بشرائهم من مالمهم الخاص حرضاً على حياتهن.

وكانت هذه الفضائل هي البقية الباقية من بصمات الأديان في النفس العربية: الإبراهيمية واليهودية والمسيحية.. واستجابة لصوت الفطرة التي يولد عليها كل مولود.

(٢) وجاء الإسلام فكان له ثلاثة مواقف من القيم الجاهلية شرها وخيراها :

الموقف الأول هو التحرير :

فقد حرم ماغضض به المجتمع الجاهلي من شرور وموبقات : حرم الشرك بالله أول ما حرم ودعا إلى عبادة الواحد الديان . الفرد الصمد . وحرم وأد البنات وحرم الظلم والعدوان وحرم الخمر والميسر والازلام .

الموقف الثاني هو الإقرار :

فقد أقر البقية الباقيه في المجتمع الجاهلي من فضائل كالكرم والشجاعة والتجردة حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم أثني على حلف جاهلي هو حلف الفضول وقال إنه لودعى به في الإسلام لأجابه .

الموقف الثالث التسامي أو الإعلاء :

ويتلخص في الإبقاء على «المنيع القيمي» مع تحويل مساره من «الانحراف الخلقى» إلى الوجهة السوية الصحيحة . فاستغل الطاقة الشعرية في الدفاع عن الدين والإشادة بمحكم الأخلاق . وحول غريزة الغضب وحب القتال والعدوان إلى تعشق الجهاد حرضا على نشر الدين وإعلاء كلمة الله . ومن أشهر الشعرااء الذين سما الإسلام بطاقتهم الشعرية عبد الله بن الزبير الذى كان في الجاهلية من أفحش الناس وأهجم عليهم ، فلما أسلم صار شاعر حرق وصدق ودين

(٣) والقيم الإسلامية نوعان :

أ - القيم السلبية أو قيم التخلى . وتظهر في ترك الموبقات والشرور كالخمر والغدر والظلم وأكل السحت .

ب - القيم الإيجابية أو قيم التحلى : مثل الصدق والرحمة والأمانة والكرم .. الخ .

وهذه القيم في مجتمعها تتسم بسمات ثلاث :

السمة الأولى : التدرج التكليفي :

يعنى أن هذه القيم بصورةها لم يأت التكليف بها طفرة واحدة ولا ملئ الناس وعجزوا عن أحد أنفسهم بها ولكنها جاءت بالتدريج تبعا للأحداث والاحتياجات ومقتضيات الأحوال .

والدرج سمة كونية في الخلق والحياة بالنسبة للإنسان والحيوان والنبات ...

وأهم ماحققه الإنسان بهذا التدرج فائدةان :

(أ) ضمان تنفيذ العمل والاستجابة للشرع أمراً ونهياً .

(ب) ترسيخ التكاليف والقيم في نفوس المؤمنين .

وقد ظهر هذا التدرج التشريعي في كل التكاليف الإسلامية على وجه التقرير كالصلوة والصيام . ولكن أشهر مثال لهذا التدرج هو تحريم الخمر التي لم تحرم التحريم القاطع إلا بعد تمهيد نفسى قرابة عشر سنوات . فلما حسم القرآن المسألة بآية المائدة « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان .. الغ » كانت الإجابة العملية لل المسلمين « انتهينا انتهينا ». .

وقيمة التدرج تظهر إذا ما عرفنا أن أمريكا أخفقت إخفاقاً ذريعاً في تحريم الخمر حين فرضت فجأة في مطلع العقد الثالث من هذا القرن قانون تحريم الخمر، وأنفقت عليه مئات الملايين من الجنيهات واستخدمت القوة والسطوة دون جدوى فعادت إلى إباحة الخمر مرة ثانية . .

السمة الثانية : الوسطية العادلة :

بعد إغراق اليهودية في المادية العاتية .. وبعد إغراق المسيحية في الروحانية والرهbanie .. جاء الإسلام على فترة من الأديان وجاء محمد على فترة من الرسل .. ليصنع « الأمة الوسط » . وكانت الأخلاق الإسلامية بعيدة عن حدّى الغلو: الإيغال في المادية والإيغال في الروحانية ، وكان المنطق والمنطلق الأخلاقي الإسلامي هو قوله تعالى « وابتع فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ». .

ولكن الإسلام لم يقف من الأخلاق اليهودية والأخلاق المسيحية موقف العداء فقد أقرت العصرية الإسلامية أحکاماً كانت موجودة في الشريعة السابقة مثل الصوم والأضحية ورجم الزانى وتحريم الخمر . ومن سماته الإسلام أنه يمجد « القيمة الأخلاقية » في ذاتها ، لم يمجد حلف الفضول: حلف العدل والنجد والأريحية قبل الإسلام وبعد الإسلام ، وهو الحلف الذي عقده جاهليون كانوا على دين الشرك وعبادة الأصنام؟

وشرع من قبلنا يعد مصدراً من مصادر التشريع في الإسلام فيها سكت عنه ديننا ولم يتعارض مع قواعده . ولكن « المفهوم القيمي، الإسلامي » - كمفهوم خالد غير مرحل - ابتعد كما قلت عن الإيغال في مادية اليهودية والإيغال في رهbanie المسيحية ، والتزم الحد الوسط في الفضائل . فكانت المثالية الإسلامية بهذه الوسطية « مثالية واقعية » وإن شئت فقل « مثالية أرضية » قادرة على « المعايشة » والبقاء والخلود .

وال المسلم بهذه « الوسطية الأخلاقية » إنما يتحقق « التوازن المترافق » بين العناصر الثلاثة

للتسييج البشري وهي : العقل ، الجسد ، الروح .. وهذا التوازن يعني في حقيقته القيام بعملية « توفيق » بين مطالب العقل من علم و معرفة ، ومطالب الروح من عبادة وصفاء وإيمان ، ومطالب الجسد من طعام وشراب وجنس مشروع .

والجور على حق العقل في الإشاع يؤدى إلى الجهالة الحيوانية .

والجور على حق الروح في الإرواء يؤدى إلى الجمود والتحجر النفسي .
والجور على حق الجسد يؤدى إلى الاصطدام بالفطرة الإنسانية .

وعملية « التوفيق » بين مطالب العناصر الثلاثة تحقيقاً للوسطية العادلة ، تختلف في جوهرها عن عملية « التلقيق »؛ فالتلقيق يعتمد على الافتعال والتغافل والتعسف والتعنت والمظورية دون مراعاة لمقتضيات المناسب الإشعاعي لهذه العناصر الثلاثة .

السمة الثالثة لقيم الإسلام هي الهمينة التشريعية :

وأعني بهذه السمة أن الطابع الأخلاقي والدافع الإنساني وراء كل قاعدة من قواعد الشريعة الإسلامية ، سواء أكانت قاعدة كليلة أو قاعدة جزئية . من هنا جعل الإسلام المقام الأول « للنية » في تكيف الأعمال والأقوال وتقييمها .

وقد قرر النبي عليه السلام هذه القاعدة في حديثه المشهور :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ مانوى »

وتفتقر « الهمينة التشريعية » للطوابع الأخلاقية الإسلامية بصفة خاصة في جانبي :

أ— العبادات الإسلامية :

من صلاة وصيام وزكاة وحج ، فكل هذه العبادات لها جانب الجانب الشكلي المظاهري ، وهو جانب الأداء بالألفاظ والشكل والصورة التي نص عليها الشارع . والجانب الموضوعي الغائي وهو أن تتحقق هذه العبادات ما شرعت من أجله وهو تربية الضمير وتنمية الوجدان وحسن معاملة الآخرين . لذلك أمر القرآن بإقامة الصلاة لا « أدائها » والإقامة أكمل وأرقى من الأداء ، وهذا يتفق مع المادافية الأخلاقية للصلوة التي لخصها الله سبحانه وتعالى في قوله « إن الصلاة تهى عن الفحشاء والمنكر » ..

والصوم تربية للنفس على الصبر والانتصار على عبودية « العادة » واستشعار آلام الآخرين بالجوع والعطش ، والإحسان إلى الناس بمعاملة الطيبة ، فلا جهالة ولا رثة حين يكون المنافق الحاكم هو « اللهم إني صائم » ..

والزكاة إنما شرعت تطهيراً للنفس وتزكية للمال « خذ من أموالهم صدقة تطهيرهم وتزكيتهم بها . فإذا أصبحت الصدقة منْ أو أذى فقد حبط العمل وبطل الثواب .

بـ القواعد القانونية :

حيث تحرص الشريعة على أن تبني هذه القواعد على أسس أخلاقية ، وأن تراعى الجانب الإنساني عند الاقتضاء وتنعكس هذه المراعاة في نظريتين مشهورتين : الأولى : هي (نظرية التفسف في استعمال الحق) فتملأ الحق لا يكون مطلقا بل هو مقيد باحترام حقوق الآخرين وعدم الإضرار بهم ، وإن كان هذا نعنتا وتعسفا يتعارض مع أمر الرسول عليه السلام ، بأنه « لا ضرر ولا ضرار » ..

وقد وضع الفقهاء المسلمين للحق قواعد وضوابط ما زالت حتى الآن تمثل أرقى معرفته البشرية في هذا المجال .

أما النظرية الثانية التي تدل على أخلاقية القواعد القانونية الإسلامية فهي (نظرية الضرورة) وما تطبيقات كثيرة جدا نص عليها الفقهاء ، وكلها تطبيقات تراعى الجانب الإنساني :

منها مثلا: أن الضرورات تبيح المظورات، فحرضا على حياة من لا يجد إلا الخمر لدفع الظمآن القاتل يبيح له الإسلام شرب الخمر ولكن بقدر ما يدفع عن نفسه الملاك ..

والدين الذين هلك ماله بفعل قهري لا دخل له فيه يهلك إلى ميسرة أو ينحف عنه الالتزام بسبب الضرورة الحالة التي أصرت بالدين وأهلكت ماله .

وقد كان لهذه النظرية الإسلامية تأثيرها البالغ في القانون الوضعي فيما يتعلق بنظرية القوة القاهرة أو الحوادث الطارئة ..

* * * * *

(٤) وتقرير القيم لا يعني عن وجود المثل الحي الذي تتجسد فيه هذه القيم ، و يتمثل به الناس أقوالاً وأفعالاً .. وقد كان محمد هو هذا المثل الأعلى الذي تمثلت فيه قيم الحب والسمحة والرحمة والوفاء والصبر والزهد فيما يتهالك عليه الناس ويتكالبون ويتقاتلون .

لقد تعلىـ عليه السلامـ بكل المناقب الجديرة بخاتم الأنبياء ، وكل منقبة من هذه المناقب كانت في أرقى صورة وأشمل مفهوم : فرحمتهـ على سبيل المثالـ اتسعت لأصحابه وأصحابه واتسعت لأعدائه فدعا لهم بالمداية ، واتسعت للطفل الصغير وللشيخ الكبير واتسعت للحيوان الأعمى .

وما يقال عن الرحمة يقال عن الوفاء والعفو والحلم والصبر والعزة والتواضع إلى آخر قيم الإنسان الكامل .

وإذا كانت بلاغة الأقوال في مراعاة مقتضى الحال .. فبلاغة الأعمال في استخدام الصفة الخلقية في الموقف الذي تتناسب معه : فمن الخطأ وضع الندى في موضع السيف، ومن الخطأ كذلك وضع السيف في موضع الندى . وقد كان عليه السلام يعلم ويفوحينا يكون الحلم والعفو بميزان العقل والشعور «ضرورة إنسانية» لا بديل لها .

وكان عليه السلام يشدد في غير ظلم – إذا كانت الشدة انتصاراً لحق ودين : فعما عن الأعرابي الجافى الذى أساء إليه وجذبه من ثوبه الحشن جذبة أثرة في عنقه ، ولكنه لم يلن لسبيلة الكذاب حينما جاء إلى المدينة «يساوم» على مركز «الخلافة» بعد الرسول .. إنها عبقرية المعاملة والأفعال التي كانت المظهر التجسيدي لعبقريّة المخلص والصفات .

* * * *

(٥) ولم يكن محمد «ملاكاً» هبط من السماء .. إنما كان بشراً مثلهم يوحى إليه .
وكان هذا الإعلان القرآني يدل دلالة قاطعة على أن المثالية الحمدية هي «مثالية الإمكان»
وليس «مثالية الإعجاز» هي «مثالية الواقع» وليس «مثالية الخيال اليوتوبى» .

وكان هو القدوة الصالحة التي تدل على هذا الإمكان : «صلوا كما رأيتموني أصلى» .
كان دائماً يتقدم أصحابه في السلم والحرب بالقول الصادق والعمل المخلص الشجاع ليتمثلاً
به ويقتدوا ، فلهم فيه الأسوة الحسنة دائماً ..

وكانت هذه القدوة هي الملمح الأول في منهج محمد في التربية الأخلاقية ..
وببراعة النبي المثلهم لم يكن يترك حدثاً – خاصاً أو عاماً – إلا واعتذر منه دلالته ،
واستخلص منه عبرته ، وعلم المسلمين الدروس التي تتعلق به وترتبط .

وهو في دروسه يستعين كثيراً بما يحبب ويشوق : يستعين بالتشبيهات والتوصير والحكم
والأمثال .

وهو في تعاليه لا يفضح الخطئين بل يجعل التوجيهات غير مباشرة تدل على موضع
«العيوب» ولا يهم موضع العيوب .. المهم «الناتج الأخلاقي» لا «التشهير الفاضح» فهو
لم يبعث لعانا ولا شاما ..

ثم كانت قاعدة أو قاعدتاً «السؤال والجواب»

يسأله المسلمون وعليه أن يجيب ويرشد ويوجه ..

وهو بدوره يسأل المسلمين سؤال العارف والعالم الذى يسأل تلاميذه ومريديه تنشيطاً
لهم وتفتيحاً لأذهانهم واختباراً لقدر ما يعلمون ، ثم تكون له الكلمة الخامسة بعد ذلك لأنه
كان – على أميته – أعلم العلماء ..

وكانت هذه الملامح ابتداء من القدوة العملية الصالحة وانتهاء بقاعدة «السؤال والجواب» هي أهم عناصر «المنهج الحمدي» في غرس القيم الأخلاقية في نفوس المسلمين .

• • • • •

(٦) والعلمانية التي تسود الوطن العربي والإسلامي تعزل الدين عن الدولة ، بل تعزل القيم الخلقية عن الدين ، مع أن الدين هو أعمق منابع هذه القيم وأثراها ، كما أن قيم الدين ثابتة أصلية وإن اتسعت للمرءونة والسماحة والتجدد ..

والأخلاق الدينية لاتجافي الفطرة الإنسانية ، بل تسايرها وتتفق معها ، كما أنها أخلاق لها ما يؤيدها من السنة النبوية العملية ومن عمل السلف الصالح رضوان الله عليهم ..
والتحلى بالأخلاق الدينية ، واستلهام روح الدين في القول والعمل يعد استجابة لأمر الله ، ومن ثم يضمن لنا رضوانه ونصره ..

• • • • •

ولكن العلمانيين يواجهون الحقائق السابقة بشبهات تهدف في جموعها إلى التهوي من قيمة الدين كطاقة بناءة تولد النصر والاستقرار وسعادة المجتمع . ومن هذه الشبهات :

• انتصار الشيوعيين الملحدة في فيتنام على الأميركيان وهم أهل دين سماوى وكتاب .

ونحن نقول : إنهم انتصروا بمحاسنة المظلوم المغضوب ضد الظالم الغاصب لا بمحاسبة الإلحاد في مواجهة الإيمان ..
وإذا صاح مايدعون فاللحجة مردودة عليهم لأن حماسة الإيمان أقوى بكثير من كل حساست الإلحاد وطاقاته ..

• أمريكا هي أقوى دولة في العالم مع أنها تموج بالمجاذيف والفساد الأخلاقية من خمر ومخدرات وإباحية جنسية .. ونحن نقول :

(١) لا يستطيع أحد أن يزعم أن هذه المفاسد هي «سر القوة الأمريكية» .

(ب) وهناك في أمريكا أصوات قوية تناذى بالقضاء على هذه المفاسد .

(ج) وفي أمريكا من عوامل التعبويض المادي والمعنوي مايخفف من أثر هذه المفاسد ..

(د) ولو تصورنا أمريكا وقد تخلصت من هذه المآثم فلا شك أنها ستكون أقوى بكثير مما هي عليه الآن .

● اسرائيل – دولة اللا أخلاق – سجلت أقوى الانتصارات على أمة العروبة والإسلام والأخلاق ..
ونحن نقول :

(أ) الخيرية أو الأفضلية إنما تكون بالعمل والالتزام الديني ، وهذا ما فرطت فيه الأمة العربية .

(ب) الله قد يسلط على عباده العصاة – بعصاهم – من هم شر منهم، كما سلط المجوس عبدة النار على اليهود – وهم أهل كتاب – لما عملوا بمساخط الله .

● الدولة الإسلامية نفسها سجلت أزهى انتصاراتها وتقديمها العلمي والاقتصادي في العصر العباسي مع وجود الخمر والمفاسد .. ومع تهتك الخلفاء كهارون الرشيد ..
ونحن نقول :

(أ) ان حقائق التاريخ الإسلامي قد نالها من التشويه الشيء الكثير على أيدي أعداء الإسلام ، وللأسف على أيدي كثير من مؤرخي العرب أنفسهم قديماً وحديثاً .

(ب) والثابت أن هارون الرشيد بالذات كان مثالاً للتقوى والصلاح والهيبة والقوة والعدل .

• • • •

وليس أمام الأمة الإسلامية – حتى تستعيد مكانتها العظمى – إلا العودة إلى الدين في كل مجالاتها السياسية والاقتصادية والتربوية ، فرصيده من الواقع التاريخي يقرر أن العرب لم ينتصروا إلا به حتى في أشد العهود ضعفاً وظلاماً ..
ورصيده من المبادئ والقواعد الأصلية السبعة فيها القناء الكامل عن كل أيديولوجية أو قانون وضعى .

والإسلام لا يجافي الوطنية ، ولا يتعارض مع القومية ، بل إن روحه تتسع لها ما كان طابعها الاعتزاز والحب والتضاحية والإنسانية والبعد عن التعصب . والذين يخشون من الإسلام والشريعة الإسلامية على وحدة الصيف بعنصرية (الإسلامي والمسيحي) نقول لهم : تذكروا أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي لا يعترف بالمسلم مسلماً إذا كفر بال المسيحية أو اليهودية وأنكر عيسى أو موسى أو أنبياء الله وكتبه . وتذكروا أن نصارى مصر لم يذوقوا في حياتهم عدلاً كالذى عاشوه في ظل الحكم الإسلامي ..

• • • •

وتبقى العلمانية بعد ذلك فلسفة هلامية هروبية تدل على العجز والتصرور والسطحية والأنانية . ويأتى إخفاق الفلسفات والأيديولوجيات الوضعية صرخة قوية في وجوهنا : عليكم بإسلامية الكيان .. لا بالترميم والتحايل والتظاهر والطلاء .. بل بالبناء الثابت الراسخ .. إن كنتم جادين حقاً في أن تكونوا من جديد - خير أمة أخرجت للناس ..

المراجع

- (١) القرآن الكريم ..
- (٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين . المطبعة الفوذجية . القاهرة . الطبعة الثانية .
- (٣) إحياء علوم الدين : حجة الإسلام أبو حامد الفزالي — دار الشعب — القاهرة .
- (٤) الأدب وقيم الحياة المعاصرة: د. محمد زكي عشماوى . القومية للطباعة والنشر . القاهرة (د.ت) ..
- (٥) الأخبار الموقيات : الزبيرين بكار: تحقيق الدكتور سامي مكي الغانى — بغداد .
- (٦) أسباب النزول : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي / القاهرة ١٩٦٣ ..
- (٧) أسد الغابة في معرفة الصحابة : عز الدين بن الأثير (دار الشعب / القاهرة) ..
- (٨) أسرار العبادات في الإسلام : د. عبدالحليم محمود: المصرية للتأليف والترجمة والنشر (القاهرة ١٩٦٦) ..
- (٩) أصول التشريع الإسلامي : على حسب الله (الطبعة الأولى ١٩٥٢ — مكتبة الجامعة — القاهرة) ..
- (١٠) أصول الفقه : محمد زكريا البرديسي (الطبعة الثانية) ١٩٦١. مطبعة دار التأليف / القاهرة .
- (١١) الأغانى : أبو الفرج الأصفهانى طبعة دار الشعب .
- (١٢) إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنبياء والأموال والحفدة والمتابع : المقريزى : تقدى الدين أحمد بن علي . تحقيق وتعليق : محمود شاكر — لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ .
- (١٣) الإنسان ذلك المجهول : الكسيس كاريل . تعریف : شفيق أسعد فربد . مكتبة المعارف . بيروت . ط ٣ . ١٩٨٠ .

- (١٤) الإنسان في القرآن الكريم : عباس العقاد . دارالهلال ١٩٦١
- (١٥) البداية والنهاية : الحافظ اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي . دار الفكر العربي القاهرة . (ط ١) ١٩٤٢
- (١٦) بلال داعي السماء : عباس محمود العقاد . مكتبة غريب . القاهرة (دت) .
- (١٧) تحت شمس الفكر: توفيق الحكيم . مكتبة الآداب . القاهرة ١٩٨٢ .
- (١٨) التشريع الجنائي الإسلامي (القسم العام) عبد القادر عودة (ط ١) ١٩٤٩ – دار النشر / القاهرة .
- (١٩) التشريع الجنائي الإسلامي (القسم الخاص) عبد القادر عودة (ط ٢) ١٩٦٤ – دار العروبة / القاهرة .
- (٢٠) التشريع والفقه في الإسلام تاريخاً ومنهجاً : مناع القطان (ط ١) ١٩٧٦ وهبة / القاهرة ..
- (٢١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير النار) الإمام محمد عبده (ط ٣) ١٩٦٧ دار النار.
- (٢٢) التفكير فريضة إسلامية : عباس العقاد . دارالهلال . القاهرة (دت) .
- (٢٣) تنزيل القرآن على الشواهد من الأبيات شرح شواهد الكشاف (ملحق بالجزء الرابع من الكشاف) . حب الدين أفندي ..
- (٢٤) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي – دار الشعب – القاهرة .
- (٢٥) حجة الإسلام البالغة : شاه ولی الدين بن عبد الرحيم الدهلوی / دار التراث ١٩٧٧
- (٢٦) حقوق الإنسان في الإسلام : د. علي عبد الواحد وافي . دار نهضة مصر . القاهرة (ط ٥) ١٩٧٩ .
- (٢٧) الحياة العربية من الشعر الجاهلي : دكتور أحد الحوفي . مكتبة نهضة مصر . القاهرة (ط ٢) ١٩٥٢
- (٢٨) الخراج : أبو يوسف : يعقوب بن ابراهيم بن حبيب البجلي . دار الإعتصام . القاهرة ١٩٨١
- (٢٩) دراسة الأغانى : شفيق صبرى . دمشق ١٩٥١
- (٣٠) دستور الأخلاق في القرآن : د. محمد عبد الله دراز . (ط ١) ١٩٧٣ – بيروت .

- (٣١) دلائل الإعجاز في علم المعانى : عبد القاهر الجرجانى . دارالمنار . مصر (ط . ٥) .
- (٣٢) الدولة العثمانية والشرق العربى : د . محمد أنيس . القاهرة . الأنجلو (د . ت) .
- (٣٣) ديوان الخطيب : جرول بن أوس . تحقيق عيسى سaba (دارصادر . بيروت) .
- (٣٤) زاد المعاد في هدى خير العباد : أبوعبد الله بن القيم الجوزي (صبيح بالأزهر بالقاهرة) .
- (٣٥) السيرة النبوية . لابن هشام : أبومحمد عبد الملك بن هشام المعافري تحقيق محمد فهمي السريجاني / المكتبة التوفيقية ١٩٧٨ — القاهرة ..
- (٣٦) سيرة عمر بن الخطاب : على الطنطاوى وناجى الطنطاوى : المكتبة العربية / دمشق .
- (٣٧) السياسة الشرعية : ابن تيمية : طبعة دار الشعب / القاهرة .
- (٣٨) شرح القصائد العشر : الخطيب أبوذكرى يحيى بن على التبريزى (إدارة المطبعة المنيرية — القاهرة ١٣٦٩هـ) .
- (٣٩) الشعر والشعراء : ابن قتيبة — (ط ٣) ١٩٨٨ . تحقيق الشيخ أحمد شاكر .
- (٤٠) الشفاعة بتعريف حقوق المصطفى : القاضى عياض بن موسى اليخصى الأندلسى . تحقيق محمد أمين قرة على وآخرين (مؤسسة علوم القرآن — دمشق) .
- (٤١) صحيح البخارى : أبوعبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن برذى يه البخارى الحنفى / دار الشعب / القاهرة .
- (٤٢) صحيح مسلم : مسلم بن الحاج بن مسلم القشيري التيسابوري أبوالحسين حافظ . بشرح النووي الشافعى . تحقيق عبد الله أحمد أبو زينة (دار الشعب / القاهرة) .
- (٤٣) طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلام الجمحي . تحقيق محمود شاكر (مطبعة المدنى القاهرة) .
- (٤٤) عثمان بن عفان : د . محمد حسين هيكل . دار المعارف ١٩٧٣ .
- (٤٥) العدالة الاجتماعية في الإسلام : سيد قطب (ط ٢) دار مصر للطبااعة — القاهرة .
- (٤٦) العقد الفريد : أبوعمر أحد بن محمد بن عبد رببه الأندلسى . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠ ، القاهرة .
- (٤٧) العقل المؤمن أو الدين عن طريق الفكر : عبد المنعم خلاف . دار الكتاب العربي القاهرة (ط ١) ١٩٥١ .

- (٤٨) العلمنية والإسلام بين الفكر والتطبيق : د. محمد البهى . مطبعة الأزهر. القاهرة ١٩٧٦.
- (٤٩) العمدة (في محسن الشعر وادبه ونقده) : أبوعلى الحسن بن رشيق القيروانى الأزدى : دارالجليل . بيروت (د. ت) .
- (٥٠) الفقه الإسلامي : د. محمد سلام مذكور، مطبعة الفجاجة .. القاهرة (ط ٢) ١٩٥٥
- (٥١) فقه السيرة : محمد الغزالى . دارالكتاب العربى . القاهرة (ط ١) ١٩٥٣
- (٥٢) في ظلال القرآن : سيد قطب . (ط ٩) دارالشروق ١٩٨٠
- (٥٣) القاموس المحيط : الفيروز ابادى : محمدالدين محمدبن يعقوب (مطبعة الحلبي بالقاهرة) .
- (٥٤) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم : موريس موکای (دارال المعارف ١٩٧٩)
- (٥٥) قصة الحضارة : ول دبورانت : ترجمة د. زکی نحیب محمود (ط ٢) ١٩٥٦ لجنة التأليف والترجمة والنشر / القاهرة .
- (٥٦) القضايا الكبرى في الإسلام : عبدالمتعال الصعیدی (مكتبة الآداب بالجماميز بالقاهرة) .
- (٥٧) الكتاب المقدس (كتب العهد القديم والعهد الجديد) .
- (٥٨) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : أبوالقاسم جار الله محمودبن عمر الزمخشري الخوارزمي (دارالفکر- بيروت) .
- (٥٩) كشف الکربة بوصف حال أهل الغربة (غربة الإسلام) : الحافظ بن رجب الخلبي . دارالكتاب العربى . القاهرة (ط ١) ١٩٥٤
- (٦٠) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ : أبوالحسن على الحسنى الندوى – الطبعة الثانية ١٩٥١ (دارالكتاب العربى / القاهرة) .
- (٦١) مبادئ تاريخ القانون : د. صوفى أبوطالب ١٩٥٨ / مكتبة النهضة المصرية / القاهرة .
- (٦٢) مبادئ علم النفس العام : د. يوسف مراد : (ط ٢) دارال المعارف ١٩٥٤ .
- (٦٣) المجتمع الإسلامي : د. أحمد شلبى (ط ٢) ١٩٦٣ مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة .
- (٦٤) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية : محمد الخضرى : الجزء الأول / الطبعة السادسة ١٣٧٠ المكتبة التجارية / القاهرة .
- (٦٥) محاضرات في النصرانية : محمد أبوزهرة (ط ٢) مطبعة مخيم القاهرة ١٩٤٩ .

- (٦٦) المرأة العربية في الشعر الجاهلي : د. أحمد الحوفي . مكتبة نهضة مصر ومطبعتها .
- (٦٧) مركز المرأة في قانون حورابي وفي القانون الموسوي : جان أمل ريك. تعریف سليم العقاد . المطبعة العصرية بمصر ١٩٢٦ .
- (٦٨) مصادر الالتزام : د. عبد المنعم فرج الصدة ١٩٦٠ (الحلبي / القاهرة) .
- (٦٩) المشكلة الأخلاقية والفلسفية : أندر يه كرسون . ترجمة عبد الحليم محمود وأبوبكر زكري .. دار إحياء الكتب العربية — القاهرة .
- (٧٠) مفاتيح الغيب المشتمر بالتفسير الكبير للفخر الرازي : محمد الرازي فخر الدين — المطبعة الحسينية المصرية — القاهرة .
- (٧١) مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون . دار الشعب .. القاهرة .
- (٧٢) الملكية في الشريعة الإسلامية مع المقارنة بالشريائع الوضعية : علي الحفييف . معهد الدراسات العربية . القاهرة (ط ١-١٩٦٦) .
- (٧٣) منهج التربية الإسلامية : محمد قطب . دار الشروق . القاهرة (ط ٢) .
- (٧٤) موجز أصول الالتزامات : سليمان مرقص : مطبعة لجنة البيان العربي / القاهرة ١٩٦٢ .
- (٧٥) الموطأ : الإمام مالك بن أنس بتصحيح وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي (دار الشعب) .
- (٧٦) نحن والحضارة الغربية : أبو الأعلى المودودي — بيروت ١٩٥٩ .
- (٧٧) نظرية الإباحة عند الأصوليين والفقهاء : د. محمد سلام مذكر . (دار النهضة العربية ١٩٦٥) .
- (٧٨) نهاية الأرب في فنون الأدب : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب التويري (مصورة عن طبعة دار الكتب ١٩٥٤) القاهرة .
- (٧٩) نهج البلاغة (وهو ما اختاره الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين على بن أبي طالب .. شرح الإمام محمد عبده . دار الشعب القاهرة (د.ت) .
- (٨٠) اليهودية : د. أحمد شلبي . مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨ (ط ٥) .

الفهـرس

الإـهـداء .. (٥)

التـقـديـم .. (٧-٨)

(٩-٣٨)

الفـصـل الأول : مع التـارـيخ ورـصـيد الفـطـرة

بداية الدعوة إلى العلمية والحركة الناشطة— ربانية المنبع القيمي في الإسلام وأثرها— بين النجاشي وجعفر بن أبي طالب— قائمة القيم الجاهلية : عبادة الأوثان . الظلم والبغى . لغة الدم . شخصية الفرد في شخصية الجماعة . وأد البنات . شرب الخمر— نوعان من القيم المختلة : عام شائع وخاـصـ ضيق النطـاقـ . وأد البنـاتـ من النوع الثـانـيـ— لا وجود لزنىـ الحـرـائـرـ والـدـلـيلـ عـلـىـ ذـلـكـ . تحـرـمـ غـيرـ الـمـوـجـودـ وـغـيرـ الشـائـعـ فـيـ جـزـيـرـةـ الـعـرـبـ يـدـلـ عـلـىـ عـالـمـ الـإـسـلـامـ . طـبـيـعـةـ التـضـارـيسـ الـخـلـقـيـةـ فـيـ فـارـسـ وـالـرـوـمـ . فـصـائـلـ فـيـ الـجـمـعـ الـجـاهـلـيـ . الـكـرـمـ . حـلـفـ الـفـضـولـ وـنـصـرـةـ الـمـظـلـومـ . صـحـيـفـةـ الـمـقـاطـعـةـ وـنـقـضـ بـعـضـ الـجـاهـلـيـنـ هـاـ . أـبـوـسـفـيـانـ يـصـدـقـ فـيـ وـصـفـ الرـسـوـلـ أـمـامـ قـيـصـرـ الـرـوـمـ . مجـتمـعـ الـمـتـاقـضـاتـ . مـصـدـرـانـ لـفـضـائـلـ الـجـاهـلـيـةـ : الـأـدـيـانـ السـمـاـوـيـةـ وـالـفـطـرـةـ الـإـنـسـانـيـةـ . مـوقـفـ الـإـسـلـامـ مـنـ قـائـمـةـ الـقـيمـ الـجـاهـلـيـةـ : ١ـ تـحـرـمـ الـكـفـرـ وـالـشـورـ وـالـمـوـبـاتـ وـغـرـسـ الـقـيمـ الـجـدـيـدـةـ الـبـدـيـلـةـ ٢ـ إـقـرـارـ الـأـعـمـالـ وـالـفـضـائـلـ الـتـىـ لـاـ تـعـارـضـ مـعـ الـإـسـلـامـ . ٣ـ الـسـمـوـبـطاـقـةـ الـشـعـرـ وـطاـقـةـ الـقـتـالـ . الـإـسـلـامـ لـمـ يـحـرـمـ الـشـعـرـ وـلـكـنـهـ حـرـمـ الـمـوـضـعـاتـ الـلـاـأـخـلـاقـيـةـ . إـقـرـارـ النـبـىـ لـلـشـعـرـ وـاعـجـابـهـ بـالـطـيـبـ النـبـيـلـ مـنـهـ . النـبـىـ وـحـسـانـ . النـبـىـ وـعـبـدـ اللهـ بـنـ رـوـاحـةـ . عـبـدـ اللهـ بـنـ الزـبـرىـ فـوـذـجـ لـلـإـعـلـاءـ الـشـعـرـىـ . الـجـهـادـ الـإـسـلـامـىـ اـمـتـصـ طـاقـةـ الـجـاهـلـيـةـ . إـنـسـانـيـةـ الـجـهـادـ الـإـسـلـامـىـ . نـطـاقـ الـسـمـوـأـوـ الـإـعـلـاءـ فـيـ الـجـهـادـ : الـوـسـيـلـةـ أـوـ الـطـرـيـقـةـ وـالـمـادـفـيـةـ أـوـ الـغـائـيـةـ ..

(٣٩-٩٦)

الفـصـل الثاني : خـصـائـصـ الـقـيمـ الـإـسـلـامـيـةـ :

نـوعـانـ مـنـ الـقـيمـ : قـيمـ سـلـبـيـةـ — وـقـيمـ إـيجـابـيـةـ

الـخـاصـةـ الـأـوـلـىـ : التـدـرـجـ التـكـلـيفـيـ :

الـتـدـرـجـ سـمـةـ الـوـجـودـ الـحـيـ . مـاـحـقـتـهـ الـإـسـلـامـ بـالـتـدـرـجـ : ضـمـانـ التـنـفـيـذـ . تـرـسـيـخـ الـقـيمـ .

الـتـدـرـجـ سـمـةـ إـسـلامـيـةـ فـيـ كـلـ تـشـريـعـاتـ الـإـسـلـامـ وـتـكـالـفـهـ . مـاـذـاـ زـادـتـ التـكـالـيفـ فـيـ

الـمـدـيـنـةـ عـنـهـاـ فـيـ مـكـةـ ؟ مـراـحلـ تـحـرـمـ الـخـمـرـ : ١ـ التـنـطـةـ بـالـتـلـمـيـحـ الـبـعـيدـ . ٢ـ التـوـطـةـ

بالتصریح المباشر^٣— التحرم المؤقت^٤— التحرم النهائی الحاسم— موازنة بين منع
الإسلام في تحرم الخمر ومنع القانون الأمریکي في الثلاثیات .

الخاصة الثانية : الوسطية العادلة :

قيم اليهودية من التوراة والتلمود والكتابات الفقهية— خصائص هذه القيم (التنوع—
التفصیل— القوة والصرامة) انتهاء اليهودية إلى الإغراق في المادية المترفة . خصائص القيم
المسيحية : الإغراق في الروحانیة والرهبانية والمسالمة . موقف الإسلام من هذه القيم— إقرار
مالم ينسخه الإسلام ولم يتعارض معه . الإنسان في الإسلام : عقل وروح وجسد . الوسطية
الإسلامية تعنى التوفيق بين حاجات هذه العناصر . تکرم الإنسان بالعقل ودعوه إلى
التفكير والنظر ، اعتراف الإسلام بحاجات الجسد . تعطیل إشباع الغرائز بالطريق المشروع
يصادم الفطرة الإنسانية — الإسلام وحاجة الفم والبطن — الإسلام وحاجة الجنس . الروح
من أمر ربى . الإيمان بالله هو الإشباع الحقيقي للروح . الإيمان بالله عبودية وعزّة .
الطمأنينة النفسية حصيلة روحية ومنطقية للإيمان . الشجاعة وطاقة الصمود ثمرة من ثمرات
الإيمان بالله . الإيمان العملي هو معيار التفضیل بين الأفراد وبين الأمة — الوسطية العادلة
تعنى التوفيق بين مطالب العقل والجسد والروح . نهى القرآن عن الإسراف والغلو وأمره
بالاعتدال والوسطية الأخلاقية — سلوك النبي في خصوصياته لا يتعارض مع القاعدة العامة
في الوسطية ، الإلزام بطاعة الرسول في غير خصوصياته . الوسطية تقتضي التوفيق بين
«المثالى» و «الواقعي» . الوسطية تعنى التوفيق لا التلفيق .

الخاصة الثالثة : الہیمنة التشريعية

أخلاقية قواعد الشريعة الإسلامية . الأعمال بالنيات قاعدة عامة في الحكم على
الأفعال . هدف العبادات غرس القيم الأخلاقية وخلق المجتمع الصالح — الصلاة تنهى عن
الفحشاء والمنكر .. الأمر بإقامة الصلاة لا أدائها . الربط بين الصلاة والصبر وقيمة هذا
الربط . الصلاة والطمأنينة النفسية — الصوم وما فيه من قيم نفسية وأخلاقية . أخلاقية
القواعد القانونية في الإسلام وبناؤها على أساس إنساني : لافصل في
الإسلام بين القاعدة القانونية والقاعدة الأخلاقية . نظرية التعسف في استعمال الحق
وعلاقتها بالقاعدة السابقة . استعمال الحق في الإسلام مقيد بالعدل والإحسان ومقدولة
(لا ضرر ولا ضرار) — قواعد إسلامية في إزالة الضرر ودفعه وصورة المصلحة المشروعة . من
تطبيقات نظرية التعسف (الجار .. الدين) — نظرية الضرورة وعلاقتها بالقواعد
الأخلاقية — رفع الحرج عن المكلفين وسببه — الضرورة والاضطرار — أنواع الإكراه وأثره في
إباحة الأفعال — شروط الضرورة — نظرية الضرورة هي أصل نظرية الظروف الطارئة في
القانون الوضعي — الشبه الشديد بين شروط حالة الضرورة وحالة الظروف الطارئة . المنع

الإنسانى لمنظر يرى التعسف والضرورة فى الإسلام . الرحمة فوق القانون . النبي و ماعز ، النبى والغامدية . عمر وقتل مرتد فى تستر . إنسانيات الإسلام فى إقامة الحدود . الحضور الربانى فى الأوامر والواهى والأحكام .

الفصل الثالث : محمد : القيم والمنهج (٩٧ - ١٢٥)

كان خلقه القرآن — عصمة الله له من صغره فى مواجهة مفاسن الجاهلية . إيمان قريش بأسمائه على الرغم من كفرهم . رحمة مهداة . رحمة ب أصحابه وبالأعداء وبالأطفال والحيوان . الحلم والغفو عند المقدرة . محمد وأعرابي جاف . محمد وقتلة حزة — الوفاء : قصبة جليلبيب . الوفاء لذكرى خديجية . الغزالى ومفهوم الوفاء — الصبر على الشدائى والحرمان والصبر عن المتع واللذائذ . زهادة القادر وغنى النفس — التواضع : لست جبارا ولا ملكا . كيف دخل مكة . يشتراك فى حفر الخندق . بين الكبر واستعلاء الإيمان . الغزالى وكبر النسب . بين التواضع والضعة . شبهة ظاهرية : كيف يلأين النبي عينيه بن حصن ويشتدد على مسيلمة الكذاب ؟ لا ملايينة فى دين الله — محمد القدوة المثلى . مثالية واقعية فى (بشر... يوحى إلى) وجوب طاعته (في غير الخصوصيات وأمور الدنيا من معاش وطعام وشراب) — الأسوة الحسنة . التوجيه والإرشاد فى الأحداث والواقع والانطلاق من الخاص إلى العام . الاستعانة بالقصص والأمثال . التوجيه غير المباشر . يسأل المسلمون فيجيب ويفتى — يسأل المسلمين ليخلص بهم إلى حقيقة الدين والحياة . الملحظ الأخير هو أساس الطريقة الاستنباطية فى التعليم الحديث .

الفصل الرابع : شبهات على الطريق : (١٢٧ - ١٤٧)

هيئمنة العلمانية على الوطن العربى والإسلامى — أهداف خبيثة للعلمانية فى مواجهة الدين . علاقة الأخلاق الدينية بالفطرة الإنسانية وأثر التحللى بها .

شبهات يشيرها العلمانيون وردنا عليها : طبيعة انتصار الشيوعيين على الأمريكان فى فيتنام — أمريكا أقوى دول العالم على الرغم من الإباحية الخلقية — انتصارات إسرائيل . على الأمة العربية — انتصارات الدولة الإسلامية فى العصر العباسي وشخصية الرشيد . ضرورة العودة إلى الدين واستلهام طاقاته البناءة فى كل مجالات حياتنا .

خلاصة البحث (١٤٩ - ١٥٩)

المراجع (١٦١ - ١٦٥)

الفهرس (١٦٧ - ١٦٩)

رقم الاليداع ٨٤/٣٩١٠

المطبعة العصبة القاهرة ب ٩١١٨٦٢



المؤلف في سطور

- من مواليد مدينة المثلثة دفهيلية بجمهورية مصر العربية سنة ١٩٣٤ .
- يعمل حالياً مدرساً بكلية الألسن جامعة عين شمس بالقاهرة .
- جمع بين الثقافتين الأدبية والدينية فقد حصل على ليسانس دار العلوم وماجستير ودكتوراه في الأدب ولisans الحقوق ودبلوم عال في الشريعة والقانون من كلية الحقوق بجامعة القاهرة .
- عمل بالتربيـة والتعليم مدراـساً ثم موـجهاً (مفتـشاً) لـلـغـة العـرـبـيـة قبل اخـراـطـه فـي التـدـرـيـس بـالـجـامـعـة .
- بـعـث أـسـتـاذـا زـائـراً بـجـامـعـة (يل) ٢٨١.٤ بـالـلـوـلـاـيـات الـمـتـحـدـة لـمـدة عـام ثـم أـسـتـاذـا زـائـراً بـجـامـعـة الـاسـلامـيـة بـاسـلام آـبـاد بـباـكـسـتـان .
- له عدد من المؤلفات الأدبية والدينية عدا البحوث والمقالات في المجالات والصحف المصرية والعربية .